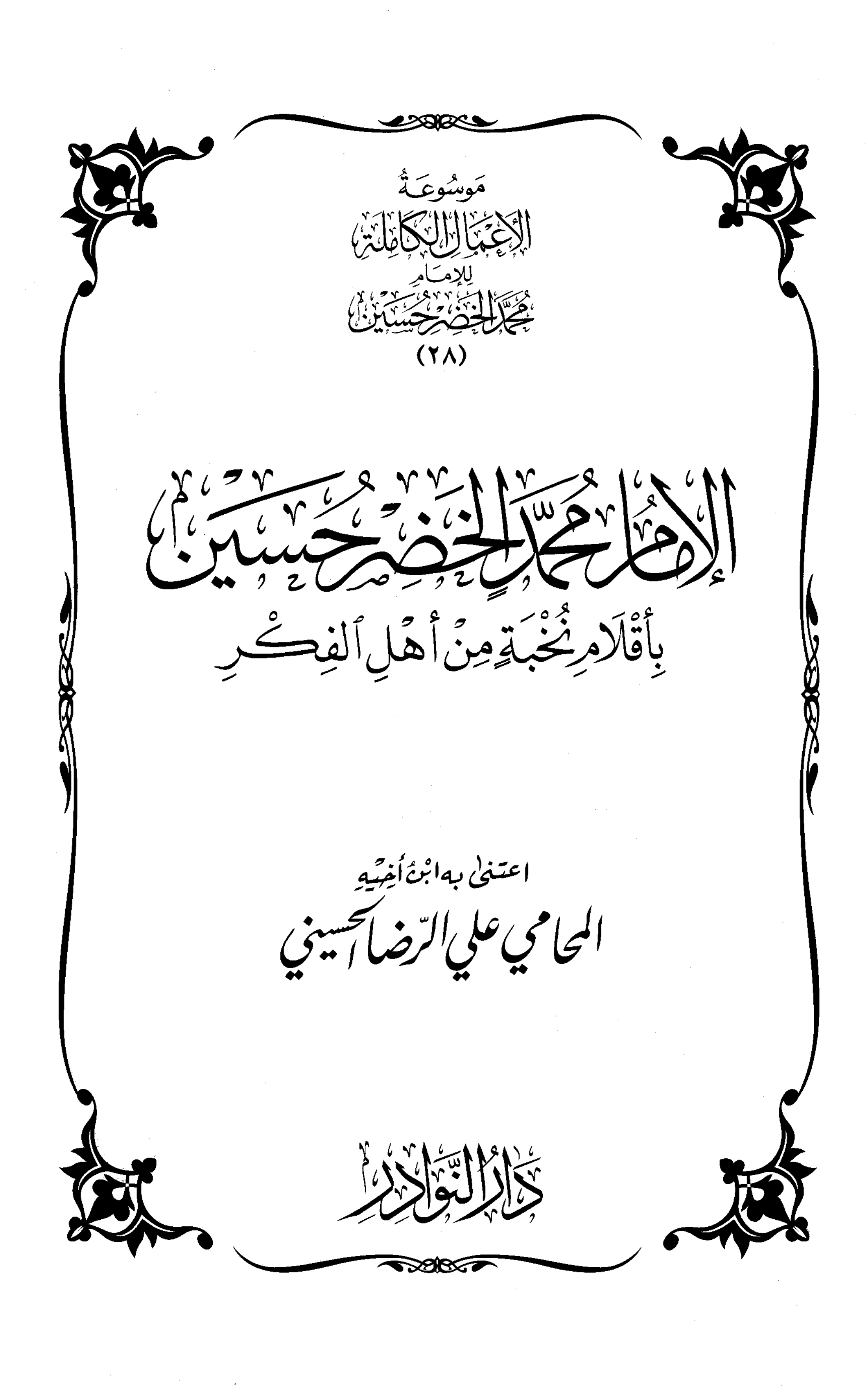


موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(٢٨)

الإمام محمد الخضر حسين

بأقلام نخبة من أهل الفكر

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٩ - ٧٧ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933418779

سورية - لبنان - الكويت

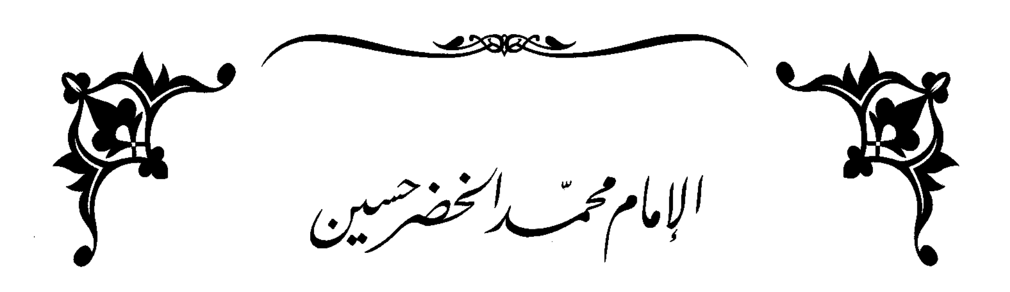
مُؤَسَّسَة دَار النَّوَادِر م. ف - سُورية * شَرِكَة دَار النَّوَادِر اللُّبْنَانِيَّة ش. م. م - لُبْنَان * شَرِكَة دَار النَّوَادِر الكُوَيْتِيَّة - ذ. م. م - الكُوَيت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب: ٥١٨٠/١٤ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أَسَّسَهَا سَنَة : ٢٠٠٦م
نُورُ الدِّين طَالِب
المُدِير العَام وَالرَّئِيس التَّنفِيذِي



هذا الإمام (محمَّدُ الخِضْرُ) الذي ... هـزَّ الـسيوفَ وسـدَّد الأقلامـا

فهو الفتى والكهلُ والشيخُ فسلْ ... عنـه المنـابرَ واسـألِ الأيامـا

فـي كـلِّ ميـدانٍ أتـاه مجلِّيـاً ... رفـعَ الأذانَ وحطَّـم الأصـناما

ابن (الحسينِ) وابنُ سيدةِ النسا ... مَـنْ أرضـعتْه لبانَهـا إسـلاما

نسبٌ إلـى شـرف النبـوة ينتمـي ... أكـرمْ بـه نـسباً زكـا إلهامـا

دعْ أصـله وصـفاتِه وانظـرْ إلـى ... أمجـاده تـروي لـك الإقـداما

علي الرّضا الحسيني

❑ ❑ ❑



مقدمة الكتاب

اطلعت من خلال الأعمال التي قمت بها منذ أكثر من عشرين عاماً، والتي تهدف إلى جمع وضبط وتحقيق آثار الإمام محمد الخضر حسين ـ رضوان الله عليه ـ على مجموعة قيمة من المقالات والدراسات والكتب التي تناولت سيرته من جميع نواحيها: الذاتية، والعلمية، في الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية والشهرية، أو المطبوعات المستقلة برسالة أو كتاب، موجزة في البعض، ومفصلة في البعض الآخر.

وبعد أن أكرمنا الله ـ جل جلاله ـ بفضله وعونه، وتم جمع كل الآثار الفكرية للإمام، وطبعت ونشرت في كتب ورسائل تزيد عن ثلاثين مطبوعة، فقد اتجهت إلى بحوث السيرة، وانتقيت منها عدداً تكون طوع الغرض الذي أرمي إليه، وأهدف من مرماه غاية نبيلة تتجلى في التسهيل على الباحث والدارس وطالب العلم في معرفة حياة وآثار الإمام، ووضعت بين يديه مختارات تكون له العضد والسند في اختصار الوقت وبذل الجهد.

عشرات الأقلام أفاضت في سيرة الإمام، منها: قلم الكاتب، وقلم العالم، وقلم الأديب، والمحقق، والصحفي، وطالب العلم، ورسائل جامعية عدة من مختلف الأقطار، وبإشراف أساتذة الجامعات ـ وأغلب أولئك الأساتيذ ممن أخذوا العلم عنه، أو تلاقت أفكارهم مع فكره النير الحكيم ـ كُتبت ونُشرت بين الناس.

وهذا الكتاب «الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر» هو واحد من تلك الصحف المشرقة.

انتخبت محتوى الكتاب، وقدمته عقداً يزين تاريخ الأعلام ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ونخبت من الأقلام نخبة تناولت سيرة الإمام في مقال أو رسالة، وراعيت في الانتقاء:

أ ـ انفراد البحث المنتقى بموضوع لم يتطرق إليه الآخر.

ب ـ اختيار الكتّاب من أقطار عدة: من تونس، ودمشق، والقاهرة، والجزائر.

ج ـ التسلسل التاريخي في نشر البحث وصدوره.

د ـ الإشارة إلى المرجع والمصدر لكل بحث في الهامش من صفحته الأولى.

يلاحظ القارئ التشابه والتكرار بين كل الدراسات من جهة السيرة الذاتية للإمام؛ كالولادة، وتواريخ التعلم والتعليم، والتنقل والمهام والأعمال التي قام بها، منذ قدومه المبارك إلى الحياة الدنيا في مدينة «نفطة» في الجنوب التونسي، إلى يوم انتقاله ـ رضوان الله عليه ـ إلى رحاب الله في «القاهرة».

ولكن القارئ سيجد بشيء من الروية والتدقيق أن كل بحث له ميزة عن الآخر، وأن الميزات كلها تعطي الصورة الأوضح لحياة الإمام ونتاجه العلمي.

ومن تمام الفائدة المتوخاة في هذه المقدمة: أن نوجز بالتعليق على المنتخبات للتعريف بها.

* **«محمد الخضر بن الحسين»:**

أول ترجمة عن حياة الإمام طلعت على الناس، تلك التي نشرت في

مجلة «البدر» التونسية للكاتب والأديب والصحفي التونسي زين العابدين السنوسي. وقد قدم الترجمة بقوله:

«يظهر أن تونس لا زالت قاصرة عن كفالة عظمائها والنابغين من أبنائها، أو أن بها مرضاً ـ ونظنه سياسياً أكثر منه اجتماعياً ـ يجعلها غير المناخ الصالح لهؤلاء، فلا يكاد يشب أحدهم ويظهر، حتى يسلم وجهه شطر الشرق حيث النسيم يهب حراً مباحاً، فيجد مجال العمل والنبوغ مفتحاً بين يديه، ليس عليه إلا أن يكون عربياً مخلصاً عاملاً لأجل العرب ونفع العموم، فتستفيد منه حكومات هاتيك البلاد وشعوبها، بينما نحن نندب ثكل تونسنا، ونصمها بالعقم، منذ أنجبت أمثال الشيخ إبراهيم الرياحي، والمشير أحمد باي، والمصلح الخطير خير الدين، وأمثال هؤلاء النبغاء التونسيين الذين خلدوا لنا تاريخاً ماجداً.

واليوم وقد عثرنا على مذكرات مهمة عن حياة أحد أولئك النابغين التونسيين في هذا العصر الذين اضطرهم نبوغهم إلى تحمل آلام الاغتراب ـ ألا وهو الأستاذ الشيخ الخضر بن الحسين ـ فرأينا أن نثبتها فيما يلي خدمة للتاريخ».

وبعد المقدمة، أورد الكاتب ترجمة الإمام منذ الولادة، وحتى دخوله القاهرة.

هذه الترجمة بنصها الكامل مع تحوير بسيط في بعض الكلمات حذفاً أو زيادة أو تنقيحاً. صدرت ضمن كتاب «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» للأستاذ السنوسي، وقد اعتمدنا النص الوارد في الكتاب.

ومما أراه من مميزات هذه الترجمة: أنها الأولى في بابها، والأساس

الأقوى التي قامت عليه التراجم اللاحقة. وأخذ أكثر الباحثين عنها، فهي من المراجع الهامة التي يعتد بها.

*** «الاحتفال بعودة الإمام من سورية»:**

أقامت جمعية «الهداية الإسلامية» التي كان يرأسها الإمام محمد الخضر حسين في القاهرة حفلاً إسلامياً بمناسبة عودته من زيارة إلى دمشق عام (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م)، وكانت كلمة الأستاذ محمود حافظ أحد أعضاء الجمعية في ذاك المنتدى الفكري من أهم الكلمات التي تحدثت عن حياة الإمام.

*** «شيخ الأزهر محكوم عليه بالإعدام»:**

عنوان مثير، يخطف الأبصار، فتتهافت الأيدي لالتقاف المجلة، وقراءة التحقيق بمزيد من الرغبة والفضول. وهو أسلوب رجال الصحافة في انتخاب العناوين التي تملأ الآذان طنيناً ورنيناً.

وقلم الأستاذ الصحفي أحمد لطفي حسونة من الأقلام المهتمة بالقضايا الإسلامية، فقد صحب الإمام في مرحلة مشيخة الأزهر، ونقل أخباره وأعماله.

وهذا البحث في حياة الإمام، بل التحقيق الصحفي لصحة التسمية، لا يعرف كاتبه تفاصيل سيرته، وإنما كان يتردد على مشيخة الأزهر ليلتقط عن النشاط الإسلامي خبراً للصحيفة، أو يتبعه إلى المسجد ليصلي وراء الإمام، فأخذ منه معلومات صاغها في هذا التحقيق الذي يمكن الاعتماد عليه، والوثوق به؛ لصدوره عن الإمام بالذات.

يقول الأستاذ حسونة: «ويروي الأستاذ الأكبر قصة إفلاته من أيدي الفرنسيين، فيقول...» ... «ويقول الشيخ في تواضع وطيبة...»، وهذا بحث له ميزته؛ لأن جلّه من حديث الإمام.

ولا بد من الإشارة إلى سهو وقع فيه الأستاذ حسونة عندما قال: «ولم يرزقه الله أولاداً. . .»، والصحيح أن له ابنة من زوجته الأولى في تونس.

*** «معلوماتي الخاصة عن شيخي علامة العصر ـ الأستاذ محمد الخضر بن الحسين»:**

كتب شيخ الصحافة التونسية الأستاذ الطيب بن عيسى حلقات في ترجمة الإمام، ضمنها معلوماته الخاصة عن شيخه علامة العصر كما أشار إلى ذلك في العنوان.

نشرت في صحيفة «الأسبوع» التونسية، وهي ترجمة وافية وجامعة.

وقد أعاد الكاتب نشرها بالنص الكامل في صحيفة «المشير» التونسية عند انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى تحت عنوان «في ذمة الله ـ العلامة محمد الخضر بن الحسين ـ بقلم تلميذه الطيب بن عيسى». وليس في الطبعة المكررة سوى زيادة في المقدمة التي قال فيها الكاتب: «نعت قاهرة مصر الأستاذ الكبير، والعالم الديني الشهير، شيخي محمد الخضر بن الحسين، فكان للخبر وقع عظيم لدى الأوساط العلمية الراقية؛ لما له من المكانة في قلوب عارفي فضله وعلمه، لا سيما تلاميذه بتونس وسورية ومصر، ولمعلوماتي الخاصة عن تاريخ حياة هذا الرجل العظيم الذي لعب أدواراً سامية في عصره المحفوف بالمشاكل الدينية والسياسية، فسأنشر نبذاً تاريخية عن حياته العامرة بالأعمال الجسام تباعاً، وابتداءً من هذا العدد؛ إذ خسارتنا في فقده لا تعوض».

وقد اخترنا النص المدون في صحيفة «الأسبوع»، وهي الأسبق تاريخاً.

*** «شيخ الأزهر السابق السيد محمد الخضر حسين»:**

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب في مطلع البحث: «وسأتحدث في

هذه الصفحات إلى إخواني من شباب المسلمين وكهولهم وشيوخهم عن مراحل حياة هذا الرجل المؤمن بالإسلام، كما راقبتها فيه، أو علمتها منه، من سنة ١٣٣٠ إلى أن اختاره الله إليه».

وخير الأنباء ما يأتيك بها خبير صادق، والأستاذ الخطيب قضى برفقة الإمام ما يقارب من سبعة وثلاثين عاماً، فهو من الرجال القلائل الذين صحبوه هذه الفترة الطويلة، وأخلصوا له الود، واستمعوا إلى أحاديثه المطولة.

ويمكن أن نعتبر التواريخ والوقائع التي أوردها الأستاذ الخطيب عن حياة الإمام هي الأصدق والأقرب إلى الحقيقة؛ لأنه كما يقول: «راقبتها فيه، أو علمتها منه».

*** «المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين»:**

أقام مجمع اللغة العربية بالقاهرة حفل تأبين الإمام، وقد ألقى فضيلة الشيخ محمد علي النجار الأستاذ في كلية اللغة العربية بالأزهر كلمة تناول فيها حياته، وأعماله الجليلة، وآثاره الخالدة، وألقيت في جلسة المجلس العلنية في ٣١/٣/ ١٩٥٨ الدورة الرابعة والعشرون.

*** «الشيخ الخضر»:**

للأستاذ أحمد حمزة الوزير السابق، وصاحب مجلة «لواء الإسلام» الصادرة في القاهرة اعتقاد كبير بالإمام وصلاحه، وعلمه وتقواه. لذا نراه يقول في كلمته: «ومذ اتجهنا إلى إنشاء مجلة «لواء الإسلام» نتقدم بها محتسبين النية خدمة لهذا الدين الحنيف، وبياناً لحقائقه، لم نجد علماً يحمل اللواء سوى الشيخ الخضر حسين».

والأستاذ حمزة عندما يتحدث عن الإمام، فهو حديث عارف به، مرافق

له في رحلته وجهاده في «لواء الإسلام» لنصرة الإسلام.

* **«تونس تفقد عبقرياً من أبنائها بمصر»:**

مقالة للأديب والصحفي الأستاذ علي الجندوبي في جريدة «النداء» التونسية، والمقال على إيجازه، فهو عرض سريع ومكثف لحياة الإمام وأعماله.

* **«محمد الخضر حسين ـ شيخ الأزهر السابق»:**

الأديب والكاتب التونسي الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو، كان السَّبَّاق في وضع دراسة مستفيضة عن الإمام أصدرها في كتاب مستقل. وهو من المهتمين بأعلام تونس، وله فيهم دراسات قيمة. وهذا البحث تقدم نشره على خمس حلقات في الملحق الثقافي لجريدة «العمل»، التونسية ثم أعاد نشره في سلسلة «أعلامنا».

بذل الأستاذ (كرو) جهداً في إعطاء ترجمة مسلسلة التاريخ، منسقة العرض، بديعة الأسلوب لحياة وأعمال الإمام محمد الخضر حسين، وكأني أحس من خلال قراءة الترجمة أن أديب تونس يوفي واجباً وطنياً ودينياً بذمته، ويحاول أن يزيح من سماء تونس غيوماً داكنة، نشرها جاهل ومغرور وأحمق فترة طويلة من الزمن، فأطبقت بكلكلها على تاريخ البلد والثقافة، فتصدى الأستاذ (كرو) للعاصفة الهوجاء، فأزاح عن تونس حجب الظلام، وأبان أنه في تونس «رجال أفذاذ في شتى ميادين الكفاح والنضال، وفي جميع نواحي الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية. فمنذ فجر يقظتها، وهي تلد الأفذاذ والعباقرة، كما تلد الأبطال والنبغاء في كل الميادين».

ثم يصفع أديب تونس ذاك الجاهل والمغرور والأحمق صفعته، فيقول:

«وها أنا أختار واحداً من أولئك الأفذاذ النبغاء، الذين أنجبتهم هذه التربة الولود، رجل جمع إلى الذكاء والجد والحصافة والنبوغ، صفاتِ الشهامة والبطولة والإخلاص الوطني».

وقد حييته بأبيات من ديواني «تونسيات» إثر إهدائه كتابه «محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق»، فقلت:

يـا (أبـا القاسـم) يـا أوفـى أخٍ	فـاض آدابـاً وأرسـى الخُلقـا
لـك كـفٌّ أبـدعت فـي قلـمٍ	سطَّر الفـصحى وأحيـا الرمقـا
قـد أضـاء الـدرب مـن إشـعاعه	فـإذا الإشـعاع طـال الأفقـا
خفقـت ألويـة الفكـر لـه	فغـدت تـونس تحكـي المـشرقا

* **«محمد الخضر حسين ـ عالم فذ، ومجاهد من الرعيل الأول»:**

من كتاب «من الفكر والقلب» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي اخترنا هذا المقال.

وفضيلة الدكتور البوطي أحدُ الذين تلقوا العلم عن الإمام في الأزهر، وهو في مقاله هذا يضرب المثل السامي على وفاء المتعلم للمعلم، ويؤكد على رابطة الشرف والطهارة بين التلميذ وأستاذه.

إن زيارة الدكتور البوطي للإمام في داره في أيامه الأخيرة، صفة من صفات العالم الفاضل الذي يذكر أهل الفضل، ولا ينسى أساتيذه الذين كانوا هداة طريقه، ومنارات حياته.

وعندما قرأت ما كتبه في آخر المقال: «ولا أزال أذكر يوم عدته في السنة الماضية في بيته في القاهرة، رأيته جالساً على مقعد إلى جانب مكتبه، وقد ذوى

منه الشكل، وذابت معظم ملامح وجهه، وامتزجت ـ من الضعف ـ الكلمات بعضها في بعض على شفتيه، ورأيت ـ رغم هذا ـ قلماً يرتجف في يده...».

عندما قرأت هذه الكلمات، قلت: إن العلماء الأبرار يلاقون ربهم بذكر الله، وأقلام الحق قائمة في أيديهم.

*** «محمد الخضر حسين ـ عالم مجاهد»:**

نشرت مجلة «الأزهر» في القاهرة بحثاً قيماً للكاتب الإسلامي الدكتور محمد رجب بيومي. وقد عالج فيه الباحث أموراً شتى من حياة الإمام، وخص كتابيه: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، و«نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» بعرض جيد، يستحق أن يحفظ في الكتاب. ولهذه الميزة في البحث ضممناه إلى المجموعة المختارة.

ولا بد من الإشارة إلى السهو الوارد في المقال عن مكان مولد الإمام، فقد ذكر الكاتب أنه ولد بقرية من قرى الجزائر، والصحيح أنه ولد في «نفطة» بالقطر التونسي.

*** «محمد الخضر حسين ذلك الجندي المجهول»:**

بحث له أهميته؛ نظراً للرابطة المتينة بين الإمام، والكاتب الشيخ عبد القادر سلامة. وعندما يتحدث التلميذ عن أستاذه بوقار واحترام، مع طول العهد، وبُعد الدار والمزار، فإن حديثه ينبع من فكر وقلب مؤمنين، فكر أحاط بالمعرفة، وتلقى العلم الصافي من معلم صافي السريرة. وقلب غمره الإيمان الممزوج بحب الشيخ لشيوخه.

ولعل أهم ميزة اختص بها البحث: تناوله لأخلاق الإمام التي لمسها

منه بنفسه «كان خلقه قبساً من شمائل النبوة، ومشكاة من هدي القرآن»، والتي تتجلى في:

ـ محبته لتونس الوطن الأم، وزيارته وحفاوته لكل تونسي يمر بالقاهرة، فيسأل عن أحوال تونس صغيرها وكبيرها.

ـ حفاظه على المودة والإخاء، وجمع العاملين لتحرير المغرب.

ـ مجلسه مجلس علم وحلم ودين ووقار.

ـ اهتمامه بشؤون جميع المسلمين، وسعيه لجمعهم على العمل لطاعة الله وطاعة رسوله.

ومن أجمل ما جاء في المقال: كلمات معبرة صادقة للشيخ سلامة إذ يقول: «وقد ترى أن النوابغ في المغرب، تشرق من المغرب، وتغرب بالمشرق».

*** «مع العلامة محمد الخضر حسين في جهاده»:**

الأستاذ سعدي أبو جيب جمع في قلمه خصائص لا تجدها إلا عند النادر من أصحاب الأقلام.

قلمه لا يكتب إلا ما يؤمن به حقاً، وإن الكلمات التي يخطها جديرة أن تسطر على الكاغد. فهو قلم مؤمن صادق.

وقلمه طيِّع في يد أديب، يجعل قراءة البحث المكتوب متعة أدبية للقارئ.

وقلمه قلم باحث يكتب عن روية وتمحيص، ويضع الكلمة في موضعها اللائق، ويعرض الأفكار عقداً مترابطاً.

وقلم المؤمن الصادق، وقلم الأديب البارع، وقلم الباحث المحقق،

كلها التقت في قلمه لتصوغ هذا البحث الممتع .

* **«محمد الخضر حسين ـ تونس ٦٧ عاماً الاحتلال الفرنساوي»:**

من سلسلة الكتاب الشهري لصحيفة «الحرية» بتونس: الكتاب الرابع تقديم وتحقيق الأستاذ كمال العريف. والمحققُ من الصحفيين والأدباء أصحاب الهمم السامية، والغيورين على تاريخ تونس، وقد أخذنا مقدمة الكتاب؛ لما تحويه من معلومات هامة.

* **«أعلام الجزائر ـ الشيخ الإمام محمد الخضر حسين»:**

الأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السائحي من الأدباء والصحفيين الجزائريين، أتى في جزء من دراسته على تلخيص لكتاب الأستاذ محمد مواعدة «محمد الخضر حسين ـ حياته وآثاره».

أوردتُ المقالات والبحوث دون أي تعليق، رغم أن في بعضها من الفقرات ما يحتاج إلى رد، وإذا شئنا تهذيب اللفظ، فنقول: إن هناك أفكاراً وآراء تحتاج إلى مناقشة، وهي بالشكل المرسومة فيه، إذا عبرت عن نظرات أصحابها، فلا يعني هذا رضاءنا عنها، ولكل مجتهد نصيب فيما اجتهد به.

لذا ندع التعليقات والإيضاحات إلى كتاب آخر ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وكنت قد خطَّطت أن أجمع كل ما قيل في الإمام محمد الخضر حسين ـ رضوان الله عليه ـ على أقلام العلماء والأدباء، ورجال الصحافة والسياسة، فوجدت أن الطريق سيطول، وأن هذه المرحلة في هذا الكتاب كافية الآن. وعسى أن نحقق الأمل مع الأيام القادمة.

إن الإمام محمد الخضر حسين لم يكن تونسياً أو جزائرياً، أو سورياً

أو مصرياً، إن المكان لا يعني شيئاً بالنسبة له، فقد كان فوق النظريات الإقليمية، والدعوات الفاسدة. كان مسلماً حقاً، ومؤمناً حقاً، وعالم الإسلام هو عالمه الذي عاش فيه ومن أجله.

وأروي في خاتمة المقدمة أبياتاً من شعر الإمام في ديوانه «خواطر الحية» يقول فيها:

تسائلني هل في صحابك شاعر؟	إذا متُّ قال الشعر وهو حزين
فقلت لها: لا همَّ لي بعد موتتي	سوى أن أرى أخراي كيف تكون
وإن أحظ بالرحمى فما لي من هوى	سواها وأهواء النفوس شجون
وإن شئت تأبيني فدعوة ساجد	لها بين أحناء الضلوع حنين

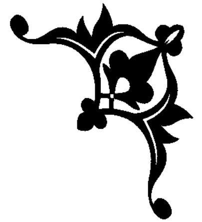
وما كتابنا هذا كيل مديح للإمام، والمديح والاطراء لا يقدم أو يؤخر عند ربه، ومرمانا أن ينهج سيرته مجاهد مؤمن، فيدعو للإمام في سجوده دعوة صالحة. فيكون هذا الكتاب دعوة ساجد لله يبثها من حنين يملأ أحناء الضلوع أن يجعله مع الصديقين والشهداء والأبرار والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

والحمد لله رب العالمين

علي الرّضا الحسيني

ربيع الأول ١٤١٣هـ/ أيلول ١٩٢٢م



محمد الخضر بن الحسين

بقلم زين العابدين السنوسي(١)

«الأديب والصحفي والمؤرخ التونسي، ولد بسيدي بوسعيد من ضاحية تونس الشمالية عام ١٣١٨هـ - ١٩٠١م. وتوفي عام ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

مؤلفاته عديدة أهمها: الأدب التونسي في القرن الرابع عشر».

* **نشأته:**

ولد مترجمنا يوم ٢٦ رجب ١٢٩٣هـ، بمدينة «نفطة» عاصمة الجريد التونسي، فنشأ في ظلال النخيل، وزقزقة (البوحبيبي) ذلك العصفور المتحبب الظريف، والمؤانس اللطيف، يرتل صلواته كل صباح على النوافذ وفوق الستائر، وقد يأنس فيقتحم سجف الفراش؛ حيث يقف على الوسائد نفسها، يقلب وجهه في النائمين، ويحييهم بأغنيته الرقيقة المبهجة، فيملي على الصغير من سيرة آبائه الثقات البررة ما يعلمه الصدق والدعة والأنس.

نشأ هناك على سلامة الطوية والصدق، وترعرع على مبادئ الورع، وفي وسط علمي، إلى أن انتقل والده إلى العاصمة التونسية سنة ١٣٠٦؛ حيث أتم تعليمه الابتدائي، والتحق في العام الموالي بالكلية الزيتونية، يدرس الدين

(١) كتاب «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر».

واللغة إلى أن تخرج سنة ١٣١٦ بشهادة المعهد (التطوع) على أنه لم ينقطع عن حضور حلقات أكابر الأساتذة، مثل: الشيخ عمر بن الشيخ، والأستاذ محمد النجار، اللذين كانا يقرآن التفسير، والشيخ سالم بوحاجب في درسه «صحيح البخاري».

*** قبل مهاجرته:**

إلا أنه لم يكد يستقر على حاله هذا، ويرى تشابه يومه بأمسه، حتى عاف تلك الحياة المتماثلة، فعزم على الرحلة إلى الشرق؛ ليدرس حالته العلمية، ويعرف أحواله الاجتماعية. فسافر سنة ١٣١٧، إلا أنه لم يتم رحلته هاته، إذ اضطر للرجوع من طرابلس الغرب بعد أن أقام بها أياماً.

وهكذا رجع الأستاذ للمعهد الزيتوني الذي تخرج منه، يفيد ويستفيد إلى سنة ١٣٢١، حيث أنشأ مجلة «السعادة العظمى»، فكانت من أحسن مجلات عصرها العلمية، والمسرح الحر الذي تبارت فيه أقلام الكتاب الزيتونيين في مختلف المسائل الدينية والأدبية. وقد لقي صاحب هاته المجلة الإصلاحية ما يلاقيه كل مصلح من المحافظين، حتى قال له الشيخ سالم بوحاجب في أحد الأيام: «لا يهمك ما تلاقيه في سبيل ما أنت آخذ به، ولتكن لك بنبيك أسوة، إذ قال له ورقة بن نوفل: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

وفي سنة ١٣٢٣ تقلد منصب القضاء بمدينة «بنزرت»، كما عهد له بالخطابة والتدريس بجامعها الكبير. على أن التوظف لم يكن بالمقيد له عن القيام بواجباته الاجتماعية ـ خلاف متوظفي الحكومة التونسية في العهد الأخير ـ، فلقد تعود الشعب أن لا يرى من المتوظف إلا مظاهر حكومية بحتة، بما يستعمله

الرؤساء من الضغط على المتوظف التونسي، فكل حركة يأتيها يرعد لها الرؤساء، حتى المشاركة في الجمعيات الأدبية، ولا غرو، فإن الجمعيات الأدبية إنما تقصد تعضيد اللغة العربية لا الفرنسية، الأمر الذي يعتقد أولئك الرؤساء أنهم لم يأتوا من وراء البحار لتأييده. نذكر من ذلك محاضرته «الحرية في الإسلام» التي ألقاها بنادي (جمعية قدماء الصادقية)، فلقد كان لها تأثير كبير، وحضرها الطبقة العالمة والمفكرة، وحتى بعض المستعربين من الأجانب، ونُشرت فتناقلتها الصحف.

هذا، ولما كان الرجل حراً بطبيعته، وقد أحس بأن الحكومة ـ إذاك ـ تحاول أن تطفئ منه ذلك النور المشع، وتقتل روحاً نشيطة لا زالت متأججة بين جنبيه، ليكون على ما عودت به سائر موظفيها من السكون والاستسلام في ظل مرتب يأتي بانتظام، ويذهب بمثله.

لما أحس بذلك، أبى عليه حزمه أن يكون ذلك المستضعف المغبون، فقدم تسليمه، وأكده بإرادة قوية، حتى لما رأت عزمه، قبلته منه، فرجع للعاصمة متطوعاً بإلقاء دروسه المعتادة في الكلية الزيتونية، وعندها عينته نظارة الجامع لتنظيم خزائن الكتب. وفي سنة ١٣٢٥ شارك مشاركة عملية في تأسيس جمعية زيتونية، وفي مدتها تولى وظيفة التدريس بالكلية بصفة رسمية، وفي سنة ١٣٢٦ عين مدرساً بثانوية الصادقية، وانتخبته هيئة إدارة الخلدونية لإلقاء محاضرات في الإنشاء على تلامذتها، فقام بهاته الوظائف أحسن قيام، وكان لا يفتر عن إتحاف الشعب ببنات أفكاره بين الفترة والأخرى، كمحاضرته «حياة اللغة العربية».

ولما قامت الحرب الطرابلسية الإيطالية، كان من أعظم الدعاة لإعانة

المجاهدين في سبيل استقلالهم، والهلال الأحمر نفوذاً، وقد نشر بجريدة «الزهرة» الغراء قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

ردوا على مجدنا الذكر الذي ذهبا　　　يكفي مضاجعنا نـوم دهـا حقبـا

ثم رحل إلى بلاد الجزائر، فزار قواعدها وأكثر مدنها، وكان يلقي المحاضرات العلمية أينما ارتحل ليلاً ونهاراً، وكان يلاقي التعظيم والتبجيل أينما حل، ثم رجع لتونس مستمراً على إلقاء دروسه في الكلية الزيتونية، والنشر في الجرائد من علميات وأدبيات.

وفي سنة ١٣٣٠ انتقلـت عائلته إلى الشـام، ونزلت دمشـق، فالتحق بهم صاحب الترجمة ماراً بمصر، ثم سافر إلى الآستانة، فدخلها يوم إعلان حرب البلقان، فزار أهم مكاتبها، واختلط بأهلها، فدرس من حالتهم الاجتماعية والعمومية ما مكنه من نشر رحلة مفيدة على صفحات بعض الجرائد التونسية بمجرد رجوعه، وذلك في ذي الحجة سنة ١٣٣٠؛ حيث رجع لما كان عليه. وأول محاضرة اجتماعية ألقاها بعد رجوعه كانت في «مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها». وقد شاءت الحكومة التونسية أن تتعرف بعض الحقائق عن تاريخ تونس، فعينته في اللجنة المكلفة بذلك، فعمل فيها، إلا أنه في شعبان من هذه السنة عزم بتاتاً على مفارقة مسقط رأسه، والمهاجرة إلى حيث يهب النسيم من الشرق وإلى الشرق حراً.

*** في المهجر:**

سافر الأستاذ التونسي إلى الشرق، بعد أن ودّع أصدقاءه في الجزائر، حيث ركب من مدينة عنابة، فلما نزل مصر، تعرف بكثير من دعاة الرابطة العربية مثل: رفيق بك العظم صاحب «أشهر مشاهير الإسلام»، والشيخ رشيد

رضا صاحب «مجلة المنار».

ثم سافر الأستاذ إلى الشام، فقابله عظماؤها بالترحاب، ونوهت الجرائد العربية هناك بمسامراته العلمية والأخلاقية. إلا أنه لم يقر له قرار حتى عزم على زيارة الإمبراطورية العثمانية، فنزل جنوباً حتى المدينة المنورة، ثم صعد شمالاً حتى الآستانة، فزار منها ما لم يزره في سياحته الأولى، ومن هناك تعين مدرساً للغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بمدينة دمشق، فقام بوظيفته أحسن قيام، وكان مثابراً على إلقاء المسامرات العلمية في المساجد الكبرى، ونشر المقالات الإصلاحية في الجرائد السيارة، وقد اهتم بوجه خاص بالمشكلة العربية التركية، محاولاً تجديد روابط الألفة، مهما أحس بتوترها بين مركز السلطنة، والأغلبية العظمى من رعاياها.

فلما أعلنت الحرب العالمية، وتولى جمال باشا حكم المقاطعة السورية، كاد أن يكون الأستاذ أحد ضحايا الصرامة التي استعملها القائد مع كل من ينتمي إلى النهضة العربية؛ حيث ألقي عليه القبض بدعوى اطلاعه على حركة المتآمرين، دون أن يحاول تنبيه السلطة لما يدبر لها من الأخطار، فاعتقلته ستة أشهر وأربعة عشر يوماً، ثم قدمته للمحاكمة، فظهرت براءته، فاعتذرت له، وأطلقت سبيله يوم الأربعاء من شهر ربيع الثاني ١٣٣٥.

فمن شعره في حبسه يوم حيل بينه وبين أدوات الكتابة:

غلّ ذا الحبس يدي عن قلمٍ ... كان لا يصحو عن الطرس فناما

هل يذوذ الغمض عن مقلته ... أو يلاقي بعده الموتَ الزؤاما

أنا لولا همةٌ تحدو إلى ... خدمة الإسلام آثرتُ الحِماما

ليست الدنيا وما يُقسم من ... زهرها إلا سراباً أو جَهاما

وقال في محاورة بعض الأدباء الذين كانت المجالس العسكرية تلقي عليهم القبض بين الفترة والأخرى مدة الحرب وولاية جمال باشا الحكم في القطر السوري:

رأى صاحبي في الحبس أن الحياة في الـ ـحضارة أرقى ما يتم به الأنسُ

فقلت له: فضلُ البداوة راجحٌ ويكفيك أن البدو ليس به حبسُ

قلت: إن الأستاذ أطلق سراحه سنة ١٣٣٥، فرجع إلى التدريس بالمدرسة العثمانية، ثم نظم مسامرات علمية ودينية عالية، يلقيها على بعض طلبته المنتهين، واستمر على ذلك إلى أن استدعاه المركز سنة ١٣٣٦ منشئاً عربياً بالوزارة الحربية، فلعب دوراً مهماً في ترويج سياسة الحكومة، كما عينته المشيخة الإسلامية واعظاً بجامع الفاتح، فبقي في وظائفه إلى سنة ١٣٣٧ التي جاءت فيها ارتباكات الآستانة، فبارحها الأستاذ عائداً إلى دمشق. فمن أدبياته في الموضوع قوله:

أنا كأس الكريم والأرض نادٍ والمطايا تطوف بي كالسقاة

ربَّ كأس هوت إلى الأرض صدعاً بين كف تديرها واللهاة

فاسمحي يا حياة بي لبخيل جفنُ ساقيه طافحٌ بالسبات

وقال:

كأني دينار ودمشق راحة تعودت الإنفاقَ طول حياتها

فكم سمحت بي للنوى عقبَ النوى ولم أقض حق الأنس بين سراتها

وما كاد يصل دمشق عاصمة الأمويين، حتى عين عضواً بالمجمع العلمي العربي، ومدرساً بكل من المدرسة العثمانية والمدرسة العسكرية والمدرسة

السلطانية، إلا أنه عزم على الذهاب إلى محور النهضة العربية اليوم، فلم يباشر وظائفه تلك، وقصد مصر بلاد الفراعنة، حيث يعرف الشعب قيمة الحرية والاستقلال، ومكانة اللغة من تكوّن الشعب ومستقبله.

وهناك في بلاد النيل، ولي التصحيح بدار الكتب المصرية، ثم صرح له جلالة ملك مصر في دخول شهادة العالمية، التي ما كاد يحرزها حتى انتدب للتدريس بقسم التخصص.

ثم في سنة ١٣٤٧هـ أضيف لدرس البلاغة الذي كان يلقيه لطالبي التخصص درسان آخران، أحدهما في الوعظ والإرشاد، والثاني في التاريخ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن إلقاء المسامرات العلمية والاجتماعية المؤيدة بروح الدين، ومع ذلك فهو العضو النشيط في جمعيتي (الشبان المسلمين) و(الهداية الإسلامية)، ولهاته الأخيرة مجلة يتولى رئاسة تحريرها.

*** أدبه:**

يذهب الأستاذ في أدبه مذهب الحقيقة والواقع، فأدبه غني بالحكمة، وغني بالوصف الدقيق، والبعيدِ عن كل شعوذة وكل خيال.

ولا غرو، فإن كثرة تنقلات الأستاذ، ووفرة محصوله العقلي، وسعة معلوماته واختباراته، لكفيلة بأن تغريه بذلك المذهب الذي لا تغويه عن العظة والفائدة غاوية، وهو على بينة من حقيقتها تلك، فيصفها:

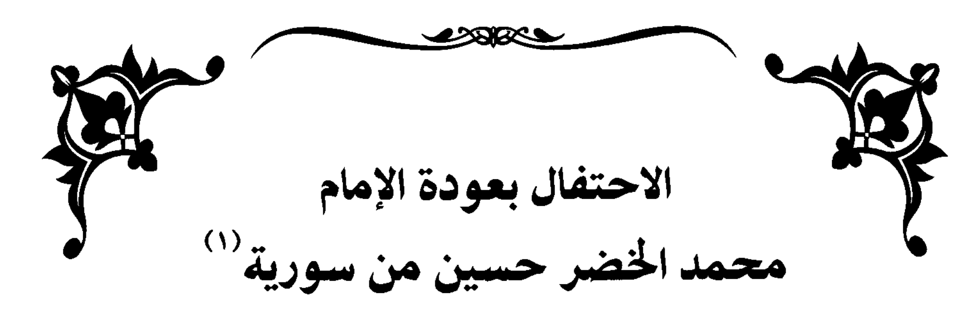
أقول فلا أرتاد غير خصيب   وأنظم لكن لا أطيل نسيبي
أجدّ وإن رام النديم دعابة   فلم ترَ غيرَ الجد عينُ رقيبي

*** ديباجته:**

ومع أن تعلم الأستاذ كان زيتونياً بحتاً (نسبة لجامع الزيتونة)، ومع أن

نشأته كانت بين طبقة تحصر العلم بين شدقي الفقه ومحسنات البديع الذي كان في نظرهم الأدب كله، فقد منع الأستاذ بأدبه من تقعراتهم، وأسلس بيانه سائغاً سهلاً.

❑ ❑ ❑



الاحتفال بعودة الإمام محمد الخضر حسين من سورية[1]

بقلم محمود حافظ

«أقامت جمعية «الهداية الإسلامية» بالقاهرة حفلة تكريم للإمام بمناسبة عودته من سورية، وذلك مساء الجمعة ١٦ شعبان ١٣٥٦ الموافق ٢٢ أكتوبر تشرين الأول ١٩٣٧ . وتحدث عدد كبير من العلماء والأدباء عن فضله وعلمه وجهاده.

وقد ألقى فضيلة الأستاذ محمود حافظ أحد أعضاء الجمعية كلمة في المناسبة».

سادتي!

لئن حق علينا أن نكرم بعض الرجال، فأَولى هؤلاء بالتكريم هم العاملون المخلصون الذين يكرسون حياتهم في خدمة العلم والدين وإعلاء شأنه، ويبذلون الثمين والغالي في تثبيت قوائمه، وتدعيم أركانه.

وما المحتفل به في هذه الليلة إلا أحد هؤلاء الرجال الأبطال، الذين كان لهم من ماضيه المجيد، وله من حاضره السعيد، خير شاهد على تضحيته وجهاده، وأنصع دليل على خدماته الجليلة في شتى النواحي، ومختلف الميادين.

نشأ المحتفى به في تونس، ودأب على الدرس والبحث والاستقصاء

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد العاشر.

حتى أحرز شهادة العالمية، وأقبل على التدريس في جامع الزيتونة متطوعاً، وأصدر مجلة «السعادة العظمى»، وكانت حافلة بالفوائد ومباحث الإصلاح، إلى أن رأت الحكومة في ذلك الوقت الانتفاع بمواهبه في القضاء، فعين قاضياً شرعياً في مدينة «بنزرت»، ولما كان فضيلته من ذوي النفوس التي تريد الدأب على البحث وطلب المزيد من العلم، لم يرض أن يحصر نفسه في ذلك المحيط الضيق، والدائرة المحدودة، فاستقال من منصب القضاء طائعاً مختاراً، وعاد إلى الحاضرة، فعين أستاذاً في جامع الزيتونة، ومدرساً بالمدرسة الصادقية، وهي أكبر مدرسة للحكومة في تلك البلاد، وانتخبته الحكومة عضواً في لجنة تنظيم كتب المكتبة الصادقية، والمكتبة الزيتونية، وعضواً بلجنة وضع التاريخ التونسي العام، وعضواً بمجلس النظر في شؤون المدارس، وأصبح التونسيون مجمعين على الاعتراف بفضله وخدماته، ويحملون له أطيب الذكريات.

وألقى في (نادي جمعية قدماء الصادقية)، و(المدرسة الخلدونية) محاضرات طبع منها: «الحرية في الإسلام»، و«حياة اللغة العربية»، و«مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها»، وطبعت له في تونس رسالة «الدعوة إلى الإصلاح».

ثم شدّ رحاله إلى بلاد الشام، فاستقبلت فيه عالماً جليلاً، وباحثاً مدققاً، رأت أن تنتفع بعلمه وعرفانه، فعين أستاذاً لآداب اللغة العربية بالمدرسة السلطانية بدمشق.

انظر ماذا يقول أحد أعضاء المجمع العلمي في دمشق[1] عن فضيلة المحتفى به:

---

(١) هو فضيلة علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله تعالى.

«أستاذنا الجليل الشيخ محمد الخضر حسين، علم من أعلام الإسلام، هاجر إلى دمشق في عهد علامتي الشام: الشيخ البيطار، والشيخ القاسمي، فاغتبطا بلقائه، واغتبط بلقائهما، وكنا نلقاه ونزوره معهما، فأحكمت بيننا روابط الصحبة والألفة والود من ذلك العهد، ولما توفي شيخنا القاسمي سنة ١٣٣٢هـ، لم نجد نحن ـ معشر تلاميذه ـ من نقرأ عليه أحبَّ إلينا ولا آثرَ عندنا من الأستاذ الخضر؛ لما هو متصف به من الرسوخ في العلم، والتواضع في الخلق، والبر بالإخوان ـ إلى أن قال:

وأخذنا في ذلك الحين نقتطف ثمار العلوم والآداب من تلكم الروضة الأُنُف، ونرتشف كؤوس الأخلاق من سلسبيل الهدى والتقوى، ولم يكن طلاب المدارس العالية في دمشق بأقل رغبة في دروسه، وإجلالاً لمقامه، وإعجاباً بأخلاقه من إخوانهم طلاب العلوم الشرعية، بل كانوا كلهم مغتبطين في هذه المحبة والصحبة، مجتمعين حول هذا البدر المنير».

واستمر كذلك في بلاد الشام يخدم الدين وأبناءه، وينشر العلم ولواءه، حتى إذا نشبت الحرب العالمية العظمى سنة ١٩١٤، ودارت رحاها، اتصل بالمرحوم أنور باشا وزير الحربية، ورحل إلى ألمانيا، وقضى بها نحو تسعة أشهر، تعلم في خلالها اللغة الألمانية، وانتهز هذه الفرصة، فدرس الشيء الكثير عن حالة المجتمع في «برلين» في ذلك الوقت، وعن عادات الناس وأخلاقهم هناك، وعنّ له في تلك الآونة أن يدرس علوم الكيمياء والطبيعة، فدأب على درسها بالألمانية على يد البرفسور (هاردر) أحد العلماء الألمان المستشرقين.

ثم عاد إلى دمشق، حتى إذا قاربت الحرب أن تضع أوزارها، نزح إلى

إسطنبول، وعين محرراً بالقلم العربي في إدارة الأمور الشرقية، واستمر ينشر العلم ويرفع راياته، إلى أن قارب عقد الهدنة، فاضطر إلى الرحيل إلى ألمانيا مرة أخرى، فمكث بها نحو سبعة أشهر، عاد خلالها إلى درس الحالة الاجتماعية الألمانية، ولما انتهت الحرب، وانقشعت سحبها المظلمة، انتقل فضيلته إلى إسطنبول، وعاد إلى الشام في عهد الدولة العربية، وعين مدرساً للعلوم الدينية بالمدرسة التجهيزية، وقبل أن يباشر وظيفته انقلبت الحالة السياسية العامة في ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ، فنزح إلى مصر التي شاء الله أن تضم بين جنبيها عَلَماً من أعلام الدين، وقُطباً من أقطابه العاملين، فاستطاب العيش تحت سمائها، واستمرأ الحياة بين ظَهْرانَيْ أهلها، ولمَّا يمض عام على وصوله حتى عُيِّن مُصحِّحاً بدار الكتب المصرية، فلم تشغله وظيفته عن الاطلاع، ومواصلة البحث والتحقيق.

حتى أقبل عام ١٣٤٤هـ، فظهر كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، فعكف فضيلة الأستاذ الخضر على تأليف كتابه المشهور الذي يرد فيه على كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، ويقوض كل ما جاء فيه من دعاوى باطلة، ويَدْحَض كل شُبهه بسَعَة علمه، وقوة حجته، وما هي إلا أشهر حتى ظهر الكتاب، وتلقاه رجال العلم على اختلاف طبقاتهم بالاستحسان، أحق فيه الحق، وأزهَق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

وما أقبل ربيع سنة ١٣٤٥هـ حتى ظهر كتاب «في الشعر الجاهلي»، فاستقبله الناس بعاصفة هائلة من السخط والإنكار على هذه الطائفة التي جعلت نُصْب عينيها ـ في ذلك الوقت ـ النَّيْل من هداية الإسلام، والغضَّ من رجال جاهدوا في سبيله بحجة وعزم وإقدام. فانبرى لهم فضيلة الأستاذ، وألف كتابه

الغنيَّ عن التعريف، نقضَ فيه كلَّ ما حوى كتاب «في الشعر الجاهلي»، وحلله تحليلاً علمياً نزيهاً، ردَّ فيه ما انتحله إلى أهله، وعاد به إلى أصله، وأبان عن مواطن ضعفه، ودحض أباطيلَه بالأدلة الواضحة. وفي أثر ذلك باشر فضيلته التدريس بالأزهر الشريف.

وما حل رجب سنة ١٣٤٦هـ حتى لمس طلاب العلم بالجامعة الأزهرية والمعاهد الدينية: أن مصر فقيرة في جمعياتها الإسلامية: لم يكن في ذلك الوقت سوى (جمعية مكارم الأخلاق) و(جمعية الشبان المسلمين)، وأنَّ تأخر المسلمين في أغلب شؤونهم الحيوية، ونزولَهم من مكان عزتهم، إلى ما هم عليه اليوم من ضعف وانحلال، وتفكك في الوحدة، لا علة له سوى نكث أيديهم من تعاليم دينهم الحنيف، وانصرافهم عن هدايته السامية، فدعوا إلى تأليف جمعية تضع نُصْبَ عينيها بيان حقائق الإسلام، وبث آدابه العالية، وتمد نظرها إلى أحوال الاجتماع، ومقتضيات المدنية؛ لتعرف مواقع الصلاح والفساد، وليمكنها أن تساهم في نهضة الأمة الأدبية والاجتماعية، كما تعمل على رقي اللغة العربية، وإحياء آدابها، وقد وجدوا في ذلك الوقت من إقبال إخوانهم ما شد عزمهم، فألّفوا جمعية (الهداية الإسلامية) وانتخب الأعضاء فضيلة الأستاذ السيد محمد الخضر حسين رئيساً لها.

وسارت الجمعية على بركة الله بقدم ثابتة، ونفس مطمئنة، نحو الرقي والتقدم، ولا يفوتني أن أذكر الجهود الجبارة التي كان يبذلها سعادة المغفور له أحمد تيمور باشا في تدعيم أركانها، وتثبيت قوائمها، فقد نالت الجمعية من عطفه وعنايته ما يجعلها حتى اليوم تُشيد بذكره وفضله. وستظل أعماله الجيدة، وخدماته الجليلة ماثلة في العقول والأذهان، لا يمحوها مر السنين، ولا كرُّ الأعوام ـ طيب الله ثراه، وجعل الجنة مثواه ـ.

بدأت الجمعية في تحقيق رسالتها، يشد أَزْرها فضيلُة رئيسها، ويغذيها بعلمه واطلاعه، يتعهدها كما يتعهد الـزارع الحَبَّ بالسـقي والإرواء، حتى نمت وترعرعت، وشبّت وزكت، بين عناية الله ورعايته، وتدلَّت أُولى قُطوفها، فأصـدرت مجلتها الشـهرية في جمادى الأولى سـنة ١٣٤٧هـ حافلـة بشـتى الموضوعات الدينية والأخلاقية، والعلمية والأدبية، يقوم برئاسة تحريرها فضيلة رئيس الجمعية، فازدادت المجلة رَواجاً في داخل القطر وخارجه، ولما رأت وزارة المعارف أنها خيرُ عون لطلاب العلم، قررت الاشتراكَ فيها لمدارسها.

ودأَبت الجمعية في العمل على تحقيق رسالتها، فأخذ رجالها ينشرون نور العلم والعرفان. بجانب رئيسها الذي يضحي بوقته الغالي وراحته في سبيل النهوض بالجمعية، ورفع مستواها، فأخذت تقوم بالمحاضرات والمناظرات المختلفة بوساطة نُخبة من العلماء ومشاهير المحاضرين، أذكر منهم: سعادة جاد المولى، والدكتور عبد العزيز نظمي بك، كما حاضرها في السنين الماضية المغفور له فضيلة الشيخ بخيت، والشيخ يوسف الدجوي، وسعادة زكي باشا، وغيرهم كثيرون.

وسـارت الجمعية قُدُماً، وانتقلت من حَسن إلى أحسن، حتى أصبحت ـ بحمد الله ـ في مقدمة الجمعيات الإسلامية التي ذاعت دعوتها، وعُرف جهادها في مصر والأقطار الشقيقة بفضل رئيسها المخلص، ورجالها الأبرار.

وجعلـت الجمعية نُصب عينيها غرضاً سـامياً، وهو السـعيُ لتعارف الشعوب الإسلامية، وتأكيد رابطة الإخاء والائتلاف بينها، فكلما وفد إلى مصر عالم، أو كبير من كبراء المسلمين، سارعت الجمعية إلى إقامة الحفلات ترحيباً وتكريماً، فيتم بذلك التعارف والائتلاف، وتتبادل الأفكار والمنافع،

كما حدث في العام الماضي، يوم كرمت الجمعية الزعيمَ الأندونيسي الدكتور سوتومو، وزعيم المسلمين في الصين الشيخ عبد الرحيم ماسونتين، كما حرصت الجمعية على تكريم البعثات العلمية المختلفة الموقَّرة من شتى الأقطار الإسلامية.

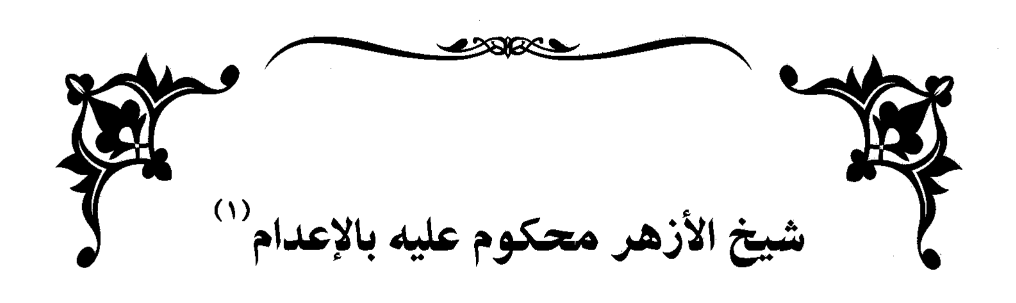
وكلما حانت المناسبة، وسنحت الفرصة، شاطرت الجمعية الشعوب الشقيقة ـ كفلسطين وغيرها ـ مِحْنتها، وظروفها العصيبة، باحتجاجاتها الصارخة لدى أولي الأمر حتى يُنصَف المظلوم، ويعود الحق إلى نصابه.

ولا ننسى للجمعية جهادها العنيف، وحملاتها المتواصلة، يوم حاولت شِرْذمة فاسقة من المبشِّرين المضلِّلين أن تحيك الشِّباك للدين، وتنصب الشراك للإسلام والمسلمين ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾[الأحزاب: ٢٥].

وأختم كلمتي بأن الجمعية بفضل رئيسها ورجالها العاملين، مع ما قامت به من جهود في سبيل تحقيق رسالتها وأغراضها، وبفضل ما تجده من مؤازرة أعضائها وأصدقائها أمثال: سعادة عبد العزيز محمد باشا وزير الأوقاف السابق، الذي يعطف على الجمعية كثيراً، ويغمرها بخيره ومعونته، بفضل هؤلاء جميعاً أصبح الأمل بمستقبل زاهر، وحياةٍ أحفلَ من ذي قبل بجلائل الأعمال، يمر طيفه بالجمعية، ويجول بخاطرها، وهي جِدُّ موقنة ـ بإذن الله ـ أن سيتحقق رجاؤها وأملها، فتعمل على تنفيذ مشاريع جديدة أخرى؛ كإنشاء مدارس لتعليم الفقراء، وإصدار مجلة أسبوعية.

أسأل الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



شيخ الأزهر محكوم عليه بالإعدام[1]

بقلم أحمد لطفي حسونة

«صحفي وأديب، وأحد كبار المحررين في مجلة «آخر ساعة» المصرية».

كان أصحابُ الفضيلة كبارُ رجال الأزهـر يلعبون ـ طَوال الأسـبوعين الماضيين ـ لعبة الكراسي الموسيقية حول كرسي شيخ الجامع الأزهر.

كانوا يتنافسـون على ضجيج الحوادث حولَ الجلوس على الكرسـي المرمـوق، وكان كلٌّ منهم يتحيَّن الفرصـة للتربُّع على المقعد الكبير دون الآخرين، إلى أن هبط من السماء عالِمٌ لم يكن في المباراة، بل ولـم يكن من المتفرِّجين، ولا ممن يعلمون قليلاً أو كثيراً عن هذا السباق.

وجلس الأستاذ محمد الخضر حسين على كرسي المشيخة دون أن يدور حوله، أو ينافس غيره، أو يسعى ليقف بين صفوف المتسابقين.

وأصبح الصبح على مفاجأة كبرى لم تخطر لأصحاب الفضيلة ببال، فقد غدا الرجل المتواضع الذي يقف على أبواب الثمانين، المتوسطُ القامة، الخفيضُ الصوت، بحيث لا يكاد يُسمع وهو يتكلم، غدا الأستاذ الأكبر شيخ

---

(١) مجلة «آخر ساعة» المصرية ـ العدد ٩٣٦ ـ تاريخ ١/ ١٠/ ١٩٥٢م.

الجامع الأزهر، وإمام المسلمين في العالم أجمع.

*** قصة طويلة:**

وقصة الأستاذ الأكبر طويلة شاقة، مليئة بالمفاجآت، وهو من بيت علم ودين، فوالده الأستاذ الحسينُ بن علي، من الجزائر، وكان متصوفاً لا يعرف إلا العبادة، وشيخاً للطريقة الخلوتية، وله جامع باسمه في بلدة «نفطة» آخر بلاد تونس من جهة الجزائر، وهي البلدة التي ولد فيها الأستاذ الأكبر.

*** أول ليلة له في مصر:**

ويروي الأستاذ الأكبر قصة إفلاته من أيدي الفرنسيين، فيقول: إنه غادر دمشق بعد أن احتلها الفرنسيون بعشرة أيام، وكانت الأداة الإدارية ما تزال في يد الإنجليز، فتمكن من الحصول على جواز خروج من دمشق، ورحل بطريق البر إلى القاهرة، وقضى أول ليلة فيها في «لوكاندة دار السلام» قريباً من مسجد سيدنا الحسين، وبات ليلته حتى الصباح.

وأشرق الصبح على اللاجئ الغريب، فأخذ يفكر أين يذهب؟ وهو لا يعرف مكاناً يذهب إليه في القاهرة، ومن يقابل؟ وهو لا يعرف شخصاً واحداً بين ملايين المصريين، وماذا يعمل؟ وهو لا يرى طريقاً واحداً يسلكه للحصول على عمل في مصر.

*** إلى الرواق:**

وهبطت الفكرة مع وحي لا يدري مصدره، وَحْيٍ يحثُّه على الذهاب إلى أحد الأروقة في الأزهر الشريف. ودخل الرواق، فلم يعرف أحداً، ثم اتجه إلى رواق المغاربة حيث لم يهتد إلى وجه يعرفه، ولكن المغاربة اشتبه عليهم أمره، ثم عرفوه، ورحبوا به، وزاملوه، وأكرموه.

*** مسكن جديد:**

ويقول الشيخ في تواضع وطِيبة: ثم بحثت عن مأوًى آوي إليه، حتى اهتديت إلى حُجرة في الربع قريبة من الجامع الأزهر، إيجارها الشهري ٢٥ قرشاً، فاستأجرتها، وأقمت فيها، وظللت أتردَّد بين مسكني والرواق، وأقطع وقتي في القراءة والتأليف، وأُنفق من الدراهم التي أتيت بها إلى مصر.

*** صحفي منذ نشأته:**

وقد ولد الأستاذ الأكبر في سنة ١٢٩٣هـ بـ «نفطة»، وانتقل منها، وعمره إحدى عشرة سنة إلى تونس؛ حيث التحق بجامعة الزيتونة، ونال العالمية، وجذبته الصحافة، فأنشأ في تونس مجلة «السعادة»، وتفرغ لتحريرها وخدمتها إلى أن تولى القضاء في مدينة «بنزرت»، ثم عاد إلى جامعة الزيتونة مدرِّساً بها، وكان يقوم بتدريس النحو والفقه، والأصول والبلاغة، وكان في الوقت نفسه مدرساً بالمدرسة «الصادقية»، وهي المدرسة الوحيدة في تونس.

وقد تزوج الأستاذ الأكبر في هذه المرحلة من حياته خمس مرات، وكان الموتُ أو الطلاق يفرق بينه وبين زوجاته، وظل عزباً إلى ما بعد هجرته إلى مصر؛ حيث بنى بزوجته السادسة التي تقيم معه الآن، وهي من عائلة مدكور، ولم يرزقه الله أولاداً من زوجاته الست.

*** هجرة إلى الشام:**

وفي سنة ١٣٣١هـ، وعمره ٣٨ عاماً انتقل مع والدته وإخوته إلى الشام، وكانت بلاد الشام في هذا الحين دولة واحدة تضم سورية ولبنان وفلسطين. ومنذ ذلك التاريخ ـ أي منذ قرابة أربعين عاماً ـ لم يعد إلى تونس، وكانت

هجرته لخدمة الإسلام، ولضيقه بالحياة في موطنه؛ نظراً لفظائع الفرنسيين، وسلوكهم المُعْوَجّ، ورغبةً منه أن يعيش في كَنَف دولة إسلامية.

وتولى التدريس في المدرسة العربية السلطانية في دمشق، ثم أرسلته الحكومة إلى ألمانيا لحثِّ أسرى الحرب من التونسيين والجزائريين والمراكشيين على الانضمام للجيش التركي ضد فرنسا، واستمرت رحلته في ألمانيا تسعة شهور، عاد بعدها إلى سورية، ثم الآستانة؛ حيث تولى التحرير بالقلم العربي في وزارة الحربية التركية سنة ١٩١٧م.

*** يعود مع الصلح:**

وفي سنة ١٩١٨م، في أثناء الهدنة، سافر الأستاذ الأكبر إلى ألمانيا مرة ثانية للدعاية لاستقلال البلاد العربية، وكان ممن سافروا معه على نفس الباخرة للغرض ذاته: المرحوم عبد العزيز جاويش، والدكتور عبد الحميد سعيد، واللواء يوسف مصطفى، وكان يوم وصولهم إلى ألمانيا هو يوم عقد معاهدة الصلح، فمكثوا فيها سبعة شهور، عاد بعدها الأستاذ الأكبر إلى تركيا؛ حيث اشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية، ثم سافر إلى دمشق، وكانت تحت الاحتلال الإنجليزي، وظل فيها إلى أن نزل الإنجليز عن احتلالها للفرنسيين.

*** حكم الإعدام يتعقبه:**

وشيخ الأزهر الحالي محكوم عليه بالإعدام، حكماً لم يصدر عنه عفو حتى الآن، ولولا هذا الحكم، ما كان لفضيلته نصيب في الجلوس على كرسي مشيخة الأزهر.

فقد أصدرت السلطات الفرنسية سنة ١٩١٦م حكماً يقضي بإعدام الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ صالح الشريف من تونس؛ لاتهامهما بالتعاون

مع الدولة التركية ضد فرنسا.

وقد ظل هذا الحكم يطارد الرجل المجاهد، ويحول بينه وبين العودة إلى تونس، أو الإقامة في بلد يحتله الفرنسيون، ومن ثَمَّ هاجر الشيخ سنة ١٩١٩م إلى مصر لاجئاً سياسياً بمجرد عودة الفرنسيين إلى احتلال دمشق.

*** البحث عن عمل:**

وظل الأستاذ الأكبر على هذه الحال قرابة السنتين، وهو ينفق من القليل الذي ادخره، ويجهد النفسَ في البحث عن مصدر من مصادر الرزق.

فاتجه التفكير إلى الحصول على الشهادة العالمية، وقدم طلباً إلى شيخ الجامع الأزهر الشيخ أبي الفضل؛ ليسمح له بدخول امتحان الشهادة العالمية الأزهرية، غير أن نفراً من العلماء وقفوا في وجهه، وقالوا عنه: إنه طريد سياسات مختلفة: ألمانية وتركية وعربية وفرنسية، فرفض طلبه، ولما تولى جعفر والي وزارة المعارف، وكان يعرف الشيخ محمد الخضر حسين عن قرب، عينه في دار الكتب بمرتب شهري قدره تسعة جنيهات، وكان مدير دار الكتب في ذلك الوقت أحمد صادق بك.

*** بحر لا ساحل له:**

وفي سنة ١٩٢٢م، شاء القدر أن يفتح أبوابه للاجئ الوحيد؛ ليدخره في جعبته، ويحمله بعد ثلاثين عاماً إلى كرسي المشيخة.

وشاء القدر أن يهيئ الفرصة أمامه، فيتعرف على المرحوم أحمد تيمور باشا، الذي كان حينئذ صديقاً للسراي، ومقرباً من المغفور له محمد توفيق نسيم باشا، واستعمل أحمد تيمور نفوذه القوي ليهيئ للشيخ فرصة الامتحان، وهي كل ما كان يطلبه.

وتم للشيخ ما أراد، ووافق الأزهرُ على أن يتقدم الشيخ محمد الخضر لامتحان العالمية، وتشكلت لجنة من قُساة الممتحِنين، ليؤدي امتحانه أمامها، وبهر الرجلُ الممتحنين بغزارة علمه، وفاض عليهم بما وهبه الله من معرفة.

ونال الشيخ شهادة العالمية من الأزهر، ونص في القرار على أن اللجنة «امتحنت الشيخ محمد الخضر، فوجدته بحراً لا ساحل له...».

ثم عُين مدرساً بتخصص كلية أصول الدين، ورئيساً لتحرير مجلة «نور الإسلام» «وهي مجلة الأزهر الآن»، وظل يلقن دروس الدين والسياسة الشرعية في كليات الأزهر إلى أن أُحيل إلى المعاش.

*** عضو في جماعة كبار العلماء:**

وكانت الخطوة الباقية: أن يدخل الشيخ عضواً في جماعة كبار العلماء، وفي سبيل ذلك قدم رسالة موضوعها: «القياس في اللغة العربية»، حوت بحثاً لم يطرقه أحد من علماء الأزهر من قبل، وفي ٢٩ أبريل من سنة ١٩٥١م صدر أمر ملكي رقم ٢٢ لسنة ١٩٥١م بتعيين الشيخ محمد الخضر حسين عضواً في جماعة كبار العلماء. وكانت هذه العضوية هي سبيله إلى عرض اسمه على مجلس الوزراء، عندما أراد المجلس اختيار شيخ الأزهر من بين كبار العلماء.

*** هل انتهى الصراع:**

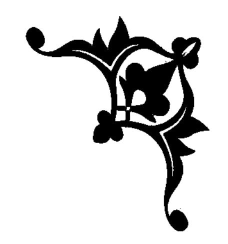
ويتساءلون في الأزهر اليوم: هل انتهى الصراع الذي عاش في الأزهر سنين وسنين، واتخذ أشكالاً ومظاهر ما كان يجوز أن يكون مصدرُها الأزهرَ الشريف، وعلماءه الأجلاء؟

إن الشيخ الجديد لا يعرف كيف يحب، ولا يعرف كيف يكره، والشيخ

الجديد ليس له في مصر أقرباء ولا محاسيب، والشيخ الجديد ليس من بَحْري ولا من قِبْلي، والشيخ الجديد ليس طرفاً في المنافسة والسباق حول الكرسي الكبير، والشيخ الجديد لم يفكر في المنصب العالي الخطير، ولم يحلم به. ولكن هل يَسْلَم من مناورات الذين سَعَوا للجلوس فوق الكرسي، فوجدوا أنفسهم فجأة يفترشون الأرض؟

نتمنى أن يسلم من هذه المناورات، فحياة الرجل كفاح طويل، وقصة كلها مفاجآت، والرجل مؤمن بالله، نقي القلب، طاهر السريرة، شريف القصد.



معلوماتي الخاصة
عن شيخي علامة العصر الحاضر
الأستاذ محمد الخضر بن الحسين
شيخ الجامعات الأزهرية[1]

بقلم الطيب بن عيسى

«شيخ الصحفيين التونسيين في عصره. ولد بتونس العاصمة (١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م)، تلقى علومه بجامع الزيتونة، أصدر صحيفتين: «المشير»، و«الوزير».

من مؤلفاته: «المغرب الأقصى بين عهدين» - «ذكريات سجين» - «مشاهير المهاجرين» - «خواطر الحاج».

توفي (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)».

* مولده وأسرته:

ولد المترجَم له بمدينة «نفطة» من (بلاد الجريد) الواقعة في أقصى الجنوب الغربي التونسي، وهي آخر نقطة بالحدود التونسية، وتبعد «نفطة» عن العاصمة التونسية ٤٧٥ ك م.

ولد في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣ هجرية، وهو محمد الخضر بن الحسين ابن علي بن عمر الشريف، فأسرتُه إذن ترجع إلى بيت العمري بـ «طولقة» بيت العلم والمجد والشرف.

---

(١) صحيفة «الأسبوع» التونسية - العدد ٣٠٨ الصادر في ٣٠ نوفمبر - تشرين الثاني وما بعده.

و«طولقة» تبعد عن مدينة «بِسَكْرَة» عاصمةِ الجنوب لمقاطعة «قُسَنْطينة» من القطر الجزائري بنحو ٤٢ ك م. وبطولقة مركز دائرة الزيبان.

ووالد المترجَم له كان رحل منذ قرن من طولقة إلى نفطة التي استقر بها نهائياً، وتزوج بأخت المرحوم الشيخ محمد المكي بن عزوز هناك، وللشيخ الخضر إخوة، وهم: الشيخ الجنيد، والشيخ محمد العروسي، (المتوفَّيان) والشيخ محمد المكي، المستقر بالعاصمة، والأخير من كبار الأدباء واللغويين المشاهير.

والشيخ زين العابدين، نزيلُ العاصمة الأموية «دمشق الشام»، وجميعهم ولدوا بـ «نفطة».

*** تعليمه بنفطة:**

قرأ المترجَم له القرآن، وحفظه بنفطة على مؤدبه الخاص المرحوم الشيخ عبد الحفيظ اللموشي، كما تلقى مبادئ العلوم العربية على علماء نفطة، ومنهم: خاله المرحوم الشيخ محمد المكي بن عزوز العالِمُ المصلح الشهير دَفينُ إستانبول عاصمةِ الخلافة الإسلامية وقتئذٍ، المعدودُ من أقدم التونسيين المستقرين بالآستانة قبل الشيخ إسماعيل الصفايحي، والشيخ صالح الشريف، والشيخ عمر بيراز، والسيدين علي، ومحمد باش حانبة (الأخوين)، وجميعهم من رجال الوطنية الصادقة، والإخلاص المتين.

*** تعليمه بتونس:**

ولما استقر والد المترجَم له بالعاصمة نهائياً سنة ١٣٠٧هـ زاول العلوم العربية الثانوية والعليا بجامع الزيتونة الأعظم.

*** شيوخه :**

قرأ على شيوخ أعلام، منهم : المرحومان، الشيخ سالم بوحاجب، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ محمد النجار، والشيخ مصطفى رضوان، والشيخ عبد العزيز الوزير.

*** تطويعه ثم تدريسه :**

حصل على شهادة التطويع عام ١٣١٤هـ ثم في عام ١٣٢٤هـ نجح في مناظرة التدريس المالكية من الرتبة الثانية.

*** توليه القضاء بـ «بنزرت» :**

وقبل مناظرة التدريس بمدة، أُسندت إليه خطة القضاء الشرعية بمدينة «بنزرت»، فباشرها بضعة شهور، ثم ألح على الحكومة حتى تقبل استعفاءه من هذه الوظيفة خوفاً من الله، فقبلت طلبه، وأنجاه الله من تحمل المسؤوليات الكبرى.

*** تلامذته بتونس :**

وقد تعلم عليه طلاب كثيرون بجامع الزيتونة، وبالمدرسة الصادقية، ومن تلاميذه : صاحب جريدتي «المشير والوزير» كاتبُ هذا المقال، الذي قرأ عليه «السعد» و«المحلى» و«التهذيب»، وكانت شهادة الشيخ في دفتر تلميذه عدد ٥١٨٧ مؤرخة بربيع الثاني سنة ١٣٢٦هـ.

*** من آثاره بتونس :**

كان أصدر مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة صدرت بتونس، وكانت دينية وأدبية، وقام بمحاضرات ومسامرات بقاعة (الجمعية الخلدونية)، أو بنادي (جمعية قدماء الصادقية)، ثم طبعت مسامرته بتونس، ووزعت.

*** إقامته بدمشق الشام:**

وفي سنة ١٣٣٣هـ رحل إلى الشام، والتحق بأخويه الشيخين: محمد المكي، وزين العابدين، اللذينِ سبقاه للرحيل قبل سنة، فاستقر بدمشق بضعة أعوام، كان أثنائها يتردد على إستانبول، والمدينة المنورة، والقدس، وفي الأعوام الأخيرة أدى فريضة الحج.

*** تدريسه بدمشق:**

تخرج عليه تلاميذ كثيرون بسورية، سواء بالجامع الأموي، أو المدارس الأخرى الرسمية.

*** حظوته لدى فيصل الهاشمي:**

كان محظوظاً من طرف المرحوم الملك فيصل الأول بن حسين بن علي الهاشمي، صاحب سورية في ذلك العهد، وعاهل العراق فيما بعد.

*** أسفاره إلى أوربا:**

وفي أثناء استقراره بدمشق قام برحلات إلى عواصم كبرى من الأقطار الأوروبية؛ كألمانيا، وإيطاليا، وسويسرة، وغيرها.

*** استقراره بمصر:**

وبعد خروج الملك فيصل من دمشق عاصمةِ ملكه، وإعلانِ الانتداب الفرنسي على سورية، خرج المترجم له من دمشق، واستقر نهائياً بمصر إلى اليوم، وكان ذلك سنة ١٣٣٧هـ.

*** مهمته العلمية بمصر:**

كان مدة إقامته بالقاهرة المعزيَّة في أول أمره يطبع كتبه العلمية الكثيرة، ويلقي دروساً خاصة على بعض الطلاب بالأزهر، أو بالمعاهد العلمية الأخرى،

ثم انخرط في سلك أساتذة الأزهر بعد اجتيازه للمناظرة بصفة رسمية؛ حيث نجح نجاحاً باهراً.

*** مجلة «نور الإسلام»:**

ولما قررت مشيخة الأزهر إصدار مجلة إسلامية، أسندت مهمة الإشراف عليها إلى لياقة الشيخ الخضر، فكان رئيس تحريرها.

*** مجلة «الهداية الإسلامية»:**

كما أصدر المترجَم له مجلة «الهداية الإسلامية»، وكان رئيساً لتحريرها، والمشرفَ على إدارتها، فكانت من أرقى المجلات الدينية، ومساندةً لمجلة «المنار» التي كان يرأس تحريرها العلامة المصلح المرحوم الشيخ رشيد رضا الحسيني تلميذُه العلامة المرحوم الشيخ محمد عبد المصري، ومجلة «الهداية الإسلامية» لسان حال (جمعية الهداية الإسلامية) التي يرأسها الشيخ الخضر ـ بارك الله في أنفاسه ـ.

*** ذكرياتي عن الشيخ بمصر:**

في عام ١٣٤٣هـ قمت برحلة إلى مصر، وما وصلت إلى القاهرة حتى اتصلت بفضيلة شيخي الخضر، وتقابلت معه مرات، وكان وقتئذٍ مصححاً بالمكتبة العامة المصرية (الكتب خانة) للتآليف التي تطبع على نفقة المكتبة، وهذه المهمة العلمية ليست بسيطة كما يُظَن من أنها مجردُ مقابلة الأصل بالمطبوع ـ حسب التعارف بين المؤلفين والمحررين للمجلات والصحف ـ، بل هي أعلى من ذلك وأدقُّ وأصعب بكثير؛ لما يأتي بيانه:

*** مقدرته العلمية:**

إن التصانيف الخَطِّية المرادَ طبعُها ـ خصوصاً العتيقة منها ـ لابد أن يوجد

بها نقص في كلمات أو جمل، وأحياناً صفحات كاملة، وذلك لقدم العهد، وتلاشي البعض من أوراقها، إما أكلها الفأر، أو ثقبها السوس ثقباً، أو وسخت بالحبر، أو غير ذلك من عوامل الفساد، وبناء عليه، فمأمورية الأستاذ الخضر النابغة هي تكميل ما نقص من الأصل، مع مراعاة أساليب ذلك التأليف من تبويب وتقسيم وتفصيل، ومع مراعاة درجة المؤلف ـ أيضاً ـ من حيث الإنشاء والتعابير، سواء في النثر أو الشعر.

وطبعاً إن التآليف المعروضة للطبع مختلفة الفنون والعلوم، ويحتاج المصحح إلى اطلاع واسع، وإلمام تام بجميع العلوم العربية؛ كي يمكنه أن يكمل النقص في النحو أو الصرف، أو التوحيد أو المنطق، أو الحساب أو التاريخ، أو الهندسة أو الجغرافية، أو الطبيعة أو الكيميا، أو علوم البلاغة، إلى غير ذلك من المباحث الدينية أو الأدبية أو الرياضية.

فالتصحيحُ أو التكميل الذي من هذا النوع هو فني، ويحتاج إلى نبوغ وتخصص في جميع العلوم دون استثناء.

فمن هذه الناحية يكون الأستاذ الخضر نابغة عصره، ولولا أنه عَلَّمَ تلامذةً أصبحوا اليوم أخصائيين في التصحيح الفني، لصعب على إدارة المكتبة العامة الإتيانُ بعالم متفنن يقوم مقامه عند تخلِّيه عن مهمة التصحيح، وتفرُّغه للتدريس بالأزهر في المعهد الأخير، ثم الارتقاء إلى أعلى المناصب العلمية.

*** أخلاقه وصلاحه:**

كان شيخي معروفاً في تونس، وفي البلاد الشرقية بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وحسن المعاشرة، ولم يعرف عنه الحمقُ والشراسة وضيق

الصدر، وغيرُها من الأوصاف، وهو ممن سلم الناس من يده ولسانه، وله أسلوب في الانتقاد لطيف؛ إذ مداره الإقناع بالبرهان القطعي على صواب رأيه، دون جدال بعنف، أو تصلب بحمق، مع تحاشي المبالغة في التنديد اللاذع، مقتدياً بنبينا ﷺ الذي كان يمزح ولا يقول إلا حقاً.

هذا من جهة أخلاقه وطباعه، ومن جهة صحة إيمانه، وشدة شكيمته في الذود عن حياض دينه، فقد كان لا تغره في الحق لومة لائم، ويعد من أولياء الله الصالحين، لتقواه في السر والإعلان، وعليه، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

فالشيخ عالم عامل بعلمه.

*** لغته العربية:**

إن لغة الشيخ الخضر هي العربية الصرفة، سواء في دروسه، أو محادثته العامة أو الخاصة؛ لسليقته المفطور عليها منذ أن تعلم العربية، بل كان يتحاشى استعمال اللغة العامية الدارجة بقدر الإمكان، وقد عرفتُ تعوده بذلك منذ أن كان مدرساً بجامع الزيتونة الأعظم.

*** منهجه الإصلاحي:**

إن هذا العلامة الديني يدعو إلى الإصلاح من الناحية الدينية بجميع الوجوه؛ اجتماعياً واقتصادياً، ولربما يحارب النعرة الوطنية البحتة التي جعلت المصريين ينقلون رفات المرحوم سعد زغلول الزعيم الأكبر من قبره الأول الإسلامي لوضعه في قبره الثاني المماثل لقبور الفراعنةُ في شكله، والفراعنة جدود أقباط مصر المسيحيين.

*** تصانيفه العلمية:**

لصاحب الفضيلة شيخي الخضر تآليفُ عديدة، منها ما طبع بتونس، كمجلة «السعادة العظمى» التي أصدر منها عدة أجزاء، و«رسالة الدعوة إلى الإصلاح» عندما كان مدرساً بجامع الزيتونة، وبالمدرسة الصادقية، و«حياة اللغة العربية»، وهي المسامرة التي ألقاها بقاعة مكتبة الخلدونية عندما كان مدرساً بالمعهدين المذكورين ـ أيضاً ـ.

ومنها ما طبع بمصر؛ ككتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» الذي يرد فيه على الأستاذ الشيخ عبد الرازق مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وهو حينئذ من علماء الأزهر.

وكتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» يرد فيه على كتاب «في الشعر الجاهلي» تأليف طه حسين، وكان الأستاذ الخضر وقتئذٍ من علماء الأزهر، وكتاب «محمد رسول الله وخاتم النبيين» الذي ألفه بعد ما أصبح عضواً باللجنة العليمة لهيئة كبار العلماء المؤلفة لحماية الدين، والدعوةِ إلى سبيل الله.

هذه الكتب قرأتها، وما أزال أملكها، ما عدا «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» حيث لم أتصل به، ولم أطالعه.

ومن المحقَّق: أن لفضيلة الأستاذ الخضر تآليفَ أخرى لم أتصل بها، قد يمكن أنها طبعت في سورية عندما كان شيخي مدرساً بالجامع الأموي في دمشق، وبالمدرسة السلطانية، أو في مصر في أثناء المدة الطويلة التي أقامها هناك.

*** دخوله في الجنسية المصرية:**

ولما كانت قوانين مصر مانعةً من مباشرة غير المصريين للوظائف بأنواعها

بين شرعية وعادية، فقد انخرط في سلك المتجنسين بالجنسية المصرية منذ عهد بعيد.

*** توليته مشيخة الأزهر:**

إن انخراط شيخي في سلك العضوية باللجنة العلمية لهيئة كبار العلماء قد رشحته لأن يتبوأ مقعده من رئاسة مشـيخة الجامعات الأزهرية عن كفاءة ولياقة وخبرة تامة غير محدودة.

ولهذا السبب فقد عينته حكومة مصر الحديثة شيخاً للجامعات الأزهرية.

وكان إسناد المشيخة إليه عندما عرضت عليه الخطة بوساطة ثلاثة وزراء قصدوا محلَّه لهذا الغرض حتى لا يردَّ لهم طلباً.

*** صدى توليته المشيخة:**

كان لتوليته هذه الخطـة المعتبرة صـدى كبير بالعالم الإسـلامي؛ لأن شـخصيته معروفة، ولا سيما بتونس والجزائر وسورية ومصر؛ حيث يَعرفه تلاميذه الكثيرون، مع سمعة واسعة.

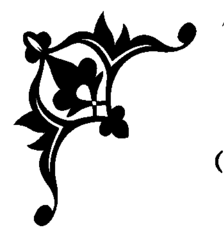
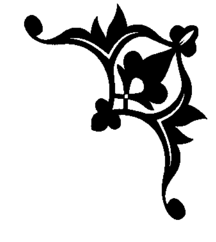
وقد اهتزت كافة الأوسـاط التونسـية سـروراً للفخر الذي ناله جامع الزيتونة الأعظم؛ إذ أنجب مثلَ هذا العالم الكبير الذي أصبح على رأس العلماء الأعلام بالعالم أجمع؛ لأنه يترأس الأزهر الذي يمثل أعظم كلية دينية بالعالم الإسلامي.

وقد هنأته المنظمات الزيتونية، وهنأته تونس الفخورة بابنها البار، وكان على رأس المهنئين: عاهل المملكة التونسية ملكُنا المحبوب سيدنا ومولانا محمد الأمين الأول ـ أيده الله، وأطال عمره ـ.

أما كاتب هذا الفصل، فكواحد من أبنائه البارين، وتلامذته المخلصين،

فأهنئه من صميم فؤادي، أصالةً عن نفسي، ونيابة عن إخوانه، داعياً الله أن يعينه على ما أولاه، وأن يجري الخير على يديه، وأن يمد في أنفاسه، حتى ينتفع المسلمون بمواهبه الفطرية والكسبية، كما انتفع إخوانهم من قبلهم بعلمه الغزير.



شيخ الأزهر السابق
السيد محمد الخضر حسين[1]
(١٢٩٣ ـ ١٣ رجب ١٣٧٧هـ)

بقلم محب الدين الخطيب

«الكاتب والصحفي والمجاهد. ولد بدمشق (١٣٠٣هـ ـ ١٨٨٦م) وتوفي بالقاهرة (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

أصدر: مجلة «الزهراء»، و«الفتح» له مؤلفات، منها: «الحديقة» ـ «اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب» ـ «الدولة والجماعة» ـ «الزهراء»».

هذا رجل آمن بالإسلام ودعوته، وأحبَّ من صدرِ حياته أن يكون من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

إن الاستقامة على طريق الله بعلم وحزم، وحكمة ويقين، هي الولاية، فإذا تعارضت مصلحة الدين ومصلحة الدنيا أمام الرجل المسلم، فآثر مصلحة الدين على مصلحة الدنيا، ومضى على ذلك في تصرفاته كلها مدى الحياة، فهو من أولياء الله؛ أي: من أنصاره. والولاية هي النصرة، وقد جرت سنّة الله أن يأخذ بأيدي أوليائه، وينصرهم ما نصروا دعوته وسننه في الأرض، وهذه المرتبة في متناول يد كل من رامها من شبابنا وكهولنا وشيوخنا، إذا آلى أن

---

(١) مجلة «الأزهر» القاهرة ـ الجزء الثامن من المجلد التاسع والعشرين.

يجعلها وِجْهَته في مراحل الحياة. وسأتحدث في هذه الصفحات إلى إخواني من شباب المسلمين وكهولهم وشيوخهم عن مراحل حياة هذا الرجل المؤمن بالإسلام؛ كما راقبتها فيه، أو علمتها منه من سنة ١٣٣٠هـ إلى أن اختاره الله إليه.

ولد السيد محمد الخضر حسين عام ١٢٩٣ في بلدة «نفطة» من بلاد الجريد في الوطن التونسي. وأبوه من أسرة شريفة أصلها من الجزائر، وقد حدثني قبل ولايته مشيخة الأزهر عن ظهير من أحد ملوك المغرب الأدارسة إلى جد من جدود الشيخ يتعلق بنسبهم. وأرجو ممن صارت إليهم أوراقه أن يُعْنَوا بما فيها من أمثال ذلك؛ ليستعان بها في تدوين سيرته، وإرسال شعاع من نور على الأزمان التي عاشها في مراحل حياته.

وكانت أمه من صالحات النساء، وله فيها قصيدة «بكاء على قبر» لما بلغه خبر وفاتها سنة ١٣٣٥م. وكان أبوها الشيخ مصطفى بن عزوز، من أهل العلم والفضل، له ترجمة في «تاريخ الوزير أحمد بن أبي الضياف»، وأبو جده لأمه محمد بن عزوز، من الأفاضل ـ أيضاً ـ وله ترجمة في كتاب «تعريف الخلف برجال السلف» للشيخ الحفناوي بن عروس. وخاله السيد محمد المكي بن عزوز، من كبار العلماء الصالحين، وكان موضع الإجلال والاحترام من رجال الدولة العثمانية في العهد الحميدي، وقضى الشطر الأخير من حياته في الآستانة برغبة من السلطان، وله مؤلفات معروفة. ولفقيدنا قصيدة في تأبينه ووصفه لمناسبة وفاته سنة ١٣٣٤م أثبتها في (ص١٨٠) من «ديوانه» في طبعته الثانية.

وفي سنة ١٣٠٥هـ انتقلت أسرتهم من «نفطة» إلى العاصمة التونسية،

وكان فقيدنا في الثانية عشرة من حياته، وقد تأدب قبل ذلك بأدب الإسلام، وتلقى كتاب الله، ومبادئ العلوم الشرعية والعربية. فلما نزلوا تونس، التحق بجامعها الأعظم «جامع الزيتونة»؛ وأخذ يتنقل في مراحل التعليم، وكان من أبرز شيوخه: العلامة الكبير الشيخ سالم بو حاجب، المتوفى سنة ١٣٣٩هـ - رحمة الله -. ولفقيدنا أبيات في وصفه ورثائه هي في «ديوانه» (ص١٠١).

وحوالي سنة ١٣٢١هـ حصل على شهادة العالمية من جامع الزيتونة، وما لبث أن أصدر مجلة «السعادة العظمى»، وأخذ يساهم في النهضة العلمية والأدبية، ويباري رجالها لإحراز قصبات السبق طمعاً في مرضاة الله. وفي «ديوانه» (ص٧٣) قصيدة نظمها في هذه الحقبة انطوت على روح الدعوة التي أنشأ هذه المجلة للقيام بها.

وفي سنة ١٣٢٤هـ تولى قضاء «بنزرت» ومنطقتها.

وفي مساء ١٧ ربيع الآخر من تلك السنة ألقى محاضرة عنوانها: «الحرية في الإسلام» في نادي (قدماء خريجي المدرسة الصادقية) بلغت ٦٤ صفحة، ودلت على نزعته المبكرة إلى الحرية، وفهمه السليم لرسالة الإسلام من هذه الناحية.

ولم تطل مدة ولايته القضاء، لأن الجمع بينه وبين انطلاقه الفكري في بلد محتل بالاستعمار الملعون كان محاولة للجمع بين الضدين، لذلك رأيناه في سنة ١٣٧٣هـ عاد مدرساً في جامع الزيتونة، ولعله فارق القضاء قبل تدريسـه في الزيتونة، فتولى التدريس قبل ذلك في المدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة في الوطن التونسي كله.

وفي مساء السبت ١١ شوال ١٣٢٧هـ ألقى في نادي (الجمعية الخلدونية)

بتونس محاضرة عنوانها: «حياة اللغة العربية»، تحدث فيها عن أطوار هذه اللغة، وفصاحة مفرداتها، وحكمة تراكيبها، وتعدد أساليبها، وما تفردت به من إعجاز الإيجاز، وبدائع التشبيه، وارتقاء مستوى اللغة بارتقاء التمدن العربي. وتحدث عن العامية والعربية والفصحى.

وفي «ديوانه» (ص٢٣) قصيدة نظمها سنة ١٣٢٨هـ بعد ولايته القضاء والتدريس، يوجه بها أنظار القائمين على جامع الزيتونة إلى ضرورة العناية بتدريس الإنشاء، وتمرين الزيتونيين عليه؛ ليكون للوطن من علماء هذا المعهد الإسلامي كتّاب بارعون، يؤدون مهمة الدعوة، ويقودون الأمة إلى أهدافها.

وفي تلك السنة مرت بتونس بعثة الهلال الأحمر العثماني قاصدة طرابلس الغرب بعد حملة البغي الإيطالي عليها، فنظم قصيدة يدعو فيها إلى معونة هذه البعثة وإعانتها، وهي في «الديوان» (ص٣٣).

وفي السنة التالية (١٣٢٩هـ) وجهت إليه التهمة ببث روح العداء للغرب، ولا سيما سلطة الحماية الفرنسية، فسافر إلى الآستانة متذرعاً بزيارة خاله السيد محمد المكي بن عزوز، ولما ظن أن الزوبعة هدأت، عاد إلى تونس بطريق نابولي. انظر: «ديوانه» (ص١١٥ و١٦٤)، ولما استقر به المقام، رأى أنه لن يطيق البقاء في ذلك الجو الخانق، فأزمع الهجرة منه نهائياً، ووقع اختياره على دمشق ليتخذها وطناً ثانياً له، وقد مر بنا في مصر هذه المرة (سنة ١٣٣٠هـ)، وسعدت بالتعرف به، واجتمع عندي بشيخنا الشيخ طاهر الجزائري، وأحمد تيمور باشا، والسيد رشيد رضا، وأضرابهم، وكنت وقتئذ أعمل في قلم تحرير «المؤيد».

ولما وصل إلى دمشق، كانت الحركة العربية في بدايتها، وكانت الأمة

تطالب الحكومة العثمانية بإعطاء اللغة العربية حقها من التعليم في المدارس الرسمية، فعين السيد محمد الخضر حسين مدرساً للغة العربية في المدرسة السلطانية بدمشق، وكانت سكة الحجاز الحديدية متصلة فيما بين دمشق والمدينة المنورة، فزار المسجد النبوي سنة ١٣٣١هـ.

وله في هذه الزيارة قصيدة في «الديوان» (ص١٠٦).

وفي هذه الفترة زار تونس، وفي «ديوانه» من ذكريات هذه الزيارة أبيات في (ص١٢٦ و١٣٤).

وذهب في هذه المدة إلى الآستانة، ولقي وزير حربيتها أنور باشا، واختير الشيخ محرراً عربياً في وزارة الحربية.

كان في هذه الحقبة قد عرف دخيلة الحال في الدولة، وأصيب بخيبة أمل بين ما كان يتصوره بعين الخيال، وبين ما رآه بعين الحقيقة، فنظم في سنة ١٣٣٢هـ أبياتاً بعنوان: «بكاء على مجد ضائع» تجدها في «ديوانه» (ص٦١) ومنها:

أَدْمَى فُؤادي أَنْ أَرَى الْـ ... أقلامَ تَرْسُفُ في قُيودِ
فَهَجَرْتُ قوماً كنتُ في ... أنظارِهم بيتَ القَصيدِ
وَحَسِبْتُ هذا الشرقَ لم ... يبرحْ على عهدِ الرشيدِ
فإذا المجالُ كأنه ... من ضِيقه خُلُقُ الوليدِ

وفي سنة ١٣٣٣هـ أرسله أنور باشا إلى «برلين» بمهمة رسمية، فقضى في ألمانيا تسعة أشهر، اجتهد في خلالها أن يتعلم الألمانية، وفي «ديوانه» قطع كثيرة مما نظمه هناك.

ومن ذلك: أنه كان في قطار بضواحي برلين يرافقه مدير الأمور الشرقية

بوزارة الخارجية الألمانية، وكان يتحدث مع شاب ألماني باللغة الألمانية، ثم أقبل مدير الأمور الشرقية على الشيخ: وقال له: أليس هكذا يقول ابن خلدون: إن العرب أبعدُ الناس عن السياسة؟ فنظم الشيخ في هذه الحادثة أبياتاً يقول فيها:

عَذِيريْ منْ فتًى أَزْرَى بقَومي ... وفي الأهواءِ ما يَلِدُ الهُذاءَ

سلوا التاريخَ عن حُكْمٍ تَمَلَّتْ ... رَعاياهُ العدالةَ والرَّخاءَ

هو الفاروقُ لم يُدْرِكْ مَداه ... أميرٌ هَزَّ في الدُّنيا لِواءَ

وأدركه عيدُ الفطر في «برلين»، فقال:

يَوْمَ عيدٍ وما تَفَتَّقَ كِمٌّ ... عن أَنيسٍ ولا كَسَمٍّ الخياطِ

أينَ جيرانُنا وأينَ المُصَلَّى ... وخَطيبٌ يَهدي لخيرِ صِراطِ

لو تقاضيتُ في اغترابيَ أَمْراً ... نهضَتْ همَّتي له ونَشاطي

لأَدَرْتُ العِنانَ نحوَ دمشقٍ ... وحَمِدْتُ السُّرى على الأشواطِ

وعاد إلى الآستانة، فوجد أن خاله المكي قد توفي بها قبل قدومه بنحو شهرين، فرثاه بما في «الديوان» (ص١٨٠)؛ ثم ضاقت به العاصمة العثمانية على سعتها، وصرفه عنها وعن عظمتها يومئذ ما كان يشعر به من الشوق إلى دمشق، حتى تمكن من الوصول إليها، والاستقرار فيها. غير أنه ما لبث أن ناله شُواظ من شرور السفاح الجنكيزي أحمد جمال باشا، الذي لم يسلَم فاضلٌ من شره، فاعتقل في رمضان سنة ١٣٣٤هـ وكان في زنزانة واحدة هو والأستاذ سعدي بك الملا، الذي تولى رئاسة الوزراء اللبنانية بين الحربين العالميتين، وكانت جريرة سعدي بك الملا: أنه كان سكرتيراً لشكري باشا

الأيوبي، من كبار رجال الجيش العثماني الذين أنجبتهم الشام، أما شكري باشا، فكان تحت التعذيب الأليم الذي يذكر الناس بديوان التفتيش الكاثوليكي في إسبانيا، ومن شعر السيد محمد الخضر حسين في هذا الاعتقال:

جَرَى سَمَرٌ يومَ اعتُقِلْنا بفُندقٍ ... ضُحانا به ليلٌ، وسامِرُنا رَمْسُ
فقالَ رَفيقي في شَقَا الحَبْسِ: إنَّ في الـ ... ـحَضَارَةِ أُنْساً لا يُقاسُ به أُنْسُ
فقلتُ لهُ: فَضْلُ البَداوةِ راجِحٌ ... وَحَسْبُكَ أنَّ البدَو ليسَ بهِ حَبْسُ

وأكبرُ ظني أنه كان لأنور باشا دخل في إنقاذ شيخنا من قبضة جمال باشا، فما كاد يفرج عنه، ويخرج، حتى أزمع السفر إلى الآستانة، وما كاد القطار يسير به حتى قال، وهي في «الديوان» (ص١٢٦):

أُرَدِّدُ أَنفاساً كذاتِ الوقودِ إذْ ... رَمَتْني من البَيْنِ المُشِتِّ رواشِقُ
وما أنتَ مثلي يا قطارُ وإن نَأَى ... بِكَ السيرُ تغشى بلدةً وتُفارِقُ
فما لكَ تُلْقِي زَفْرَةً بعدَ زفرةٍ ... وشملُكَ إذْ تَطْوي الفَلا متناسِقُ

ولما بلغ الآستانة، أوفده أنور باشا سنة ١٣٣٥هـ للمرة الثانية إلى ألمانيا، فقضى فيها زمناً طويلاً، وعاد إلى الآستانة، ثم إلى دمشق، فتولى التدريس بالمدرسة السلطانية مرة أخرى بقية سنة ١٣٣٥هـ ثم في سنة ١٣٣٦، وفي هذه المدة شرع في دراسة كتاب «مغني اللبيب» في علم العربية لجمال الدين بن هشام (٧٠٦ ـ ٧٦١هـ) بمحضر جماعة من أذكياء طلاب العلم بدمشق، وكان يرجع في تقرير المسائل المتصلة بالسماع والقياس إلى تلك الأصول المقررة والمستنبطة، فاقترح عليه أولو الجِدِّ من الطلبة جمعَ هذه الأصول المتفرقة؛ ليكونوا على بيِّنة منها ساعة المطالعة، فألف مقالات

تشرح حقيقة القياس، وتفصل شـروطه، وتدل على مواقعه وأحكامه، ومن هذه المقالات تألفت رسـالة «القياس في اللغة العربية» التي أعاد عليها نظره بمصر، ونال بها عضوية جماعة كبار العلماء وقمنا بطبعها سنة ١٣٥٣هـ.

وفي سنة ١٣٣٧هـ ذهب إلى الآستانة، وكانت الحرب العالمية الأولى في نهايتها، والحالة في دولة الاتحاد والترقي مؤذِنَة بالزوال، فتوجه إلى ألمانيا، وقضى هناك سبعة أشـهر؛ وكانت عودته منها في هذه المـرة إلى دمشق رأساً. وهو يقول «الديوان» (ص٢٠٠):

سئمتُ، وما سئمتُ سوى مُقامي ... بـــدارٍ لا يَـــروجُ بهـــا بَيـــاني

فأزمعتُ الرحيلَ، وفَـرْطُ شـوقي ... إلـى بَـرَدى تَحَكَّـمَ فـي عِنـاني

هَلُـمَّ حَقيبتـي لأَحُـطَّ رَحْلـي ... فَـنَفْح زهـورِ جِلَّـقَ فـي تَـداني

ووافقت عودةُ الشيخ إلى دمشق دخولَ الجيش العربي، وولاية فيصل ابن الحسين على سورية، وفيها اجتمعتُ بالشيخ مرة أخرى بعد عودتي من الحجاز لأتولى الجريدة الرسـمية للحكومة السـورية، وكنت أقوم بتأسيـس المعهد العلمي، وأديـر اللجنة الوطنية العليا مع المجاهـد الكبير العلامـة الشيخ كامل القصاب ـ رحمه الله ـ، فكنت ألقى الشيخ الفقيد مراراً، ومن شعره يومئذ متضجراً من كثره أسفاره السابقة، ومتمنياً الاستقرار في دمشق المدينةِ التي أحبها، والأبيات في «الديوان» (ص٤١):

أَنـا كـأسُ الكـريم والأرضُ نـادٍ ... والمَطايـا تطـوفُ بـي كالـسُّقاةِ

كَمْ كؤوسٍ هَوَتْ إلى الأرض صَـرْعى ... بَـيْنَ كـفٍّ تُـديرُها واللَّهـاةِ

فاسْـمَحي يـا حيـاةُ بـي لبخيـلٍ ... جفـنُ سـاقيهِ طـافحٌ بِـسُباتِ

وأراد الله أن يقع الاحتلال الفرنسي، فعدت أنا إلى مصر على الإبل بزي أعرابي، وبقي الشيخ في دمشق على أمل أن يعود إلى تونس فيكمل حياته فيها، ولكن الله أراد له اللحاقَ بنا إلى مصر في العام التالي (١٣٣٩هـ). وله في ذلك موشحة لطيفة في «الديوان» (ص٢٤٥). وقال عند سفره من دمشق «الديوان» (ص١٦٠):

كَأَنِّيَ دينارٌ وجِلَّقُ راحَةٌ تُنافِسُ في الإنفاقِ راحَةَ حاتمِ
فكَمْ سَمَحَتْ لي بالرحيلِ، وليتني ضربتُ بها الأوتادَ ضربةَ لازمِ

وفي مصر أخذ يشتغل بالكتابة والتحرير والدرس. وفي سنة ١٣٤٠هـ ألف رسالته «الخيال في الشعر العربي». وبعدئذ كسبته دار الكتب المصرية، فالتحق بقسمها الأدبي عدة سنين، ثم تجنس بالجنسية المصرية، وتقدم للامتحان في الأزهر، فقام على امتحانه لجنة برئاسة العلامة الشيخ عبد المجيد اللبان، وكانت اللجنة كلما اكتشفت آفاق علمه، زادت في التعمق بمناقشته، واستخراج كنوز فضله، وأصبح بعدئذٍ من أكمل أساتذة هذا الصرح العلمي العظيم في عصور الإسلام الطويلة، وإن تلاميذ الشيخ صاروا فحول العلماء، وأطواد التحقيق في الشريعة وعلوم العربية. وإن كثيرين منهم كانوا يرغبون في القيام بواجب الكتابة عن فضله وأياديه الكريمة في التحقيق وتخريج الرجال، فلما علموا أني سأكتب عنه، تخلوا لي ـ حفظهم الله ـ عن هذه المهمة؛ لما يعلمونه من طول خلطتي به، وقديم صداقتنا التي أعتز بها، وطالما أفدت منها.

وفي سنة ١٣٤٢هـ أسس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية)، وسَنَّ لها قانوناً قمت أنا بطبعه.

وفي سنة ١٣٤٣هـ مرض مرضاً شديداً ردد صداه في شعره «الديوان» (٢٦)، ومنه:

أَطَلَّ عليّ الموتُ من خَلَل الفنا فآنستُ وجَه الموتِ غيرَ كئيبِ
ولو جَسَّ أحشائي لَخِلْتُ بَنانَهُ وإنْ هالَ أقواماً بنانَ طَبيبِ
فلا كانَ من عيشٍ أرى فيه أُمَّتي تُساس بِكَفَّيْ غاشمٍ وغريبِ

وفي سنة ١٣٤٤هـ ظهر كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وكان السيد محمد الخضر صديقاً حميماً لآل عبد الرازق ويزورهم، ويسر بلقائهم، فلما كاد الكتاب ينتهي طبعه، وكان لا يعرف مذهب مؤلفه فيه، طلبوا منه أن يمدهم بعناوين كبار العالم العربي والإسلامي؛ ليهدوا الكتاب إليهم، فطلب الشيخ هذه العناوين مني، وكتبت له بها قائمة طويلة، ثم صدر الكتاب، وأهدوا نسخة منه إلى الشيخ، ونسخة أخرى لمجلة «الزهراء» التي كنت أصدرها، فراعنا من الكتاب أنه ينكر كونَ الإسلام دينَ حكم، فانتقدته أنا في مجلة «الزهراء»، وكتب الشيخ علي مقالة افتتاحية في جريدة «السياسة» يجيب بها على نقدي، وتفرغ فقيدُنا لنقد الكتاب فقرةً فقرة، وفي أقرب وقت صدر كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وفي شهر واحد نفدت طبعته؛ لشدة الإقبال عليها.

وفي السنة الثانية (١٣٤٥هـ) افتضحت رسالة «في الشعر الجاهلي»، فعكف الشيخ على نقض كل ما فيها من باطل، وصدر كتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، وبقيت بقية من آخر أقلام استعملها في تأليفه، فأهداها إلى خزانة العلامة أحمد تيمور باشا.

وكتب ـ أيضاً ـ في بطاقة ربطها ببقية القلم، وهي في «الديوان» (ص٨١)، وهي:

سَفَكَتْ دمي في الطِّرسِ أَنْمُلُ كاتب ... وطَوَتْني المبراةُ إلا ما تَرَى
ناضَلْتُ عن حَقٍّ يحاول ذو هَوًى ... تصويرَه للناسِ شيئاً مُنْكَرا
لا تَضْرِبوا وجهَ الثَّرى ببقيةٍ ... مني كما تُرمى النواةُ وتُزْدَرَى
فخزانةُ الأستاذِ تيمورَ ازدَهَتْ ... بِحُلًى من العرفان تَبْهَرُ مَنْظَرا
فأنا الشهيدُ وتلكَ جنّاتُ الهُدى ... لا أبتغي بسِوَى ذُراها مَظْهَرا

وفي سنة ١٣٤٦هـ أسسنا المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، وكان الفقيد مع تيمور باشا ـ رحمهما الله ـ ركنين ركينين في تأسيسه، وقد عُبِّئَت لذلك يومئذ كل الشخصيات المناصرة للإسلام من شباب وكهول، فكان تأسيس تلك الجمعية نقطةَ تحولٍ بين تيار العداء للإسلام باسم التجديد، وبين قيام كيان مرموق للإسلام في وادي النيل.

ولما تم النجاح في هذا العمل الحميد، تفرغ فقيدنا لتأسيس (جمعية الهداية الإسلامية)، فضمت أهل الغيرة والنشاط من شباب الأزهر وشيوخه، ومن نَهَجَ منهجَهم من المثقفين ثقافة مدنية. وكما صدرت لجمعية الشبان مجلة، صدرت لجمعية الهداية مجلة. وكما قامت لجمعية الشبان فروع في الأقطار، قامت للهداية فروع مثلها.

وفي محرم سنة ١٣٤٩هـ صدرت مجلتنا هذه «الأزهر»، وكان عنوانها يومئذ: «نور الإسلام»، فتولى فقيدُنا رئاسة تحريرها من جزئها الأول إلى ربيع الآخر سنة ١٣٥٢هـ، وفي سنة ١٣٥٠هـ عاوده مرض مزعج أثار فيه خواطر شعرية تراها في (ص٤٢) من «ديوانه».

وواصل ـ رحمه الله ـ السنين المباركة في حياته بعد ذلك في التدريس بكلية أصول الدين على طريقة العلماء الأقدمين في التحقيق، والرجوع بقضايا العلم إلى أصولها، والغوص في أعماقها. ويقضي الليالي في محاضرة جماهير الشباب وأهل الفضل بدار جمعية (الهداية الإسلامية) داعياً إلى تجديد حيوية الإسلام في نفوس أهله، وتقرير حقائقه بأساليب بليغة كانت موضع الحرمة والتقدير من جميع الطبقات، وقد نشر بعضها مستقلاً، أو على صفحات مجلة «الهداية الإسلامية»، ثم جمع الكثير منه في كتابه «رسائل الإصلاح» الذي طبع في ثلاثة أجزاء.

وعندما أسس المجمع اللغوي، كان من أقدم أعضائه، وله فيه بحوث وقصائد ودفاع عن الفصحى، وتبيان لأسرارها، وعرض لجواهرها.

وما زال مستمراً في التأليف والخطابة والوعظ في «الهداية الإسلامية»، والتدريس في الحلقات العليا بالأزهر. وفي سنة ١٣٦٦ صدرت مجلة «لواء الإسلام»، وعهد إليه برياسة تحريرها، وظل يواصلها ببحوثه إلى آخر حياته المباركة.

وفي سنة ١٣٧٠ نال عضوية هيئة كبار العلماء برسالة «القياس في اللغة العربية» التي ألف أصلها وهو في دمشق أيام الحرب العالمية الأولى.

وفي يوم الثلاثاء (٢٦ من ذي الحجة ١٣٧١هـ ـ ١٦ سبتمبر ١٩٥٢م) خرج من مجلس الوزراء أثناء انعقاده ثلاثة من أعضاء ذلك المجلس، فتوجهوا إلى المنزل الذي كان يسكنه الشيخ في شارع خيرت، وعرضوا عليه مشيخة الأزهر باسم حكومة الثورة، وجاء الشيخ إلى مشيخة الأزهر، وللأزهر في ذهنه رسالة يتمنى لو اضطلع بها الأزهر؛ ليتم له بها حمل أمانة الإسلام.

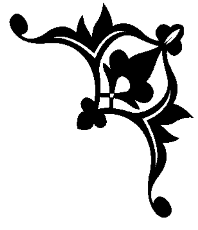
وكان هذا الاختيار تحقيقاً للأخوة الإسلامية في الدستور الإسلامي، وبرهاناً من الله ﷻ على أن من كان مع الله، كان الله معه، وعلى أن من عاش يؤثر الآجلة على العجلة عند اختلافهما، فإن الله يكافئه بخير مما يطمع فيه الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة.

ولما أضعفته الشيخوخة عن مواصلة الاضطلاع بحمل هذه الأمانة، عاد إلى منزله يواصل العكوف على الكتب والكتابة والتفكير، حتى لقد نظم ديواناً آخر كله مقطعات في الحكمة والخواطر التي تحوم حول الحق والخير.

وفي يوم ١٣ رجب مساء اختاره الله إليه، وهو لا يزال على عهده الأول من ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠]، فكان جديراً بما وعد الله به أمثاله أن ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠]. وفي ظهر اليوم التالي صُلي عليه بعد الفريضة في الجامع الأزهر، ومشى في موكب جنازته علماء الأزهر، وأعيان الأمة، والمنتسبون إلى العلم، حتى بلغ النعش باب الخلق والموكب متصل فيما بينه وبين الأزهر، ودفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بوصية منه، رحمهما الله وصالحي المسلمين، وتغمدهم برحمته.







المرحوم الشيخ
محمد الخضر حسين

بقلم محمد علي النجار

«كلمة ألقاها الكاتب الإسلامي الأستاذ محمد علي النجار في حفل تأبين الإمام محمد الخضر حسين، في جلسة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٥٨ الدورة الرابعة والعشرون»[١].

كتب عليّ أن أؤبن أستاذي الأكبر والإمام الأجل الشيخ محمد الخضر حسين، فيتجدد عندي من الأسى والحسرة ما تجرعته عند نزول شَعُوب به، وجواره لربه. وكأنما هذا بديل بما تمتعت به في مجالسته، والاستماع إلى حديثه العذب ورأيه السديد وعلمه الغزير، والحظو بأدبه الجم، ومناقبة الغر.

وأذكر هنا فصلاً للأستاذ خليل مردم، من كتاب له إلى فقيدنا حين كان في دمشق، وأزمع مفارقتها: «إن من خير ما أثبته في سجل حياتي، وأشكر الله عليه: معرفتي إلى الأستاذ الجليل السيد محمد الخضر التونسي، وإخوته الفضلاء، وصحبتي لهم. فقد صحبت الأستاذ عدة سنين، رأيته فيها الإنسان الكامل الذي لا تغيره الأحداث والطوارئ . فما زلت أغبط نفسي على ظفرها بهذا الكنز الثمين حتى فاجأني خبر رحلته عن هذه الديار. فتراءت لي حقيقة المثل: «بقدر التواصل تكون حسرة التفاصل».

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية» القاهرة ـ الجزء الرابع عشر.

والأستاذ خليل مردم يتوجع لمفارقة في الحياة يرجى بعدها اللقاء. فكيف تكون فجيعتنا فيه وهذا فراق لا لقاء بعده، إلا في يوم التلاق. وما أحرانا أن نتمثل بقول الشاعر يتوجع لفراق أخيه:

وكنت أرى كالموت من بين ليلة فكيف ببينٍ كـان ميعـاده الحـشر
وهوَّن وجدي أنني سوف أغتدي على إثره يومـاً وإن نفـس العمـر

أجل، كتب عليَّ هذا الموقف المحزن لأذكر حياة الأستاذ السيد الخضر الحافلة بالفضل والجهاد، وإعلاء كلمة الإسلام والعروبة، والحفاظ على المجد الطارف والتليد، عملاً بسنة مجمع اللغة العربية المحمودة في تأبين من يرحل من أعضائه. وكان الشيخ ﷺ يؤثر أن يُدعى له بعد موته، فذلك أحبُّ إليه من التأبين، وهو يقول:

تسائلني هل في صحابكَ شـاعر إذا متَّ قال الـشعرَ وهـو حـزين
فقلت لها: لا همّ لي بعد موتتي سوى أن أرى أخراي كيف تكون
وما الشعر بالمغني فتيلاً عن امرئ يلاقـي جـزاء والجـزاء مهـين
وإن أحظ بالرحمى فمالي من هوى سواها وأهـواءُ النفـوس شـجون
فخلّي فعولن فاعلاتٌ تُقـال فـي أناس لهم فـوق التـراب شـؤون
وإن شئتِ تأبيني فـدعوةُ سـاجد لـه بـين أحنـاء الـضلوع حنـين

وبلى، والله! كان للشيخ فوق التراب شؤون وشؤون، فهو حقيق أن يرثيه الشعراء والكتاب، وأن تفيض عليه الشؤون. وإن شؤونه لتفتح عليهم أبواب الكلام، وتحوك لهم جياد القصيد.

ألم يكن علماً من أعلام الإسلام والعربية ذاع أمره وطاب ثناه؟ ألم

يكن داعياً من دعاة الخير والهدى الحميد؟ ألم يكن المثل الأعلى في الخلق وطيب النحيزة؟ وقد تفضل الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال، فأعطاني كتاباً لمستشرق كندي وصفه في تاريخ الإسلام في العصر الحديث، تحدث في فصل منه عن مقالاته في مجلة «نور الإسلام» ـ وهي مجلة الأزهر لأول نشأتها ـ، وعمق النظر فيها، وأثنى عليه أطيب الثناء، وهو يصفه أنه مثالي. ومن كلامه: «أما أنه رجل مثالي، فهذا ما يتبادر من كتابته. وهو مثالي من الوجهة النفسية والأخلاقية على حد سواء». ومن كلامه أيضاً في هذا المعنى: «ومثله في المشاركة الفعلية، وجهاده في إصلاح المجتمع، ومثله في الدماثة الشخصية ـ حتى مع أعدائه ـ، ولكن مع التحرر من معرة الملق والمداهنة، ومن نقيصة التظاهر والرياء، ومثله في الكمال العقلي الدقيق، واحترام النفس، والاعتدال، والبعد عن النقائص ـ مثل: الكبر والمهانة ـ هذه المثل وغيره يصورها الخضر بصورة واضحة خاصة به لرسم طابعها الخلقي».

أجل، ألم يبلغ أقصى ما يبلغه أمثاله، فكان شيخاً للجامع الأزهر، وإنما أتاه بهذا المنصب: العلم، والحلم، والحسب، والفضل الغزير، فحفظ للمنصب رونقه وجلاله؟!

والذي يتناول حياة الشيخ ينتشر عليه مجال القول، ولا يدري أي وجه يأخذ، فكل أمره بارع، وكل شأنه سامق. وهمّي في هذا المقام أن أذكر موجزاً بسيرته، وسيتناولها الناس بالبسط والتفصيل في مقاوم أخرى.

*** نشأة الشيخ:**

ولد الشيخ في «نفطة» من أعمال تونس، ويقول فيها ياقوت: «مدينة بأفريقية من أعمال الزاب الكبير. وأهلها شراة أباضية، وهبية متمردون».

وإفريقية هي إقليم تونس، وكأنما توارث أهل «نفطة» خلق الشراة ـ وهو العزة والأنفة من الجور ـ، فنشأ الشيخ على هذا الخلق، وحالفه طول دهره.

وكان مولد الشيخ في سنة ١٢٩٤هـ (يوافق ١٨٧٧م) من أسرة كريمة. ونرى في شعره الحديث عن والدته إذ يرثيها في سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦ ـ ١٩١٧م)، وهي من بيت عريق في العلم والفضل: بيت عزوز، ويقول فيها:

بنت عزوز لقد لقنتنا ... خشية الله وأن نرعى الذماما

كنت نوراً في حمانا مثل ما ... نجتلي البدر إذا البدر تسامى

أفلم تُحْييه بالقرآن في ... رقة الخاشع ما عشتِ لزاما

كنتِ لي روضةَ أنسٍ أينما ... سرت أهدت نفحَ وردٍ وخزامى

ويذكر الشيخ كثيراً خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، وكان مدرس الحديث في دار الفنون بالآستانة. ورثاه الشيخ إذ مات في هذه المدينة في سنة ١٣٣٤هـ، ويقول فيه:

رب شمس طلعت في مغرب ... وتوارى في ثرى الشرق سناها

هاهنا شمس علوم غربت ... بعد أن أبلت بترشيش ضحاها

وترشيش: اسم قديم لتونس.

وقد حفظ القرآن، وشدا شيئاً من الأدب في بلدته. ونراه يقول في هذه الحقبة من حياته: «نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها «نفطة»، وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات تهب في مجالس علمائها. وكان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت ـ وأنا في سن الثانية عشرة ـ نظمَ الشعر. وفي هذا

العهد انتقلت أسرتي إلى مدينة تونس، والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة».

ويؤرخ الشيخ دخوله جامع الزيتونة بسنة ١٣٠٧هـ؛ أي: سنة ١٨٩٩م. ويذكر الشيخ أنه تلقى العلم عن جلة الشيوخ، وذكر منهم: الشيخ سالماً أبا حاجب، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ رضوان. . . وهو لا ينسى عهد طلبه العلم، ولا يفتأ يذكر شيوخه، ويرثي من مات منهم. ونراه يكثر الحنين إلى منازه تونس، ومعاهد صباه وشبابه. فهو يقول في كلمة بعث بها رداً على تحية له من تونس:

بعيشك حدثني عن المعهد الذي ... قضيت به عهد الشبيبة رائدا

حظيت بأشياخ ملأت الفؤاد من ... تجلتهم لما خبرت الأماجدا

بيان أديب يقلب الليل ضحوة ... وفكرة نحرير تصيد الأوابدا

فلم يُرني أدرى وأنبلَ منهم ... رحيلٌ طوى بي أبحراً وفدافدا

كان الشيخ يحن إلى تونس ومغانيها، ولكنه كان لا يرى العودة إليها إلا بعد تطهيرها من قذى الفرنسيين، ونراه يقول:

فأين ليالينا وأسمارها التي ... تُبل بها عند الظماء كُبودُ

ليال قضيناها بتونس ليتها ... تعود وجيشُ الغاضبين طريدُ

وكان الشيخ أبو حاجب أحب الشيوخ إلى أستاذنا، فكان يكثر ذكره والحديث عنه. فلقد عرف الشيخ قدر تلميذه، وتوسم فيه النجابة ونباهة الشأن. يقول الشيخ الخضر: «وكان شيخنا سالم أبو حاجب يحب من الطلبة البحث، ويلاقي السؤال المهم بابتهاج، ويدعو للطالب بالفتح. كنت يوماً في درسه «الجامع» للبخاري، وقرر الشيخ الفرق بين صبر على كذا، وصبر

عن كذا، فقال: صبرت عن المعصية؛ أي: تركتها، فقلت له: قد ترك الشاعر هذا الفرق إذ قال:

والصبر يحمد في المواطن كلها   إلا عليك فإنه مذموم

فمقتضى هذا الفرق أن يقول: إلا عنك فإنه مذموم. فاغرورقت عيناه، وظهر على وجهه ابتهاج، ودعا لي بخير. ولم يسعه إلا أن يقول: إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض. فالشاعر استعمل (على) موضع (عن) كما قال الآخر:

إذا رضيت عليَّ بنو قشير   لعمرُ الله أعجبني رضاها

فإن رضي يتعدى - بحسب الأصل - بـ «عن» كما قال الله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾[المائدة: ١١٩]. ويقول أيضاً في شيخه هذا: «وممن لقيت من الأدباء العلماء: شيخنا الشيخ سالم أبو حاجب، فكان يقول الشعر مع كونه يغوص على المسائل العلمية بفكر ثاقب. سافر مع الوزير خير الدين التونسي إلى الآستانة، وخاطب السلطان بقصيدة، فأمر السلطان بإعطائه وساماً، وقال له المكلف بإعطاء الأوسمة: هذا وسام براتب، فأبى قبوله، وقال: إن من العيب عندنا أن يحمل العالم وساماً، فلما عاد إلى تونس، قال له ملك تونس: لو قبلتَ الوسام، لغضبتُ؛ لأني كنت عرضتُ عليك مثل هذا، فأبيتَ».

ولقد تأثر الشيخ الخضر بشيخه في سمو النفس وظلفها عما لا يجمل بالكريم، وذلك أخص أخلاقه - عليه رحمة الله -، كان يحتذي من القدماء في هذا المعنى القاضي الجرجاني، وتراه يقول: «ومن خير الأدباء العلماء: القاضي عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

وحسبك في وصفه، والكشف عن أدبه أبياته التي يقول فيها:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

يقولون هذا مورد قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحر تحتمل الظما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

وأذكر هنا: أن التاج السبكي أورد أبيات الجرجاني في «معيد النعم» (٧٠)، وقال عقبها: «فلقد صدق هذا القائل. لو عظموا العلم، لعظمهم. وأنا أقرأ قوله: لعَظما ـ بفتح العين ـ؛ فإن العلم إذا عُظِّم، يُعَظِّم، وهو في نفسه عظيم. ولهذا أقول: ولكن أهانوه، فهانوا. ولكن الرواية: فهان، ولعُظم ـ بضم العين ـ. والأحسن ما أشرت إليه».

*** حياة الشيخ في تونس بعد تخرجه:**

تخرج الشيخ في جامع الزيتونة في سنة (١٣١٦هـ ـ ١٨٩٨م)، وهو فقيه كاتب شاعر أديب يستشعر المرارة من سوء الحال في بلده، وبسطة يد الفرنسيين فيه، ويتحرق إلى إعادة مجد الإسلام. ورأى أن خير ما ينفق فيه جهده: تنبيه الأفكار، وبعث اليقظة في نفوس الناس، وأن من أقوم السبل في ذلك: الصحافة الواعية الرزان. فأنشأ مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة ظهرت في المغرب، وأخاله كان فيها جسوراً، ينقد ما يراه في قومه من استسلام للأجنبي، ويرسم ما يرى من إصلاح في شتى النواحي، وينشر فيها نفثات الأفكار، ودرر الأخبار. ونراه يقول في شأن هذه المجلة: «وقد كنت ـ بعد أن نلت درجة العالمية من جامعة الزيتونة ـ أنشأت مجلة علمية أدبية، وهي أول مجلة أنشئت بالمغرب، فأنكر علي بعض الشيوخ، وظن

أنها تفتح باب الاجتهاد؛ لأني قلت في أول عدد منها: «ودعوى أن باب الاجتهاد مغلق لا تُسمع إلا مع دليل يبطل الدليل الذي انفتح به أولاً». وشجعني على إنشائها شيخنا أبو حاجب، وقال لي في باب الشفاء من جامع الزيتونة: أقول لك ما قاله ورقة بن نوفل: «ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي». وكان شجعني عليها كذلك الوزير محمد بوعتُّور. وشكا إليه بعض الشيوخ مما نشر في المجلة مما يتعلق بالخطابة، فأجابه الوزير ـ وكان من العلماء الأجلة، ورأيت له نسخة من «المفتاح» للسكاكي بخط يده الجميل ـ: إن ما تنشره المجلة لا يعارض الشرع ولا القانون».

ونراه فيها يبكي مجد المسلمين الضائع، ويستنهض الهمم للصناعة والعلوم المادية، فيقول:

أبناء هذا العصر هل من نهضة ... تشفي غليلاً حره يتصعد
هذه الصنائع ذللت أدواتها ... وسبيلها للعالمين ممهد
إن المعارف والصنائع عُدَّة ... بابُ الترقي من سواها موصد

وكان ينشر فيها شعره الحماسي أمير شعراء تونس السيد الشاذلي خازندار. وله يقول الشيخ الخضر:

ما زلت أذكر ما خطت يمينك في ... سفر السعادة من آدابك الغرر
وأنفع الشعر ما هاج الحماسة في ... شعب يقاسي اضطهاد الجائر الأشر

ولقد وضحت خطة الشيخ في حياته: إصلاح اجتماعي وديني، وإيقاظ النفوس لاستعادة مجد الإسلام، ونفض غبار الذل والاستكانة للأوربيين. وكان يسميهم تهكماً: المعمرين، وإنما هم المخربون، ودعوة للوحدة بين المسلمين، ونبذ للقوميات الوطنية التي فرقت المسلمين قِدَداً، وبددتهم عباديد

يتقسمهم المستعمرون الأجانب. ويقول في هذا:

نـــادوا بهـــا قوميـــة خرقـــاء أو | وطنيـــة لا حبـــذا ذاك النـــداء
وإذا ذكـــرت الـــدين قـــالوا خلِّنـــا | مـــن ذكـــره وعلـــى أُخوتـــه العفـــاء

وتجلت مكانته، وعلا كعبه في هذه الحقبة، فولي القضاء في «بنزرت» في سنة ١٩٠٥، ولكن لم ترقه حياة القضاء، إذ تحول دون ما يريد من الدعوة للجهاد، ومناهضة المستعمر. فترك هذا المنصب، وولي التدريس في جامع الزيتونة؛ حيث تخرج عليه الجلة الفضلاء. وكان مما درّسه إذ ذاك كتاب: «المثل السائر».

*** هجرة الشيخ من تونس:**

لبث الشيخ في تونس يحمل علَم الجهاد والإصلاح والاتجاه بالنقد على عسف الفرنسيين. ويقول في بعض حديثه: من يسمونهم بالمعمرين، فلهم في المظالم قصص تملأ أسفاراً، فلا أدري ما أذكر منها وما أدع، وخاطبتني المحكمة الفرنسية سنة ١٣٢٥هـ بإشارة من شيخ المدينة أن أكون عضواً في المحكمة لأحضر حكمها بين الوطني والفرنسي، فامتنعت من هذه العضوية، ولم أرض أن يصدر الحكم الجائر بحضوري.

وقد حدثت في هذه المدة في تونس ثورات وطنية، قمعت بالغلظة من الفرنسيين، والتنكيل بمن يهيِّج الناس عليهم، فأزمع الشيخ الرحيل من بلده المحبوب الذي عفَّى على محاسنه القومُ الظالمون، واتجه نحو الشرق عسى أن ييسر له في سبيل دعوته ما يجعلها مثمرة مجدية.

واستوطن دمشق إذ كانت لا تزال تحت سلطان العثمانيين لم يحتلها الأجنبي. وكان فضله قد سبقه إليها، فنصب للتدريس بالمدرسة السلطانية،

حيث درّس الإمام الشيخ محمد عبده، وكان ذلك سنة ١٩١٢ .

ولقد أظلته الحرب العظمى وهو في دمشق. وكان جمال باشا سفاح الشام يناهض كل دعوة عربية، فوشي إليه بالشيخ، فاعتقله. ويقول الشيخ في اعتقاله:

جرى سمر يوم اعتقلنا بفندق ضُحانا به ليل وسامره رمس
فقال رفيقي في شقا الحبس إن في الـ ـحضارة أنساً لا يقاس به أنس
فقلت له: فضل البداوة راجح وحسبك أن البدو ليس به حبس

ورحل بعد هذا إلى الآستانة، حيث أسند إليه التحرير بالقسم العربي بوزارة الحربية، ويقول في هذا: «ولما وليت التحرير بالقلم العربي في وزارة الحربية بالآستانة، قدموا إلي ورقة لأكتب فيها شخصيتي، وما أميل إليه من العلوم أكثر من غيره، وجهة تخصصي العلمي. فكتب أني مختص بعلوم البلاغة وأصول الفقه الإسلامي. وكان بجانبي أحد علماء «شنقيط»، فقال لي: لم زدت وصف (الإسلامي)؟ فلم يسعني إلا أن قلت له: كتبتها لزيادة الإيضاح. وقد سمعت من يسمي القوانين الوضعية: فقهاً، فيضعون بالطبيعة للقوانين الوضعية أصولاً، فتكون كلمة (الإسلامي) للاحتراز عن غيره».

وقد سافر إلى ألمانيا مرتين. وكانت المرة الأخيرة حين احتل الحلفاء الآستانة، فرحل زعماء الحركة الإسلامية؛ كالشيخ عبد العزيز جاويش، والدكتور عبد الحميد سعيد، والدكتور أحمد فؤاد ـ رحمة الله ورضوانه عليهم ـ، وقد عادوا ـ كما يقول هو ـ في الباخرة التي حملت العثمانيين من «همبرغ» إلى الآستانة، وكان ذلك سنة ١٩١٨م.

وهو يتحدث عن ألمانيا في ذكريات كثيرة، يقول في جزء فبراير من

«لواء الإسلام» ١٩٥٧ : «وأذكر أني حين كنت في ألمانيا لم آكل من لحوم حيوانهم؛ لأني عرفت أنهم لا يذبحون الحيوان بالطريق الشرعي، إنما يقتلونه بالضرب على رأسه، أو بالخنق. وأخذت في ذلك بقوله تعالى عند تعداد المحرم من الحيوان: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾[المائدة: ٣]، وهو ينطبق على ما كانوا يفعلون».

ويقول في «رسائل الإصلاح» (١/ ٦٦): «أقمت في عاصمة ألمانيا وبعض مدنها وقراها زمناً غير قصير، فلم أر قط سائلاً سليم البنية، بل لم أر في تلك الديار متكففاً غير نفر قليل يتكفف، إذ لا يعدم سليم البدن أن يجد هناك عملاً حيوياً إذا شاء. والتعليم هناك ـ وهو إلزامي ـ يقبح لصاحبه أن يقف موقف الاستجداء».

ويقول في جزء نوفمبر سنة ١٩٥٥ من «لواء الإسلام»: «وأذكر أني حين كنت في ألمانيا في أيام الحرب الأولى حضرت حديثاً يدور بين مدير الاستخبارات الألمانية وسكرتيره أثناء سفرنا إلى قرية «ويزندرف»، سألني المدير في نهايته، فقال: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟ قلت: وماذا يقرر؟ قال: إن العرب لا يصلحون للملك، ولا يحسنون حكماً للأمم. قلت: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية. وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام. وقد بين ذلك غاية البيان في فصل عقده في «مقدمته» ذكر فيه أن العرب أبعدُ الأمم عن سياسة الملك، فقال: «فبعدت طبائع العرب لذلك كله عن سياسة الملك. وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طبائعهم، وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض. واعتبر ذلك بدولتهم في الملة،

لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم، وقوي سلطانهم».

وقد نظم في هذه الواقعة قطعة في ديوانه عنوانها: (العرب والسياسة).

وفي ديوانه قطعة دالية نظمها في ألمانيا حين زاره محمد بك فريد، وإسماعيل بك الأيوبي.

وقد ذكرت أنه عاد إلى دمشق في سنة ١٩١٨. وفي هذه المرة وجد في الشام الحكومة العربية في عهد الملك فيصل الأول، وعهد إليه التدريس في المدرسة السلطانية كما كان أولاً. ولكن ما لبث أن بسطت فرنسا سلطانها على البلاد، فترك الشيخ دمشق إلى القاهرة؛ حيث استقر بها، وتأثل مجده، وانتشر علمه وفضله. وكان رحيله إلى مصر في سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م).

أقام الشيخ بمصر، وأحس الغربة في مبدأ أمره، ورضي بها، وآثرها على الرجوع إلى وطنه الذي لا يزال تحت حكم الأجنبي. ويقول في ذلك:

رضيت عن اغترابي إذ لحاني ... فتى لا ينظر الدنيا بعيني
يقول: تقيم في مصر وحيداً ... وفقدُ الأنس إحدى الموتتين
ألا تحدو المطية نحو أرض ... تعيد إليك أنسَ الأسرتين
وعيشاً ناعماً يدع البقايا ... من الأعمار بِيضاً كاللجين
وقوم أمحضوك النصح أمسوا ... كواكب في سماء المغربين
فقلت له: أيحلو لي إياب ... وتلك الأرض طافحة بغين
وما غين البلاد سوى اعتساف ... يدنسها به خرق اليدين
فعيش رافه فيها يساوي ... إذا أنا سمته خُفَّي حُنين

أحـــن إلـــى لياليهـــا كـــصبٍّ يحـــن إلـــى ليـــالي الـــرقمتين

ومطمـــح همتـــي فـــي أن أراهـــا تـــساوي فـــي علاهـــا الفرقـــدين

وقد عرفت مصر قدر الشيخ، وكثر أصدقاؤه ومريدوه. وكان من آثرهم وأجلهم: أحمد تيمور باشا ـ رحمه الله ـ. فقد آزر الشيخ، وكان له خير رفيق ومعين. ويقول الشيخ حين استأثر الله بصديقه الوفي:

تقاسم قلبي صـاحبان وددت لـو تمتلَّهمـا عينـاي طـول حيـاتي

وعللت نفسي بالمنى فإذا النـوى تعـل الحـشى طعنـاً بغيـر قنـاة

فأحمد في مصر قـضى ومحمـد بتـونس لا تحظـى بـه لحظـاتي

ويريد بمحمد: الشيخ الطاهر بن عاشور ـ مد الله في حياته ـ.

وقد قام الشـيخ بأعمال جليلة، فاشـترك في تأسيس جمعية الشـبان المسلمين، وأسس جمعية الهداية الإسلامية، وأصدر مجلتها، وظلت سفر الهداية وعلم رشاد. وتول تحرير مجلة «نور الإسلام» (وهي مجلة الأزهر) لأول عهدها. وكذلك ولي تحرير «لواء الإسلام» فيما بعد حيناً من الدهر، ووضع الخطة القويمة لها، ونهج لها السنة الواضحة.

ولقد ضمه الأزهر إلى علمائه، وكان أستاذاً في كلياته، واختير عضواً في جماعة كبار العلماء. وكان أن وقع عليه الاختيار لمنصب مشيخة الأزهر في سنة ١٩٥٢ لأول عهد حكومة الثورة المبجلة.

واختير عضواً في مجمع اللغة العربية لأول نشأته، فكان من الذين رفعوا سمكه، ومكنوا له. واشترك في وضع الخطط التي يسير عليها المجمع، وإصدار القرارات التي يسير في هداها. ومن هذه القرارات: قرار تكملة المادة

اللغوية، وغيرها، ومجلة المجمع ومحاضره تشهد بفضله وتبريزه. وله عدة قصائد في افتتاح دورات المجمع. وكان في آخر حياته يحرص على حضور حفلات المجمع على الرغم من سوء صحته، وإن علته كبرة نالت منه.

وأحب الشيخ مصر، وأعجبه نهضتها وقوة جيشها. وكان يتمنى لو يتاح مثل هذا للمغرب، وهو يقول في استعراض الجيش المصري في سنة ١٩٤٩ :

دمعـــة كــالثلج بــرداً مَجَّهــا ... فـي المـآقي فـرطُ بـشرٍ وارتيـاح

إذ شهدنا عـرض جيش مـن بنـي ... مـصر فـي أسـنى عتـاد وسـلاح

وتلتهــا دمعـــة صـــور لـــي ... حرهــا أنفـاس مكـسور الجنـاح

إذ ذكـرت المغـرب الغـارق فـي ... لجج سود مـن العـسف الـصراح

نهـضت مـصر إلـى المجـد ومـا ... نهـــضت إلا بعـــزم وكفـــاح

أتــرى المغــرب يومــاً ناهــضاً ... للعـــلا بـــين ســـيوف ورمـــاح

وكان الشيخ يجهد دهره في تحرير المغرب، فكان رئيس جبهة شمال أفريقية، وكانت هذه الجبهة تضم علية الأحرار الذين يسعون إلى نجاء المغرب من حكم فرنسا الجائر. وقد يكون من ثمار هذه الجبهة: ثورة الجزائر، ونهضة تونس ومراكش. وعني بمسألة فلسطين، فأنشأ قصيدة يذكر فيها وعد بلفور، يقول:

ما وعد بلفور سـوى الزبـد الـذي ... يطفو ويذهب فـي الفـضاء جُفـاءَ

أفبعـد فـتح ابـن الوليـد وصـحبه ... للقـــدس وعـــدٌ يـــستحق وفـــاء

أنـام عـن إسـعافهم والـدين قـد ... عقـــد ائتلافـــاً بيننـــا وإخـــاء

لا تنجــدوهم بالتحــسر وحــده ... إن التحـــسر لا يزيـــل عنـــاء

وكان يدعو ـ كما قلت ـ إلى وحدة العرب والمسلمين. وكأنما بلغت نفسه بعض أمنيته بوحدة مصر وسورية، فمات عقب إعلانها قرير العين.

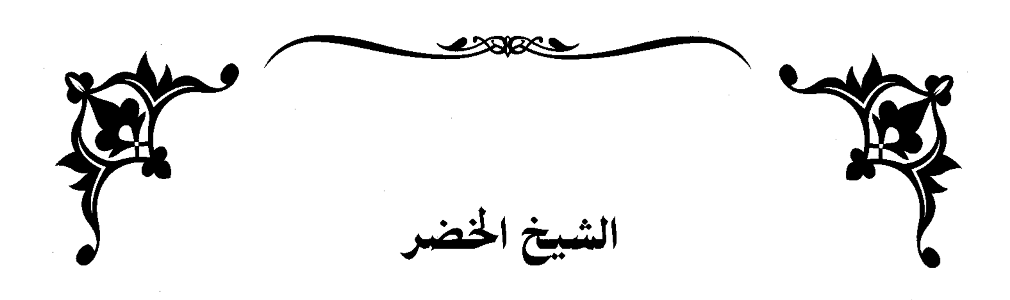
وكان الشيخ رقيق القلب، يحفظ عهد الصديق، وفياً للعشير. ماتت زوجه عقب توليه منصب مشيخة الأزهر، فرثاها بقصيدة أسى ورقّة، يقول فيها:

أعاذل غضّ الطرف عن جفني الباكي ... لخطب رمى الأكباد مني بأشواك
ولي جارة أودى بها سقم إلى ... نوى دون منآها المحيط بأفلاك
أيا جارتا عهد اللقاء قد انقضى ... وصمتك إذ أدعوك آخر ملقاك
أجارة هذا طائر الموت جاثم ... ليذهب من زهر الحياة بمجناك
وكيف يروم الصحب مني تصبراً ... ومركبة حدباء أرست بميناك
وكنت ألاقي كلما جئت مؤنساً ... فمالي ألاقي اليوم صيحة منعاك
حنانيك هل ساءتك مني خليقة ... فأنكرتِ دنيانا وآثرتِ أخراك
وكنت أعزي النفس من قبل أنني ... أموت قرير المقلتين بمحياك
ولم أدر ما طعم المنون فذقته ... مساء لفظتِ الروح والعينُ ترعاك
هوى بك بَيْنٌ لست أرجو وراءه ... زمانا يجود الدهر فيه بمرآك
فهيهات أن أنساك ما عشت والأسى ... يموج بقلبي ما جرت فيه ذكراك
وهيهات لا أنسى مواطن كنت لي ... مسلية لا أنس إلا بمغناك
ولولاك لم أقض اليراعة حقها ... كأن نسيج الفكر حيك بيمناك
وأنت التي حببت لي العيش بعدما ... سئمت فطيب العيش بعض مزاياك

وإن سـامني يـوم شـكاة تـدفقت	دموعك عن جفن يخال هو الشاكي
يجافي الكرى عيني إذا مسَّكِ الضنى	ويرتـاح مـا بـين الحنايـا لمنجـاك
تمـر بنـا الأيـام موصـولة المنـى	فمـا ضـرنا ألا نكـون كـأملاك
أجارة لو شاهدت كيف وقفت في	مزارك لكـن مـا ظفـرت بنجـواك
إذاً لرأيـت الحـزن يـصلى بنـاره	حشًى وكأن الحـزن شـد بأسـلاك
وعدت إلى البيت الكئيـب كـأنني	خلقت فريـداً لـست أعـرف إلاّك
أغـص بـشجو كلمـا مـر موضـع	حللت بـه والـنفس مـرآة سـيماك

وجملة القول: أن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره إلا في الندرى؛ فقد كان عالماً ضليعاً، وكان مع ذلك عالماً بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشد عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤونهم، حفيظاً على العربية والدين، يرد ما يوجه إليهما، وما يصدر من الأفكار منابذاً لهما، قوي الحجة، حسن الجدال. وكان عفَّ اللسان والقلم، لا يتناول المنقود بما يخزيه وما يثلم عرضه، وكان يكره ذلك لمجادله وخصمه. وهو يقول في بعض كلامه: «ووقع بيني وبين بعض العلماء نزاع في مسألة، فلم يقتصر على ما يراه صحة لرأيه، بل زاد على ذلك كلاماً لا يتعلق بالبحث، فأجبته بذكر الحقيقة والتاريخ، وقلـت له: ما زاد على ذلك، فغير أهل العلم أقدر عليه من أهل العلم».

وإن مجال القول في الشيخ ذو سعة، ونواحي فضله تحتاج إلى كتب وكتب. وأحسب أن فيما ذكرت ما يجلي بعض هذه النواحي. وأختم هذا الحديث بالدعاء إلى الله أن يجزل ثوابه، وأن يجعله مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.



الشيخ الخضر

بقلم أحمد حمزة

«صاحب مجلة «لواء الإسلام» بالقاهرة، ووزير سابق، ومن العاملين الصادقين في خدمة الإسلام بالمال والجهد»(١).

إن الله لا ينزع العلم من صدور العلماء انتزاعاً، ولكن ينزعه بقبض العلماء إليه. ولقد قبض إليه سبحانه في شهر رجب الحرام عالماً يذكره الشرق والغرب، وتذكره المحافل والندوات، تعددت جهات نشاطه، وتنوعت أساليب خدمته للإسلام، فهو المجاهد الذي يجاهد أعداء الإسلام في تونس، ويقود الثورات عليهم، حتى يحكم عليه بالإعدام، فلا يضعف ذلك من عزيمته، ولا يوهن من شكيمته، بل يستمر متنقلاً في الآفاق، داعياً للإسلام، مدافعاً عنه، يتنقل بين البلاد الأوربية ضارباً في الأرض، حتى إذا ألقى به الرحيل في أرض فلسطين، اشترك في إنشاء مدرسة (الدعوة والإرشاد)، وكان يتولى التدريس فيها، وتخرج على يديه تلاميذ كثيرون انبثوا في البلاد العربية دعاة مجاهدين.

ولما احتلت فرنسا بلاد سوريا التي اتخذها مقاماً، طاردته في ضمن

(١) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد ١٢ من السنة الحادية عشرة.

من طاردت من الأحرار، وهو كالسيف المسلول لا يضعف ولا يهن، فهاجر إلى مصر، وفي مصر عكف على العلم الذي كان ذخيرته وعدته دائماً، ولم ينس جهاده في سبيل الإسلام، فأخذ يؤسس الجمعيات الدينية، ويعضدها بقلمه ولسانه، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية، وكان يمدها بما يفيض من ماله القليل.

ووقف قلمه على من يهاجمون الحقائق الإسلامية، وله كتاب أفرده في الرد على من هاجموا نظام الحكم في الإسلام. وقد امتاز بقوة الحجة، وإحكام الجدل العفيف النزيه.

ولما أنشئت الكليات الأزهرية، كان ممن أقاموا دعائم التدريس في كلية أصول الدين، وتلاميذه من الوعاظ وغيرهم يذكرون فضله عليهم، وعمق تفكيره، ويعتبرون ما كتبه حجة يرجعون إليها.

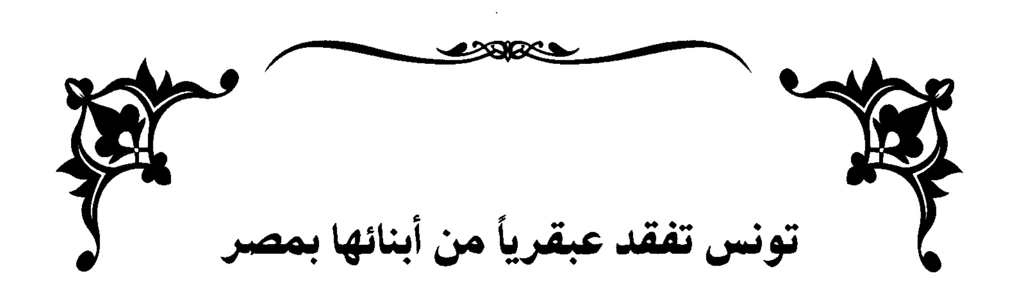
ومنذ اتجهنا إلى إنشاء مجلة «لواء الإسلام» نتقدم بها محتسبين النية خدمة لهذا الدين الحنيف، وبياناً لحقائقه، لم نجد علماً يحمل اللواء سوى الشيخ الخضر حسين، فأرسى قواعد التحرير فيها، وتعهدها بتوجيهه وقلمه وقلبه المنير، ونيته وإخلاصه ﷺ، فسارت قدماً إلى الإمام، تحمل رسالتها، وتتجه إلى غايتها، ومن ورائها (الخضر)، ونخبة مؤلفة من العلماء المخلصين المؤمنين.

ولم ينقطع عن رياسة التحرير إلا عندما شغل بمنصب شيخ الأزهر، وفي هذا المنصب أعاد إليه كرامته، وأكّد عزته، ولا يزال الأزهريون يذكرون له مواقف الشمم والإباء، وما زالت كلماته التي قالها، والتي استهل بها عهده فيه تدوِّي في آذانهم، يرددونها، ويعترفون له بتحقيقها، فقد قال ﷺ: «ولّيت

الأزهر موفوراً عزيزاً، فإن لم يزد في عهدي، فلن ينقص منه شيء». ثم ترك الأزهر، وعكف على العلم والكتابة مرة أخرى في «لواء الإسلام». واستمرت المجلة تشرق بمقالاته، وتضيء بإخلاصه حتى قبضه الله إليه.

فرضي الله عنه في الصديقين والصالحين والأبرار المجاهدين.





تونس تفقد عبقرياً من أبنائها بمصر

بقلم علي الجندوبي

«كاتب وصحفي له نشاط واسع في التحقيقات، ولد في تونس عام ١٩٠٩م، وتوفي بها عام ١٩٦٦»[١].

مساء يوم الأحد ٤ فيفري ١٩٥٧ وصلت الأنباء بنعي فضيلة العلامة الهمام، والعالم العامل المبرز في علم التفسير وأصول الدين، المرحوم الشيخ الخضر بن الحسين، أحد نوابغ تونس، والذي زان وجه بلاده في كل من ميدان العلم والسياسة والأدب. قضى نحبه عن سن عالية تبلغ (٨٦) سنة قضاها في العمل المتواصل، لا لفائدة تونس فقط، بل لفائدة العروبة والإسلام.

وهو فذ من أفذاذ الجامعة الزيتونية، وأحد أقطاب حركتها، فارق تونس منذ نصف قرن متجهاً نحو مصر، بعد أن غبن في حقه من جراء الحيف والظلم، وبعد أن شارك في سلسلة من المناظرات في العهد الماضي عهد المحسوبية والمحاباة.

والتجأ إلى الشرق عام ١٩١٢، وعلى أثر هجرته، أصدرت عليه المحكمة

(١) صحيفة «النداء» التونسية، العدد العاشر الصادر بتاريخ (٢١ رجب ١٣٧٧ الموافق ١٠ فيفري شباط ١٩٥٨).

العسكرية حكمها بالإعدام، والاستيلاء على مكاسبه بدعوى التعاون مع العدو، فلم تجد عند الشيخ إلا بعض كتب، وعمل مع رفقائه في الهجرة كل من العلامة الشيخ إسماعيل الصفايحي، وصالح الشريف في إسطنبول، واستقر في مصر بالقاهرة المعزية، وهناك اعترف له بمكانته العلمية وقدر نبوغه، ودرج في سلم العلم والتدريس، وزاول تدريس التفسير للقرآن الكريم، وأصول الدين، حتى أصبح بحق ضمن هيئة كبار علماء مصر، وأحد رجال مجتمعها الأفذاذ، وهو الذي عمل لبلاده في الحقل الوطني من الرعيل الأول.

وهو مثل: جمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، ومحمد عبده، وشكيب أرسلان، وعبد العزيز الثعالبي، ورفيقه وزميله العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور.

وكان ركناً من أركان الصحافة، فقد أسس بتونس مجلة «السعادة العظمى»، وكان داهية من أبرز الأفذاذ الذين دعوا إلى الوحدة العربية الإسلامية في عدة مناسبات، وفي عدة هيئات.

ورغم عمله العلمي لفائدة مصر والأزهر، فقد كان دائماً يحن لبلاده، ويعلن زورته لتونس، له بها أهل وأقارب، وأخ هو الشيخ المكي بن الحسين، أحد رجالات الأدب والانقطاع إلى العلم، كما له أخ ثانٍ هو العلامة المبرز هو مثله في أعماله العلمية، وهو الأستاذ زين العابدين بن الحسين، مكون جيل كامل، وكان أكبر موجه ونبراس العلم في مدينة دمشق الشقيقة التي استقر بها نصف قرن أيضاً، وعمل بها للعلم وأهله ـ أطال الله عمره ـ.

ورجلنا هو الذي وقع عليه الاختيار في مبدأ الانقلاب المصري، والقضاء

على الملكية، فاختاره قائد الثورة إذ ذاك محمد نجيب للإشراف على إدارة الأزهر الشريف بفروعه، وقضى بهذه الخطة ردحاً من الزمن أبهر فيها مصر بما فيها من أهل العلم، وأحسن الإدارة والتوجيه المثمر.

وفارقها بمحض اختياره مكتفياً بصفته من كبار العلماء والمجمع اللغوي المصري، ومثله المجمع العلمي بدمشق، وهو الرجل الذي عرف مصر وأحبها، واختار أن يستوطنها ويعمل فيها ولها طول حياته، فهو رجل منقطع للعلم والعمل المتواصل، ولم يمنعه سنه العالي من الاستمرار في الإنتاج في ميدان الصحافة أيضاً والأدب. وقد كان راحلنا شاعراً ممتازاً في أطوار حياته المزدانة بالمفاخر والأعمال الجليلة، التي تشرف لا تونس فقط، بل العروبة والإسلام.

هذا زيادة على توجيهاته للجالية التونسية المستقرة بمصر في الحقل التجاري، فهو أول سفير علمي سياسي اقتصادي لتونس بمصر في عهد منحتها هذه البلد التي كانت ولا زالت ملجأ لرجال الفكر من عهد عبد الرحمن بن خلدون، الذي يماثله في الاضطهاد والعقوق به، وأما اليوم، فإن تونس التي أصبح لها سفارة تونسية على رأسها الأستاذ الطيب السحباني، وثلة من رجال الفكر والأدب والعلم.

وآثار راحلنا تحت كل ورقة من المجلات الراقية العلمية، وعلى الأخص منها الدينية، المتمثل فيها أصول الدين، والمقاصد العليا التي أتى بها القرآن الكريم، والحديث الشريف، والسير على هدي السلف الصالح ممن وضّحوا الحقائق للبشر في هذه الأرض.

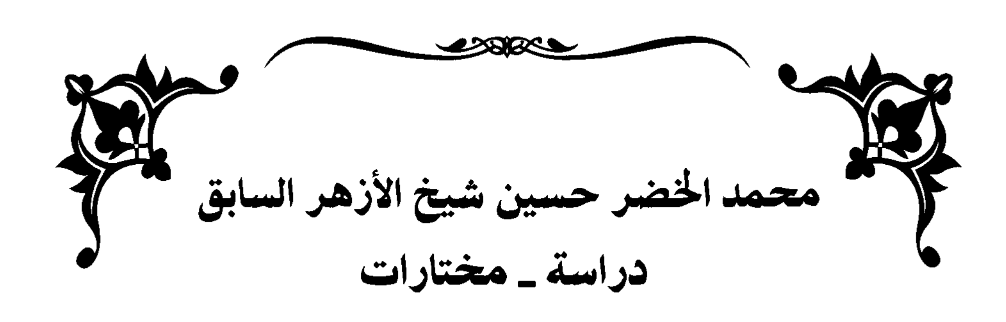
ويموته اليوم خسرت لا تونس فقط، بل العالم العربي، وأوساط الفكر

العلمي الذي كان الفقيد من رجاله الممتازين، وقد ترك مؤلفات ذات قيمة في الميدان العلمي والثقافي، أمثال: «ديوانه الشعري».

وقد علمنا أن هيئة المعهد الخلدوني فكرت في إقامة مهرجان لهذا العبقري المجاهد، والوطني الذي كافح الاستعمار بطريق العلم والسياسة معاً كلما دعت الحاجة لهذا، وفي أي ظرف من ظروف الحركة الوطنية، ولفائدة تونس ورجالها إلى آخر نفس من حياته.

العزاء للجامعة الزيتونية، ولبلد الجريد منبع النبوغ والعلم، وعزاء لآله وذويه وأشقائه، وزميله الشيخ الطاهر بن عاشور الذي يعتبره الفقيد أخاً له من عهد الدراسة، ولابنه الروحي الأستاذ الفاضل بن عاشور، ومحبيه، ولتونس طول البقاء.





محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق
دراسة ـ مختارات

بقلم أبو القاسم محمد كرو

«كاتب وأديب تونسي، له نشاط ثقافي واسع، وصلات وثيقة مع رجال الفكر. رئيس اللجنة الثقافية في تونس. يكتب في عدة صحف ومجلات أدبية داخل تونس وخارجها، من مؤلفاته: دراسات في الأدب والنقد ـ أبو القاسم الشابي حياته وآثاره ـ من أعلام تونس في الثلث الأول من القرن العشرين»[1].

*** مقدمة:**

لم تكن يقظة تونس في القرن التاسع عشر، ولا نهضتها المتواصلة صعوداً وعرضاً منذ مطلع القرن الماضي إلى اليوم، لم تكن هذه النهضة، ولا تلك اليقظة، نتيجة انتفاضة طارئة أو مفاجئة، بل كانت نتاج تطور طبيعي تعاقب أجيالاً، وثمار بذور تولت أيد كثيرة مخلصة بذرها في تربة الوطن ونفوس أبنائه، ثم سهرت على رعايتها وحمايتها، وتبليغ أمانتها لمن يأتي بعدها جيلاً بعد جيل.

وليس من شك في أنه لن تكون لأي شعب وثبة أو يقظة أو نهضة ما لم يحمل أعباءها رجال وهبوا من الذكاء والعلم والإخلاص ما يؤهلهم لذلك.

---

(١) سلسلة كتب «أعلامنا» الطبعة الأولى ١٠/١٠/ ١٩٧٣ ـ تونس.

وإن تونس المعتزة اليوم بما حققته من انتصارات، وما بلغت إليه من تقدم، لتعتز أيضاً بأن لها في ماضيها البعيد والقريب، بل وفي حاضرها الماثل، رجالاً أفذاذاً في شتى ميادين الكفاح والنضال، وفي جميع نواحي الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية.

فمنذ فجر يقظتها، وهي تلد الأفذاذ والعباقرة، كما تلد الأبطال والنبغاء في كل الميادين.

وها أنا أختار رجلاً واحداً من أولئك الأفذاذ النبغاء، الذين أنجبتهم هذه التربة الولود، رجل جمع إلى الذكاء والجد والحصافة والنبوغ، صفاتِ الشهامة والبطولة والإخلاص الوطني.

هذا الرجل هو الشيخ الإمام المرحوم محمد الخضر حسين، الذي سأكتفي بتقديمه في إطار تاريخي وتحليلي عام، قصدَ التعريف به، والترجمة له.

وسيرى القارئ أن حياة الشيخ ونضاله وتراثه الديني والأدبي واللغوي تحتاج كلها إلى مجلدات.

ولئن كان العمل الشامل المفصل هو من واجبات المتفرغين للبحث، أو الراغبين في التخصص، فإن في هذا العمل المحدود ـ والمحدد لمعالم شخصية الشيخ محمد الخضر، وحياته الغنية جميعاً بالإنتاج والنضال ـ ما يمهد لمثل هؤلاء الدارسين سبل البحث والتوسع والاستقصاء.

وبالفعل فقد كان لقسم كبير من هذه الدراسة أثر عند كثيرين ممن اطلع عليه حين نشره، حلقاتٍ، بجريدة العمل التونسية سنة ١٩٦٩.

وهذا القسم المنشور، قد حافظنا عليه كما نشر تقريباً، إلا ما اقتضته

المراجعة من إضافة تصحيحات، وتحديد المراجع والمنابع الأصلية للمعلومات؛ تسهيلاً للباحثين أن يعودوا ـ إن أرادوا ـ إلى تلك الأصول.

لكن ما سبق نشره كان خاصاً بجوانب حياته الزمنية والمكانية، ونضاله الديني والوطني بصفة عامة، وعلى ذلك رأينا أن نضيف إليه فصولاً أخرى جديدة تتعلق بآثاره الفكرية والدينية واللغوية، وبعض جوانب من حياته الأدبية والصحفية والوطنية.

كما ألحقنا بالدراسة قسماً ثانياً اخترنا فيه «نماذج أدبية ولغوية ودينية ووطنية» تمثل أهم الموضوعات التي كانت غالبة وبارزة في إنتاجه: كتباً وبحوثاً، ومقالات وقصائد.

ولما كانت غايتنا الأولى من هذا البحث (حين كتب القسم الأول منه، وألقي كمحاضرة في مسقط رأسه «نفطة» ـ سبتمبر ١٩٦٧ ـ ثم في العاصمة فيفري ١٩٦٨) هي أن يكون إحياء لذكراه، وتمجيداً لنضاله، وتحية له، ورمز تقدير وعرفان لما أسداه لأمته وتراثها من جليل الأعمال وفائق المؤلفات، فإن غايتنا منه اليوم هي تأكيد تلك المعاني وتعميقها بمناسبة مرور مئة عام هجري على ميلاده، وخمس عشرة سنة على وفاته.

آملاً أن يكون هذا العمل الأول نحوه بمثابة الارتياد والتمهيد للاحتفال القادم بالذكرى المئوية الشمسية لميلاده، التي ستحل بيننا بعد ثلاث سنوات فقط؛ أي: في شهر جويلية ١٩٧٦.

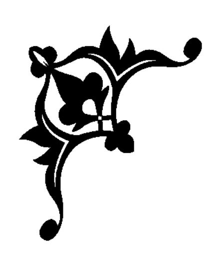
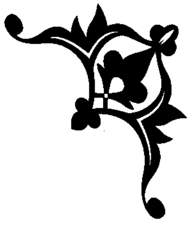
إن الوفاء لأفذاذ أمتنا وأعلامها وأبطالها وشهدائها هو أول ما يجب علينا جميعاً نحوهم.

وهو أقل من القليل نحو الشيخ محمد الخضر حسين لما تركه من تراث، وما قام به من جهاد، وما له من مكانة باسقة في تاريخنا القومي والفكري، وفي العالم الإسلامي على السواء.

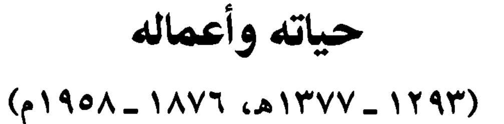
أبو القاسم محمد كرو

تونس ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م



حياته وأعماله



(١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ، ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م)

*** أسرته:**

ينحدر[1] الشيخ محمد الخضر حسين من أسرة عريقة في العلم والدين والشرف؛ إذ ينتمي جميعها إلى التصوف والدين والعلم، كما تنتمي إلى النسب النبوي الشريف، ومن أجل هذا كان لشيوخها ـ في عصرهم ـ مكانة مرموقة بين معاصريهم.

ويعود أصل الأسرة إلى جنوب الجزائر، وإلى بلدة (طولقة) بالذات، وهي تبعد زهاء الأربعين كيلومتراً عن مدينة «بسكرة» الواقعة في جنوب القطر الجزائري، وهي تابعة اليوم لولاية «قسنطينة».

يقول أحد تلاميذه:

«هو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الشريف، وأسرته ترجع

---

(١) هذا البحث مكرر حرفياً في كتاب «تونسيون في تاريخ الحضارات» للأستاذ الباحث والمحقق والشاعر محمد بوذينة ـ منشورات محمد بوذينة ـ الحمامات تونس ـ المطبعة الأولى/ أكتوبر ١٩٩٨م.

والثابت أن الأستاذ محمد بوذينة نقله عن الأستاذ محمد كرو.

ونشر الأستاذ محمد بوذينة هذه الترجمة للإمام محمد الخضر حسين ضمن «سلسلة مشاهير» تحت رقم ١٣٥.

إلى بيت العمري (بطولقة) بيت العلم والمجد والشرف».

«وطولقة مركز دائرة الزيبان الأكبر، والزيبان الأصغر مركزه سيدي عقبة، على بعد ١٨ كم من بسكرة».

«ووالد المترجَم له كان رحل منذ قرن[١] من طولقة إلى نفطة صحبة مصطفى بن عزوز، إذ كان متزوجاً بابنته، شقيقةِ العلامة الشيخ المكي بن عزوز...»[٢].

وعلى هذا.. يكون الشيخ الخضر جزائري الأصل عن طريق أبيه وأمه معاً.

ويبدو أن الأسرة هاجرت من جنوب الجزائر إلى بلاد الجريد، واستقرت ببلدة «نفطة» إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠، وكان بين أفرادها الشيخ الحسين والد المترجم له، ولعل هجرتها كانت في منتصف القرن الماضي، بعد أن أخذ الغزو الفرنسي يكتسح مناطق الجنوب الجزائري.

ولد الشيخ محمد الأخضر[٣] بن الحسين في بلدة «نفطة»[٤] الجميلة في منطقة الواحات ـ الجريد ـ بالجنوب الغربي التونسي، يوم (٢٦ رجب

---

(١) كتب هذا سنة ١٩٥٨، فيكون تاريخ الرحيل حوالي منتصف القرن الماضي.

(٢) الطيب بن عيسى: جريدة ـ المشير ـ عدد ١٧ ـ ٢ ـ ١٩٥٨.

(٣) هكذا كان ينعت في طفولته وشبابه. وهناك نادرة تروى عن سبب إبداله الأخضر بالخضر، وهو إبدال اقترحه عليه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، رفيق دراسته وتدريسه في الزيتونة، وصديقه مدة الحياة.

(٤) ثاني مدينة في بلاد الجريد بعد عاصمتها توزر.

عام ١٢٩٣ هجرياً، الموافق ليوم ٢٦ جويلية يوليو سنة ١٨٧٦ ميلادية).

وكانت وفاته في القاهرة يوم (١٢ رجب أيضاً عام ١٣٧٧ هجرياً، الموافق للثاني من فيفري سنة ١٩٥٨ ميلادية). وبذلك يكون الشيخ الخضر قد عاش أربعة وثمانين عاماً قمرياً، أو اثنتين وثمانين سنة شمسية.

وبين ميلاده ووفاته، وخلال هذه العقود الثمانية من حياته، اتسعت آفاقه، وامتلأت صحائفه بجلائل الأعمال، وبالأمجاد العلمية والوطنية والدينية العريضة.

*** في العاصمة:**

ففي عام (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م) انتقل الطفل محمد الأخضر الذي نُعت فيما بعد بالخضر، وهو في الثالثة عشرة من عمره، مع والده وأسرته إلى العاصمة حيث أتم تعلمه الابتدائي، وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بجامع الزيتونة في العام الموالي (١٣٠٧/ ١٨٨٩)، فواصل فيه تعلمه إلى أعلى مراحل تعليمه؛ أي: إلى شهادة التطويع، وكانت معظم العلوم المقررة يومئذ دينية ولغوية. ولكنه تتلمذ على عدد من الشيوخ البارزين الذين كان لهم في نفسه أثر محمود ظل يذكره بالثناء والتقدير إلى آخر حياته. ولعل أهم هؤلاء الشيوخ: سالم بو حاجب (ت١٩٢٣)[١]، وعمر بن الشيخ (ت١٩١١)[٢] ومحمد النجار (ت١٩١٣)[٣]، وقد درس التفسير على الأخيرين، ودرس

---

(١) انظر عنه: كتاب «أركان النهضة الأدبية بتونس» (ص١٦ ـ ٢٠).

(٢) انظر عنه: مجلة «الثريا» (س١ ع١ ص٣ ـ ٥) (١ ـ ١٢ ـ ١٩٤٣).

(٣) انظر ترجمته بقلم الشيخ الخضر: مجلة «الهداية الإسلامية» (٣ ج١ ص٥٣ ـ ٥٥)، أو في كتابه «تونس وجامع الزيتونة» (ص٩٧).

«صحيح البخاري» على الشيخ سالم بو حاجب الذي اشتهر بميوله الإصلاحية، وبكثرة المتتلمذين عليه، وشدة تأثيره الإصلاحي فيهم؛ مما ساعد على ظهور عدد كبير من رجال الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي في عهده، والعهود الموالية إلى عصرنا الحاضر. .

ولا شك في أن مترجمنا الشيخ محمد الخضر كان من أنبغ تلاميذه، وأكثرهم تأثراً به، وعملاً بتعاليمه ومذهبه في الإصلاح.

وفي عام (١٣١٦/ ١٨٩٨) نال شهادة التطويع، وهي شهادة سميت بهذا الاسم؛ لأنها تتيح لحاملها أن يتطوع بإلقاء الدروس في الزيتونة نفسها.

وكان هذا التطويع أمراً شائعاً في عصره، بل كان مرقاة للظفر بالمناصب العلمية والدينية، كما كان ميداناً للخبرة والتدريب العلمي على مهنة التعليم.

*** رحلة قصيرة:**

ويظهر أن الشيخ كان محباً للأسفار، وطموحاً إلى الشرق منذ البداية، وهي سنّة كانت الحياة العلمية بتونس تجري عليها منذ القدم. فقد حاول الشيخ في هذا الوقت السفر إلى الشرق عن طريق ليبيا، ولكنه لم يتجاوز مدينة «طرابلس»، ثم عاد ليتطوع في العام الموالي لتخرجه بالتدريس بين سواري الجامع الأعظم.

ورغم هذا التطوع كان مطية للشهرة، واكتساب الخبرة العلمية للمتخرجين الجدد، لا سيما للأذكياء والمتفوقين، فإن الشيخ الخضر لم ينل من تطوعه ذاك ما كان يرجوه منه من اهتمام ذوي الشأن به، خاصة مشيخة الجامع التي كانت مكونة من نظار عديدين، ولكنهم جميعاً منحدرون من عائلات تقليدية برجوازية احتكرت العلم الرسمي، كما احتكرت جميع المناصب العليا في

الإفتاء والقضاء والتدريس، ولم يكن أي متخرج زيتوني من أبناء (الآفاق)[1] يستطيع أن يشق طريقه بسهولة، ولا أن يفوز بأي منصب يتقدم إليه أحد أبنائهم.

غير أن الشيخ الذي لم ينل لدى هؤلاء من الاعتبار والمكانة ما هو جدير بهما، فقد نال شهرة كبيرة وتقديراً عالياً لدى طلاب الزيتونة، وفي الأوساط العلمية والأدبية خارج الجامع، مما حمل الشيخ على الدخول في الحياة العامة بشكل بارز، وبأسلوب جديد.

*** السعادة العظمى:**

فقد أسس أول مجلة صدرت بتونس عام ١٩٠٤ هي مجلة «السعادة العظمى» التي أصدرها نصف شهرية، وتتابعت أعدادها إلى رقم واحد وعشرين؛ أي: قرابة العام.

ويبدو أنه تخلى عنها ليتولى منصب قاض شرعي ببنزرت عام ١٩٠٥، كما تولى الخطابة والتدريس بجامعها الكبير.

*** دفاع عن الحرية:**

«على أن هذه الوظائف لم تكن لتقيده عن القيام بواجباته الاجتماعية والإصلاحية، والمجاهرة بالدعوة إلى الإصلاح الديني والوطني. وذلك منه خلاف ما كان شائعاً ـ يومئذ ـ بين الموظفين في دوائر حكومة الحماية؛ إذ تعود الشعب أن لا يرى منهم إلا ما يرضى السلط العليا، لهذا كانت أقل حركة يقوم بها الموظف خارج الإدارة ـ ولو كانت مشاركة في نشاط ثقافي

---

(١) أي: المدن والقرى بداخل القطر.

أو جمعيات أدبية ـ فإن الرؤساء ـ أي: ممثلي الاستعمار ـ ينزعجون منها، ويتوعدون الموظف بأوخم العواقب، ولا غرو، فإن الجمعيات الأدبية إنما تهدف إلى معاضدة اللغة العربية، لا الفرنسية، الأمر الذي يعتقد أولئك الرؤساء ـ الأجانب ـ أنهم لم يأتوا من وراء البحر لتأييده»[1].

ولكن الشيخ الخضر ليس من هؤلاء الموظفين الخانعين الذين يجد لديهم المستعمر كل طاعة وعون وخضوع. لذا نراه يتقدم بأول محاضرة علنية قامت في تونس عن الحرية، وهي المحاضرة التي ألقاها الشيخ الخضر في نادي قدماء الصادقية عام ١٩٠٦ بعنوان «الحرية في الإسلام»، والتي طبعت بعدُ بكتاب مستقل. وهي من الأعمال الأولى الدالة على شجاعته ووطنيته وحبه لبلاده.

«ولما كان الرجل حراً بطبيعته، فقد أحس بأن الحكومة ـ الاستعمارية إذ ذاك ـ تحاول أن تطفئ منه ذلك النور المشع، وتقتل روحاً نشيطة لا زالت متأججة بين جنبيه؛ ليكون على ما عودت به سائر موظفيها من السكون والاستسلام في ظل مرتب يأتي بانتظام. لما أحس بذلك أبى أن يكون ذلك المستضعف المغبون، فقدم استقالته، وأصر على قبولها»[2]، فقبلت منه. وبذلك تحرر من أعباء الوظائف التي للاستعمار يد وسلطان عليها. ومن ثم عاد للعاصمة ليلقي دروسه العلمية تطوعاً في جامع الزيتونة. وهنا بدأت إدارة الجامع تهتم به، فكلفته ـ ضمن لجنة ـ بوضع فهارس لمكتبات جامع

(١) عن مجلة «العرب» (م٣ ج١ ص٢٨ ـ ٢٩) بتصرف زهيد.

(٢) المرجع نفسه بتصرف بسيط.

الزيتونة[1]، ثم شارك في مناظرة للتدريس من الطبقة الثانية، ففاز بها في عام (١٣٢٥/ ١٩٠٧)، ثم عين أستاذاً في العام الموالي بالمدرسة الصادقية. وبين توليه لهذين المنصبين عرضت عليه سلطات القضاء الاستعماري أن يكون عضواً في المحكمة المختلطة التي كانت تختص بالقضايا التي يكون فيها أحد الطرفين أجنبياً، فرفض الشيخ أن يكون قاضياً أو مستشاراً في محاكم تعيش في ظل الاستعمار، ولخدمة أغراضه ومصالحه، وهو موقف مشرف آخر من مواقفه المجيدة الكثيرة.

*** في الخلدونية:**

وفي هذا العام انتدبته الجمعية الخلدونية ليلقي دروس الآداب والإنشاء على طلابها، وكان إلى جانب هذه المهام التدريسية الثلاث: في الزيتونية، والصادقية، والخلدونية - وهي أعلى معاهد تونس يومئذ، وكلها لم تكن معاهد للعلم فقط، بل كان خريجوها هم أقطاب الحركات الوطنية والاجتماعية والدينية والفكرية، لا في تونس وحدها، بل في المغرب العربي كله - إلى جانب مهامه التدريسية تلك، كان يواصل إلقاء المحاضرات، ونظم القصائد، وكتابة المقالات في مختلف شؤون الحياة التونسية. فمن محاضراته على منبر الخلدونية وقدماء الصادقية محاضرة عن «حياة اللغة العربية»، وأخرى عن «حياة ابن خلدون»، وثالثة عن «الدعوة إلى الإصلاح».

*** داعية للإصلاح:**

وخلال هذه الفترة كان يحث الطلاب على المطالبة بإصلاح التعليم

---

(١) طبع من هذه الفهارس أربع مجلدات، شملت المخطوط والمطبوع.

الزيتوني، وعلى تنظيم صفوفهم في جمعية طالبية، وقد تكللت دعوته بالنجاح؛ إذ أسس الطلبة الزيتونيون أول منظمة طالبية في تونس عام ١٩٠٧، وشرع الطلبة يطالبون بالإصلاح بإيعازه وتوجيهه الخفي لهم، حتى تطور الأمر إلى إعلان أول إضراب عن التعليم قام به الطلاب بتونس، وهو الإضراب الذي أعلنه طلاب الزيتونة يوم ١٦ أفريل عام ١٩١٠، وكان عددهم يومئذ زهاء السبع مئة طالب[1]. وقد فطن الاستعمار إلى أن المحرك الحقيقي للطلاب إنما هو داعية الإصلاح الشيخ محمد الخضر حسين؛ مما جعل سلط الاحتلال تنظر إليه بريبة، وتعتقد فيه ـ رغم ما يظهر عليه من هدوء واعتدال ـ خطراً جسيماً يهيئ للاستعمار أجيالاً من الثائرين والمشاغبين.

*** عصر الشيخ:**

وكانت تونس في هذا العهد[1] تعج بالحركة والنشاط في ميدان الإحياء والبعث، وفي ميدان الكفاح الوطني، فقد كان حزب (تونس الفتاة) بزعامة المرحوم علي باش حانبة، ينبه الشعب من غفوته، ويحاول تنظيم صفوفه للقيام برد الفعل بعد صدمة الاحتلال العنيفة. كما كانت الحركة الفكرية تعج بالمناقشات والدعوات للنهوض والبناء من جديد، وكان الصراع شديداً بين دعاة التطور، وبين المحافظين، ولكن العلاقات بين قادة الكفاح الوطني وبين رجال الفكر والإصلاح كانت قوية متماسكة، رغم الاختلافات الجزئية بينهما في منابع الثقافة، أو في أهداف الإصلاح وعمقه ومداه.

---

(١) «أركان النهضة الأدبية» (ص٤٢)، وانظر تفصيلاً أكثر عن حركة الطلاب في «الحركة الأدبية والفكرية بتونس» (ص٩٦ ـ ٩٩).

(٢) انظر عن هذه المرحلة: «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»، و«هذه تونس».

يؤكد لنا المعاني موقف الأستاذ علي باشا حانبة من ذلك الإضراب الذي أعلنه الزيتونيون، حين حضر إلى جامع الزيتونة، وخطب فيهم معلناً تأييده التام، وممجداً لحركتهم، ومفاخراً بأنه يعتبر نفسه زيتونياً مثلهم؛ إذ كان قد تردد على دروس الجامع مدة عامين، كما أعلن فتح أعمدة جريدته «التونسي» لنشر كل ما يهم قضيتهم[١].

ويظهر أن السلط الاستعمارية بدأت منذ إضراب الطلاب تراقب الشيخ الخضر[٢]، وتحاول انتهاز أي فرصة لإزعاجه، ولكنه ـ بما عرف عنه من هدوء في الطبع، وميل إلى قلة الكلام، واعتدال في الرأي ـ لم يتح للاستعمار أو للرجعية المتعاونة معه أي فرصة لذلك، غير أن الظروف المعاكسة أتاحت للاستعمار هذه الفرصة، كما ساندته فيها العقلية البرجوازية المسيطرة على الحياة في جامع الزيتونة يومئذ.

*** الجهاد الليبي:**

أعلنت إيطاليا الحرب على ليبيا المحكومة من طرف الأتراك العثمانيين، ومعظم البلاد العربية الأخرى، وكانت الحركات الوطنية والدينية في جميع البلاد العربية ذات صلة أو نزعة تميل للخلافة؛ إذ تراها الجامعة الوحيدة التي تجمع بين المسلمين، والتي يمكن أن تشد أزرهم في كفاحهم ضد الحكم والاحتلال الأجنبي.

وكانت تونس في هذا العهد قد شعرت بواجبها نحو جارتها الشقيقة ليبيا، فهبت لمساندة المجاهدين الطرابلسيين بالقول والعمل وبالمتطوعين،

---

(١) «الحركة الأدبية» (ص٩٨).

(٢) انظر كتب: «معركة الجلاز»، «هذه تونس»، «الحركات الاستقلالية».

فتأسست لجان الهلال الأحمر لجمع التبرعات للمجاهدين، ومدهم بالمساعدات الطبية والمدنية؛ كما كانت الحركة الوطنية تساعدهم بالرجال والمال والسلاح.

وكانت الصحافة الحرة والوطنية تؤيد الكفاح المسلح الذي يخوضه أهل ليبيا دفاعاً عن وطنهم.

ورغم أن الشيخ الخضر لم يكن منخرطاً في أي تشكيل حزبي، فإنه بنزعته الإسلامية وما يجيش في نفسه من حب للحرية وتعلق بها، هبَّ - هو الآخر - يساندهم بشتى الطرق، ومن ذلك قصيدته المطولة التي نشرها بصحف تونس، والتي حث فيها المواطنين على مساندة الجهاد الليبي، بل ودعاهم هم بدورهم إلى القيام بعمل مماثل في بلادهم، ومطلع هذه القصيدة كافٍ وحده للدلالة على هذه الأفكار؛ إذ يقول فيه:

ردوا على مجدنا الذكر الذي ذهبا   يكفي مضاجعنا نومٌ دها حقبا

وكان ما كان بعد هذا من نفي زعيم الحركة الوطنية يومئذ المرحوم علي باش حانبة إلى الخارج عقب الاشتباكات الدموية التي قامت بين المواطنين وبين الجالية الإيطالية، وبينهم وبين سلط الاستعمار، إثر الحوادث المعروفة بحوادث الترمواي، وبمعركة الجلاز[1].

وكان واضحاً - بعد هذا كله - أن الخضر حسين لم يعد ينظر إليه بعين الرضا[2]، ولكن الاستعمار لم يجد أي حجة - مهما كانت واهية - للقيام بأي

(١) انظر كتب: «معركة الجلاز»، «هذه تونس»، «الحركات الاستقلالية».

(٢) «أركان النهضة...» (ص٥٢).

عمل ضده. غير أن الشيخ الخضر لم يعد يطيق الحياة في تونس، بعد أن أعلنت الأحكام العرفية فيها، وعطلت الصحافة الوطنية دفعة واحدة، وبعد أن نفي أو سجن معظم القادة والمفكرين الوطنيين[١]. بعد كل هذا وجد الشيخ الخضر نفسه يعيش في جو مكبوت ومكفهر، ومحبوك بالمؤامرات والأحابيل الاستعمارية، فحاول تغيير الجو على نفسه، والتنفس خارج حدود الوطن، فقام بعدة سفرات متوالية إلى الخارج، كانت أولاها إلى الجزائر عام (١٣٢٧/ ١٩٠٩).

*** في الجزائر:**

وفي الجزائر لقي من أهلها وعلمائها ترحيباً، وصدى لنزعته الدينية الإسلامية، فطاف بعدد من المدن الجزائرية، وألقى فيها العديد من المحاضرات والدروس الدينية. ثم عاد إلى تونس، فكانت هذه الرحلة بداية جديدة لحياة جديدة شرع الشيخ الخضر في بنائها لنفسه، ولأفكاره وميوله الإصلاحية[٢].

ولم يلبث بعد عودته إلا قليلاً حتى شرع يعد نفسه للقيام برجلة طويلة، عبر البلاد العربية والإسلامية التي تعيش تحت ظل الخلافة العثمانية.

*** انجذاب للآستانة:**

وكان معظم مفكري تونس ورجال الحركات الوطنية والدينية فيها يومئذ، يشعرون برابطة قوية، وبانجذاب كبير نجو عاصمة الخلافة، والبلدان التابعة لها، ويرون فيها كلها مراكز إشعاع خاص للدين والفكر والثقافة، بل

(١) «الحركات الاستقلالية...» (ص٤٢).

(٢) «أركان النهضة الأدبية» (ص٤٢).

وللحرية أيضاً، ويظهر أن النزعة الاستقلالية والانفصالية عن الخلافة التي كانت قد بدأت تنتشر بين كثير من الحركات والزعماء في الشرق لم تجد لها صدى في تونس يومئذ؛ إذ كان جميع الزعماء والعلماء الذين ينفون من تونس، أو يهاجرون منها، يقصدون رأساً عاصمة الخلافة. وهو أمر يسهل تفسيره وتبريره في تلك الظروف.

*** المكي بن عزوز:**

ولكن الشيخ الخضر كان يجذبه لبلاد الشرق ولعاصمة الخلافة بالذات حافز آخر، بالإضافة إلى ما كان يجذب غيره، وهو الجاذب العائلي والنفسي، فقد كان خاله العلامة الشيخ المكي بن عزوز قد سبقه إلى الهجرة إلى المشرق في ظروف مماثلة تقريباً[1]، واستقر في الآستانة عاصمة الخلافة بالذات، ونال فيها حظوة ومكانة مرموقة، كما نشر فيها العديد من كتبه ورسائله العلمية[2]، فكان هذا الحافز العائلي محركاً آخر خاصاً بالشيخ الخضر. أما العنصر النفسي، فهو تشوقه الدائم إلى الشرق، ورغبته في أن يرى مهبط الوحي، وأماكن الإسلام الأولى، خاصة وأن نهضة الشرق في ميدان العلوم والآداب والصحافة، كانت متقدمة أشواطاً عن مثيلاتها في المغرب العربي؛ لأسباب تاريخية واستعمارية معروفة.

وزاده شوقاً إلى الرحلة: إقدام مواطن آخر من أهل الجريد على الهجرة

---

(١) انظر عنه: «الحركات الاستقلالية» (ص٤٧ ـ ٤٨)، و«معجم المؤلفين» (ج١٢ ص٤٩، وج١٣ ص٤).

(٢) أحصينا من هذه الكتب والرسائل زهاء السبعين عنواناً، بين مطبوع ومخطوط، وننوي أن نكتب عنها وعن صاحبها بحثاً مستقلاً.

في تلك الظروف بالذات، بعد أن كافح كفاح الأحرار والأبطال في ميدان الصحافة والدفاع عن حقوق الشعب. وهذا الرائد البطل هو الصحفي المغامر الشيخ الهاشمي ابن المكي صاحب جريدة «أبو قشة»، الذي ناله من اضطهاد الاستعمار لحريته ولصحفه وكلماته الشيء الكثير، حتى اضطر عام ١٩٠٩ إلى الهجرة إلى الشرق الأقصى بعد الاستقرار بعض الوقت بطرابلس حيث أعاد إصدار صحيفة «أبو قشة» المعطلة بتونس[١].

*** الحدث الحاسم:**

كل هذه العوامل حركت في الشيخ نوازع السفر. ولكن عاملاً آخر حاسماً حدث في عام (١٣٣٠/ ١٩١٢) حين شارك الشيخ الخضر في مناظرة للتدريس من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وكان هو في الطبقة الثانية، فحرم من النجاح باطلاً وعدواناً، وهو النجاح الذي كان يستحقه «بما أبدى من الكفاءة والتفوق»[٢]؛ إذ أن لجنة المناظرة، وهي مكونة من شيوخ تقليديين، قدمت عليه أحد أبنائها، رغم تفوق الشيخ الخضر عليه علماً وأدباً، ومقدرة في إلقاء درس المناظرة بالذات، فحز في نفسه أن تكون سياسة الظلم والمحاباة مسيطرة على الحياة العلمية بتونس، وعلى علماء الزيتونة الكبار بالذات.

ويظهر لي: أن الشيخ الخضر بدأ منذ هذه الحادثة يفكر جدياً في الهجرة نهائياً إلى الشرق، ولكنه فضل القيام برحلة استطلاعية لمعرفة الأحوال هناك.

---

(١) توفي بأندونيسيا سنة ١٩٤٢. انظر عن حياته ونضاله كتاب «كفاح صحفي» للأستاذ علي مصطفى المصراتي.

(٢) «أركان النهضة الأدبية» (ص٤٢).

فسافر في هذا العام نفسه إلى الآستانة ماراً بمصر والشام، وقد دون لنا الشيخ الخضر وصفاً أدبياً واجتماعياً لهذه الرحلة نشره تباعاً في جريدة «الزهرة»[١]، وعقب عودته في ٢/١٠/ ١٩١٢[٢] منع من التدريس بالمدرسة الصادقية لأسباب واهية للغاية[٣]، فأدرك الشيخ أن الاستعمار والرجعية قد تحالفا ضده. وأن الأمور قد تتطور إلى ما هو أسوأ، فقرر الهجرة نهائياً إلى الشرق، فهاجر في نفس السنة[٤]، وكان معه إخوته الأربعة، وبينهم أخواه العالمان: الشيخ المكي ابن الحسين[٥]، وأخوه الشيخ زين العابدين الذي بقي مستقراً إلى الآن في دمشق[٦].

---

(١) «المرجع السابق» (ص٤٢).

(٢) في «الأدب التونسي» (ج٢ ص١٩٧) أنه عاد إلى تونس في (ذي الحجة ١٣٣٠ نوفمبر ١٩١٢) بينما أكد لي شخصياً المرحوم محمد الصالح المهيدي بأنه عاد بحراً في اليوم الثاني من أكتوبر ١٩١٢. وقد أكد العودة بحراً محب الدين الخطيب مجلة «الأزهر» (٢٩ ص٧٣٨)، و«الديوان» (ص١١٥ و١٦٤).

(٣) أكد المهيدي أيضاً أن فصله من التدريس بالصادقية كان بحجة غيابه عن افتتاح المعهد بيومين؟!

(٤) أي: سنة ١٩١٢ التي يتفق أولها مع أواخر سنة ١٣٣٠، ويتفق آخرها مع أوائل سنة ١٣٣١ الهجرية، وقد ظن بعض مترجميه أنه هاجر سنة ١٣٣٠، ثم عاد زائراً لتونس في ١٣٣١. وقد يكون هذا الظن مبنياً على أن أسرته (والدته وإخوته) قد هاجروا فعلاً سنة ١٣٣٠هـ.

(٥) عاد إلى تونس بعد سنوات، واستقر بها إلى وفاته سنة ١٩٦٣، وهو شاعر، واشتهر أكثر بتنقيباته وأبحاثه اللغوية. انظر عنه: «الأدب التونسي» (ج١ ص١٩٣ ـ ٢٠١).

(٦) له عدة كتب ورسائل مدرسية ودينية مطبوعة.

وإلى هنا تكون المرحلة الأولى من حياة الشيخ الخضر قد انتهت، وهي مرحلة استغرقت نصف حياته تقريباً.

*** المرحلة الثانية بين التنقل والاكتشاف:**

وبسفره إلى المشرق بدأت أيضاً المرحلة الثانية، التي أسميها: بمرحلة التنقل والاكتشاف. حيث إن الشيخ الخضر قد زار في هذه المرحلة الجزائر ومصر والشام والحجاز والآستانة وألبانيا، ومعظم بلاد البلقان التي كانت خاضعة للحكم العثماني، ثم استقر بدمشق مع عائلته. وكانت سورية يومئذ تحت الحكم العثماني. وقد عين الشيخ الخضر ـ عقب استقراره بدمشق ـ أستاذاً في المدرسة السلطانية بها حيث مكث إلى عام (١٣٣٦/ ١٩١٧). وكان خلال إقامته بدمشق مثابراً على نفس النشاط العلمي والإصلاحي الذي كان يقوم به في تونس، فكان يكتب المقالات، ويلقي المحاضرات والدروس الدينية والأدبية واللغوية[1]، ويدعو إلى التضامن العربي التركي في ظل الخلافة الإسلامية. وهو في ذلك يدعو عن عقيدة قوية صادقة، أساسها ثقافته الدينية من ناحية، وإحساسه الخاص من ناحية أخرى، والبيئة الفكرية والسياسية التي نشأ وترعرع فيها بتونس من ناحية ثالثة.

*** في السجن:**

ورغم ما كان عليه دائماً من اعتدال في كل شيء، فإن السفاح المعروف باسم جمال باشا الحاكم التركي لبلاد الشام، والذي كان يحمل أفكاراً عنصرية معادية لكل جنس غير الجنس الطوراني، قد زج بشيخنا في السجن، إثر حركة

---

(١) مجلة «الأزهر» (مجلد ٢٩ ص٧٤٠).

القمع الواسعة التي قام بها هذا السفاح في سوريا ولبنان، والتي أعدم فيها عدداً كبيراً من رجال الوطنية والفكر في كلا البلدين[1]، وكانت التهمة الموجهة للشيخ الخضر هي: أنه كان على علم بالحركة السرية المعادية للأتراك، والتي كان الأحرار من زعماء سوريا ولبنان ينظمونها ضد الاحتلال والحكم التركي لبلادهم. وقد مكث الشيخ الخضر في السجن مدة ستة أشهر وأربعة عشر يوماً، «وكان في زنزانة واحدة هو والأستاذ سعدي بك الملا، الذي تولى رئاسة الحكومة اللبنانية بين الحربين العالميتين»[2]، ثم قدم للمحاكمة، فثبتت براءته، وأطلق سراحه.

ولم يكن الشيخ الخضر في سجنه يشعر بأي خوف على حياته، فهو يعتقد من ناحية أنه بريء، ومن أخرى هو يعلم أنه إن قتل كغيره من العلماء العرب، فإنه سيموت شهيداً في سبيل الإسلام، ولم يكن يؤلمه شيء في السجن سوى أنه لا يجد قلماً ولا ورقاً ليسجل خواطره، ويكتب أفكاره وأشعاره، وفي هذا وذاك يقول الشيخ الخضر:

غلّ ذا الحبس يدي عن قلمٍ ... كان لا يصحو عن الطرس، فناما
هل يذود الغمض عن مقلته ... أو يلاقي بعده الموت الزؤاما
أنا لولا همةٌ تحدو إلى ... خدمة الإسلام آثرت الحِماما
ليست الدنيا وما يقسم من ... زهرها إلا سراباً أو جَهاما

وكان خروج الشيخ الخضر من السجن في الرابع من ربيع الثاني عام

---

(١) راجع عن ذلك: «البلاد العربية والدولة العثمانية» لساطع الحصري.

(٢) مجلة «الأزهر» (مجلد ٢٩ ص٧٤٠).

(١٢٣٥هـ، ٢٩ جانفي ـ يناير ـ ١٩١٧م)، فعاد إلى عمله السابق، ويظهر أن الآستانة قد علمت بحادثته هذه، فعطفت عليه، واستدعته إليها؛ حيث ألحق منشئاً عربياً بوزارة الحربية. وقد يكون هذا التعيين جرى نتيجة سعي منه للخروج من جحيم دمشق، وحكم جمال باشا السفاح، كما يحتمل جداً أن يكون الزعيم علي باش حانبة ورفاقه بالآستانة هم الذين سعوا في هذا التعيين؛ ليكون الشيخ الخضر قوة تعاضدهم في العمل من أجل تحرير المغرب العربي؛ حيث كان علي باش حانبة وأخوه محمد[١]، والشيخان صالح الشريف[٢]، وإسماعيل الصفائحي[٣]، وغيرهم يعملون في الآستانة وفي أوروبا على إعداد حملات تحريرية مسلحة ضد الاحتلال الإيطالي والفرنسي في المغرب العربي، وكانوا يتحركون بكثرة بين العواصم، ولهم اتصالاتهم السرية المنظمة، وأنصارهم الكثيرون في تونس وليبيا والجزائر. وقد نجحوا فعلاً في تنظيم حركات ثورية مسلحة بالجزائر وتونس وليبيا[٤].

*** رحلات إلى ألمانيا:**

وما كاد الشيخ الخضر بن الحسين يستقر بالآستانة في منصبه الجديد بوزارة الحربية، حتى كلف بمهمة في ألمانيا التي كانت في حالة حرب مع فرنسا. وكان أبناء الشمال الأفريقي ـ خاصة من الجزائر وتونس، المجندين

---

(١) انظر عن جهادهما معاً: «الحركات الاستقلالية»، و«هذه تونس».

(٢) توفي سنة ١٩٢٠ ـ انظر عنه: مجلة «البدر» (م٢ ج٢ ص١٠٠ ـ ١٠٢).

(٣) توفي سنة ١٩١٨ ـ انظر: ترجمته في مجلة «البدر» (م٢ ج١ ص٢٦ ـ ٣٣ ـ وج٨ ـ ٩ ص٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٤) «هذه تونس» (ص٨٤)، و«الحركات الاستقلالية» (ص٥٣).

في الجيش الفرنسي، وفي واجهات القتال بالخصوص ـ يزيدون عن المئتي ألف.

وكان هدف علي باش حانبة ورفاقه هو بث الدعاية في صفوف المغاربة داخل الجيش الفرنسي، وبين أسراهم في ألمانيا؛ لحملهم على القتال ضد فرنسا، وليس معها؛ لأن مصلحة بلادهم في هذا الموقف. كما كانت ترمي هذه الحملة إلى إقناع الجنود المغاربة ـ والأسرى منهم بالخصوص ـ بالتطوع في الحركات الجهادية التي كان يقودها علي باش حانبة ورفاقه، والتي كانت الدولة العثمانية تساندها معنوياً ومادياً، وقد حل الشيخ الخضر في ألمانيا مع بعثته من العلماء المسلمين بينهم الشيخ التونسي صالح الشريف، ومكث في ألمانيا زهاء تسعة شهور تعلم في أثنائها اللغة الألمانية، وقام بمهمته أحسن قيام، ثم تردد بين الآستانة و«برلين» إلى أواخر الحرب العالمية الأولى حيث أقام مرة أخرى زهاء السبعة أشهر[1].

*** محمد باش حانبة:**

وأثناء إقامته ببرلين توثقت الصلة بينه وبين عدد من رجالات تونس، وزعماء العرب المنضوين تحت راية الخلافة العثمانية. نذكر منهم بالخصوص: الزعيم محمد باش حانبة شقيق علي باش حانبة؛ فقد كان محمد يمثل الحركة الوطنية التونسية والمغربية عموماً في أوروبا، كما أسس أول مجلة مغربية في أوروبا تدافع عن حقوق المغرب، وعن حريته واستقلاله.

وكان المحامي محمد باش حانبة قد أسس في برلين لجنة لتحرير المغرب

---

(١) «الحركات الاستقلالية» (ص٥٣ ـ ٥٤)، ومجلة «الأزهر» (مجلد ٢٩ ص٧٤٠ ـ ٧٤١).

العربي سميت باسم: (اللجنة التونسية الجزائرية)؛ إذ لم يكن في «برلين» يومئذ من يمثل المغرب وليبيا، وإن كانت اللجنة تعمل لتحرير المغرب العربي كله.

ومحمد هذا وأخوه علي هما أول من فكر ودعا وعمل بالفعل على توحيد المغرب العربي، وتحريره جماعياً من الاستعمار. وكان محمد باش حانبة قد أسس مجلة «المغرب»، وأصدرها أسبوعية في «جنيف». ومحررة باللغة الفرنسية للتعريف بقضايا المغرب العربي إلى الرأي العام الأوروبي. وقد عاشت هذه المجلة مدة عامين، فلما انتهت الحرب عام ١٩١٨، انقطع المدد العثماني عنها، فتوقفت عن الصدور، وإذ ذاك استقر محمد نهائياً في «برلين»، وظل يكافح بوسائله الخاصة؛ إذ كانت الدولة العثمانية قد استسلمت للحلفاء. وكان أخوه علي قد توفي قبل احتلال الحلفاء للآستانة بأسبوع واحد، فشيع إلى مقره الأخير في موكب رسمي كبير[١].

*** ضريح محمد باش حانبة:**

وبقي محمد في «برلين» إلى عام ١٩٢٠ حيث مات هو الآخر غريباً عن أرض الوطن الذي عاش له، ومات في سبيله. وقبر محمد معروف جداً في «برلين» لكل من يزور الجناح الإسلامي من مقبرة «تمبلهوف» حيث دفن الفقيد، وحيث شيد قبره كلٌّ من طلعت باشا الصدر الأعظم العثماني، وإسماعيل بك لبيب الوطني المصري الشهير[٢].

---

(١) «الحركات...» (ص٥٤)، و«مشاهير المهاجرين التونسيين» ـ خط ـ (ص٢٢).

(٢) «الحركات الاستقلالية» (ص٥٥)، و«هذه تونس» (ص٨٥)، و«مشاهير المهاجرين» (ص٢٥)، ومجلة «الشعب» سنة ٥ عدد ١٠٣ (١٦ ـ ٤ ـ ١٩٦٨).

*** العودة إلى دمشق:**

أما شيخنا الخضر، فإنه ما كاد يعود إلى الآستانة حتى استسلمت الحكومة العثمانية إلى الغزاة المحتلين الذين اقتسموا عاصمتها كما اقتسموا إمبراطوريتها.

فلم يجد بداً من النزوح عنها، والعودة إلى دمشق حيث كانت سوريا قد تحررت من الحكم العثماني، وأصبحت فيها حكومة عربية تحت حكم الأمير فيصل بن الحسين.

وقد أحس الشيخ الخضر وهو في طريقه إلى دمشق بمرارة الفراق للوطن، وبمحن الاغتراب عنه، وكثرة تنقلاته، وقلة استقراره، فوصف حاله في هذه الفترة بقوله:

أنا كأس الكريم والأرض نادٍ ... والمطايا تطوف بي كالسقاة
ربَّ كأس هوت إلى الأرض صدعاً ... بين كفٍّ يديرها واللهاة
فاسمحي يا حياة بي لبخيلٍ ... جفنُ ساقيه طافحٌ بالسبات

ما كاد الشيخ الخضر يستقر في دمشق عقب الحرب العالمية الأولى عائداً من الآستانة، حتى عين مدرساً في ثلاثة معاهد دفعة واحدة، وهي: المدرسة العثمانية، والمدرسة العسكرية، والمدرسة السلطانية التي كان بها قبيل سفره الأخير إلى الآستانة[1].

*** في المجمع العلمي العربي:**

وفي منتصف ١٩١٩م تأسس بدمشق المجمع العلمي العربي، وانعقدت جلسته الأولى يوم ٣٠ جويلية من العام نفسه، وفي هذا الجلسة تم تعيين

(١) «الأدب التونسي» (ج٢ ص٢٠١ ـ ٢٠٢)، ومجلة «الأزهر» (م٢٩ ص٧٤١).

الشيخ محمد الخضر عضواً عاملاً في إحدى لجان المجمع، وقد مارس هذه العضوية طيلة إقامته بدمشق، ثم أصبح عضواً مراسلاً للمجمع، بعد اضطراره إلى النزوح عن دمشق عقب احتلال الجيش الفرنسي لها في منتصف عام ١٩٢٠م، وقد احتفظ بعضويته هذه إلى آخر أيام حياته[١].

*** حكم بالإعدام:**

ورغم حبه الخاص لدمشق، وتعلقه الشديد بها، وحنينه الدائم إليها، فإن الاستعمار الفرنسي الذي كان قد حارب آماله الوطنية والإصلاحية بتونس، والذي أصدر على الشيخ محمد الخضر حسين حكم الإعدام[٢] غيابياً أثناء قيامه في ألمانيا بتحريض المغاربة ـ والتونسيين منهم خاصة ـ على الثورة ضد المستعمر، هذا المستعمر نفسه، قد أصبح سيداً وحاكماً لدمشق ولسوريا كلها عقب انتصاره على الجيش العربي في موقعة ميسلون الشهيرة حول مشارف دمشق يوم ٢٤ جويلية ١٩٢٠[٣].

*** هجرة جديدة:**

وهكذا لم يكن أمام الشيخ الخضر إلا أن يترك دمشق، وأن يفر من الطغاة المستعمرين حتى لا ينفذوا فيه حكم الإعدام، ويشفوا غليلهم منه[٤].

---

(١) راجع عن علاقته به، وعضويته فيه: كتاب «تاريخ المجمع العلمي العربي» لأحمد الفتيح.

(٢) جريدة «الدعوة»، في استجواب أجرته مع الشيخ إثر توليه مشيخة الأزهر، عدد ٣٠ صفر ١٣٧٢هـ.

(٣) انظر عن هذه المعارك ونتائجها: كتاب «يوم ميسلون» لساطع الحصري.

(٤) لم نجد حتى الآن أي وثيقة تثبت صدور هذا الحكم عليه، ومكان صدوره، والنص =

بارحها وهو يردد أسفه وحنينه قائلاً:

كـأني دينـار ودمـشق راحـة ... تعـودت الإنفـاق طـولَ حياتهـا
فكم سمحت بي للنوى عقب النوى ... ولم أقض حق الأنس بين سـراتها

فارق دمشق، وفارق أهله فيها.. وانطلق إلى مصر أمله الأخير، وهدفه القديم، وبذلك بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته.

*** المرحلة الثالثة:**

وفي مصر بدأ حياته من جديد معتمداً على أصدقائه من الوطنيين المصريين الذين تعرف عليهم في دمشق والآستانة وفي أوروبا[1]، ومعتمداً بوجه خاص على مواهبه وكفاءاته الأدبية والعلمية والدينية العالية.

وليس غريباً أن يظل في مصر مغموراً بعض الوقت، ريثما يتعرف إلى أحوالها ورجالاتها، ويدرك أهلُ الشأن فيها مكانته وقيمته.

ومن هنا كان عليه أن يجد لنفسه عملاً ـ مهما كان ـ؛ ليضمن سد حاجاته الضرورية، حتى لا يكون عالة على أحد، وهو من نعرف: شهامة نفس، وعفة لسان وقلب ويد.

وكان العلامة البحاثة أحمد تيمور[2] أول من قدر في شيخنا علمه وأدبه،

= الوحيد الصريح في ذلك هو تصريح للشيخ أدلى به لجريد «الدعوة»، ونشرته في عدد ٣٠ صفر ١٣٧٢هـ.

(١) من هؤلاء محب الدين الخطيب الذي هاجر إلى مصر من دمشق. وعن هجرتهما انظر: مجلة «الأزهر» (م٢٩ ص٧٤١)، وقد انفرد الخطيب بذكر أن الخضر فكر في العودة لتونس، ثم قرر الهجرة إلى مصر؟!

(٢) راجع ما كتبه تيمور عن الخضر في كتاب «أعلام الفكر الإسلامي»، وما كتبه =

فأمده بكل رعاية وعناية ومساعدة. وقد ظلت العلاقة وثيقة بينهما إلى آخر أيام تيمور الكبير عام ١٩٣٠، وبقيت بعد ذلك بين شيخنا وبين عائلة تيمور، ويكفي دليلاً على ذلك: أن الشيخ محمد الخضر حسين لما توفي في القاهرة مطلع عام ١٩٥٨ وقع دفنه في تربة آل تيمور بوصية منه، وباتفاق سابق مع أسرة تيمور.

*** بداية متواضعة:**

قلت: إن الشيخ الخضر بدأ حياته في القاهرة معتمداً على نفسه، فاشتغل مصححاً بدار الكتب المصرية، وهي وظيفة صغيرة العنوان، ولكنها كبيرة الدلالة؛ إذ لا يكلف بها إلا من ثبتت مقدرته العلمية، وكفاءته الأدبية واللغوية.

ومع ذلك، فإن الشيخ الخضر لم يكن يرضي طموحه، ولا يساوي علمه هذا المنصب رغم دلالته الكبيرة، لهذا نشط في ميادين أخرى، منها: الكتابة في المجلات، والمحاضرة في الجمعيات، والدروس في المساجد. ولم يكن في كل ذلك إلا مجاهداً في سبيل العلم والإسلام والوطن.

وقد وجه اهتمامه منذ البداية إلى تنظيم شؤون الجالية المغربية في مصر، فأسس عام ١٩٢٣ (جمعية تعاون جاليات شمال أفريقيا)، وكان يرأس هذه الجمعية بنفسه، وهدفها رفع مستوى تلك الجاليات من الناحيتين الثقافية والاجتماعية.

= الخضر عن تيمور في «الهداية الإسلامية»، وفي «ديوانه»، وعن الشخصيات المصرية التي تعرف عليها الخضر بأوروبا والآستانة «حاضر العالم الإسلامي» (ط٣ ج٤ ص٣٧٨).

*** فرصة العمر:**

وفي عام ١٩٢٥م صدر في مصر كتاب أثار فيها وفي العالم العربي ضجة كبرى هو كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، وكان هدف هذا الكتاب إبعاد منصب الخلافة عن الملك فؤاد ملك مصر يومئذ، فقد ألغى مصطفى كمال ـ محرر تركيا وبانيها الجديد ـ الخلافة العثمانية، وطرد السلطان التركي الذي كان خليفة للمسلمين، فبدأ أذناب الملك فؤاد يروجون فكرة انتخابه خليفة، وكان قصدهم من هذا: الحصول على زعامته للعالم الإسلامي، وما في هذه الزعامة من مكاسب أدبية ومادية وسياسية.

وكان الأحرار من المصريين بالمرصاد من هذه المحاولة، فتولى علي عبد الرازق إصدار كتاب في بيان أن الخلافة ليست ضرورية لقيام حكومات إسلامية حديثة، وأنها أصلاً ليست من الدين في شيء.

وكان من الواضح أن كتابه لن يرضى عنه أنصار الملك فؤاد، وبالأحرى: الملك نفسه، كما لن يرضى عنه معظم شيوخ الأزهر ورجال الدين في مصر؛ لأسباب دينية وفكرية معروفة.

وهكذا تصدى للرد عليه كثير من رجال الدين، وشيوخ الأزهر في مصر، بل وفي غيرها من البلاد العربية(١).

وكالعادة فإن تهمه الإلحاد كانت أولى التهم الموجهة لعلي عبد الرازق.

وهنا وجد الشيخ الخضر فرصته المنتظرة، فتصدى للرد عليه، بكتاب

(١) من هذه الردود: رد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

سماه: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»[1].

وقد بادرت هيئة كبار العلماء الأزهريين إلى طرد الشيخ علي عبد الرازق من صفوفها، كما حوكم الكتاب، وصودر من الأسواق.

*** ضد طه حسين:**

وما كادت الضجة حول هذا الكتاب تهدأ بعض الشيء، حتى ظهر في مصر كتاب آخر، أثار أيضاً ضجة أشد من الكتاب الأول، وقد وضعه أيضاً شيخ أزهري سابق، استطاع ـ رغم فقده لبصره ـ أن يشق طريقه نحو ثقافة عصرية أوروبية جديدة، وأن ينال في خلال خمس سنوات شهادة الدكتوراه في الآداب مرتين، وأعني به: الدكتور طه حسين، الذي أصدر عام ١٩٢٦ كتاب «في الشعر الجاهلي».

وقد تصدى له كثير من الأدباء ورجال الدين بالرد أو التكفير، وكان من بين الرادين: شيخنا محمد الخضر حسين الذي نقض كتاب طه حسين بكتاب يساويه حجماً وصفحات وتبويباً[2]، وسماه: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» الذي أعيد نشره مراراً بعد تعديله تحت اسم: «في الأدب الجاهلي».

وكلا الكتابين قفزا بالشيخ الخضر إلى الصف الأول بين أدباء مصر وعلمائها، فأخذت شهرته تنتشر، ومكانته ترتفع بسرعة كبيرة.

وكان من الواضح أن رده على كتاب الخلافة، أدى إليه خدمة كبيرة

---

(١) أهدى الشيخ الخضر لصديقه أحمد تيمور القلم الذي كتب به الكتاب مع أبيات ضمنها نضاله عن الحق، مستعيناً في ذلك بخزانة تيمور: «الديوان» (ص٨١).

(٢) وللشيخ الخضر ردود عليهما في موضوعات أخرى.

في القصر الملكي؛ مما جعله يتقلد المناصب، ويحظى بتقدير ذوي الشأن بصفة ظاهرة، كما منح الجنسية المصرية[1]، التي هي مفتاح الدخول إلى سلك الوظائف العمومية.

* **تفسير مواقفه:**

وفي الواقع، فإن الشيخ الخضر لم يكن مدفوعاً للرد على علي عبد الرازق وطه حسين بدوافع شخصية بقدر ما كان مدفوعاً بعقائده الدينية والأدبية؛ فقد رأيناه من قبل نشأ في بيئة علمية واجتماعية وسياسية تؤمن بالخلافة كرابطة للمسلمين، وكمبدأ من مبادئ الإسلام في الحكم؛ كما رأيناه بعد هجرته من تونس يكون في خدمة هذه الخلافة، رغم ما كان يعتريها من الفساد في الحكم، والانحراف عن الدين؛ كما ذكر ذلك الشيخ نفسه في بعض قصائده[2].

وعلى ذلك، فإنه لا يمكن أن نصف ردوده على طه حسين، وعلى علي عبد الرازق إلا بأنها ردود عقائدية.

والحق أن الشيخ الخضر كان في ردوده عليهما أكثر اعتدالاً، وأقرب إلى المنهج العلمي من أي كاتب آخر تصدى للرد عليهما.

وإذا كان قد استفاد من عمله هذا فوائد خاصة، فإنه لم ينل شيئاً أكثر من علمه، أو فوق ما يستحق.

---

(١) لم نعثر حتى الآن على التاريخ الرسمي لحصوله عليها. لكن صاحب مجلة «العالم الأدبي» نشر خبراً عنها في عدد (٩/ ٥/ ١٩٣٢) يفيد حصوله عليها في نفس السنة. ويبدو لي أنه حصل عليها قبل هذا التاريخ بسنوات.

(٢) «الديوان» (ص٦١).

*** مدرساً بالأزهر:**

وفي عام ١٩٢٨ تولى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي، فسعى إلى قبول الشيخ الخضر أستاذاً في كليات الأزهر، وكان الشيخ الخضر قد اجتاز امتحان شهادة العالمية بتفوق، ومنح الجنسية المصرية، وأصبح بذلك أحد شيوخ الأزهر، ومن علمائه البارزين، وكان قبل هذا التعيين مدرساً في معاهد الأزهر الثانوية. وقد تقدم الشيخ محمد الخضر حسين ـ فيما بعد، وعلى التحديد ١٩٥٠ ـ إلى هيئة كبار العلماء طالباً قبوله عضواً بينهم، وكانت العضوية لا تكون إلا بشروط، منها: شهادة العالمية، وتقديم بحث علمي ممتاز، فقدم الشيخ الخضر بحثاً مطولاً عن القياس في اللغة[1]، فقبل بالإجماع، وأصبح من كبار علماء الأزهر، ابتداء من عام (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م).

*** العالم المناضل:**

لم يخلد الشيخ الخضر إلى الراحة والاستمتاع بالحياة الخاصة، كما كان شأن معظم علماء الأزهر في القاهرة، والزيتونة بتونس، بل كان جم النشاط، كثير العمل في المجالات الأدبية والاجتماعية والدينية، بل وحتى السياسة.

ففي عام ١٩٢٨ أسس جمعية (الهداية الإسلامية)، وتولى رئاستها، وإدارة مجلتها، والتحرير فيها، كما تولى رئاسة تحرير كثير من المجلات الدينية التي أصدرها الأزهر، مثل مجلة «نور الإسلام»، ومجلة «لواء الإسلام».

---

(١) أصل البحث وضعه في دمشق أثناء فترة إقامته وتدريسه بها، ثم نقحه وطبعه بمصر (١٣٥٣/ ١٩٤٣)، ثم جدده، وتقدم به إلى الهيئة... راجع مجلة «الأزهر» (م٢٩ ص٧٤٤).

كما كان من مؤسسي (جمعية الشبان المسلمين)، وهي جمعية تهتم بإصلاح أخلاق الشبان وتهذيبهم وتكوينهم دينياً وبدنياً وثقافياً.

*** في المجمع اللغوي:**

وفي ديسمبر عام ١٩٣٢ تأسس في القاهرة (مجمع اللغة العربية) بمرسوم من الملك فؤاد. ثم صدر مرسوم ثان في أكتوبر من العام الموالي بتعيين أعضاء المجمع المصريين وغير المصريين[١]، فكان الشيخ محمد الخضر حسين أحد هؤلاء الأعضاء، كما كان من بينهم العلامة التونسي حسن حسني عبد الوهاب[٢].

وكان الشيخ الخضر يوم صدور هذا المرسوم أستاذاً في قسم التخصص بكلية أصول الدين في الجامعة الأزهرية.

*** حب جارف للوطن:**

عقب الحرب العالمية الثانية أسس (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، وكان غرضه منها: التعريف بقضايا المغرب العربي، وجمع شمل أبنائه المهاجرين في مصر، وجعلهم في خدمة بلادهم، مهما كانت ظروفهم وأعمالهم، وبذلك ترى أنه لم ينس وطنه الأول قط، رغم حصوله على الجنسية المصرية، وزواجه بامرأة مصرية، وإقامته الطويلة في الشرق، وفي مصر بوجه خاص.

---

(١) انظر: مجلة «مجمع اللغة العربية» (المجلد الأول ص١٢)، وكتاب «المجمعيون» (ج١ ص١٧، ١٩، ٢٣).

(٢) انظر عن الأعضاء التونسيين في المجمع: الملحق الثقافي لجريدة «العمل» (عدد ٢٤/ ٣/ ١٩٧٢، و٣١/ ٣/ ١٩٧٢).

وليس أدل على ذلك من الأعمال الكثيرة التي قام بها لفائدة قضايا المغرب العربي، ومساندة أبنائه ورجالاته المهاجرين والزائرين.

وها هو يقول لأحد زائريه من أدباء تونس:

أمحدثي رُبيتَ في الوطن الذي ... ربيتُ تحت سمائه وبلغت رشدا

وجنيتَ زهر ثقافة من روضة ... كنتُ اجتنيتُ بنفسجاً منها وودا

هات الحديث فإنني أصبو إلى ... أبناء تونس من صميم القلب جِدّا

وله في حب وطنه، والدفاع عن تونس، بل المغرب العربي كله قصائد كثيرة، تعد من عيون شعره. من ذلك قصيدة بعنوان: (حب الوطن) يقول فيها:

وطني علمتني الحب الذي ... يدع القلب لدى البين عليلا

لا تلمني إن نأى بي قدر ... وغدا الشرق من الغرب بديلا

عزمة قد أبرمتها همة ... وجدت للمجد في الظعن سبيلا

أنا لا أنسى على طول المدى ... وطناً طاب مبيتاً ومقيلا

في يميني قلم لا ينثني ... عن كفاح، ويرى الصبر جميلا

هو ذا طاعنْ به خصمك من ... قبل أن تخترط السيف الصقيلا

*** دفاع عن المغرب العربي:**

وقد ظل دائماً يدافع عن المغرب العربي، ويشيد برجال العلم والكفاح من أبنائه، بل ويفاخر الشرق بهم أحياناً، كما كان يحمل الشرق مسؤولية عدم مناصرته العملية للحركات التحريرية في أقطار المغرب العربي مما يؤدي ببعضها إلى الفشل.

وها هو يذكر كل ذلك عقب زيارته للأمير عبد الكريم الخطابي على

ظهر الباخرة التي كانت ستقله من منفاه في أفريقيا إلى منفاه الجديد في فرنسا، وحين رست هذه الباخرة بميناء السويس عام ١٩٤٧، كان الشيخ الخضر من بين الشخصيات التي زارت الأمير، وأقنعته بطلب اللجوء إلى مصر، والفرار من الأسر.

ها هو يصف بطولة الأمير عبد الكريم، باعتبارها مثلاً من بطولات المغرب العربي، ويحمل الشرق عدم مؤازرته له أيام كفاحه:

قلت للشرق وقد قام على	قدم يعرض أرباب المزايا
أرني طلعة شهم ينتضي	سيفه العضب ولا يخشى المنايا
فأراني بطل الريف الذي	دحر الأعداء فارتدوا خزايا
غضبة حراء هزته لأن	ينقذ المغرب من أيدي الرزايا
شب حرباً لو شددنا أزرها	لأصابت كل باغ بشظايا

وبالإضافة إلى قصائده، وجمعياته، وأعماله الأخرى، كانت مجلة «الهداية الإسلامية» مجلة مغربية واضحة الدلالة؛ في كتابتها، وأبحاثها، ودفاعها عن مختلف المواقف الوطنية والإسلامية والعربية[1].

وقل مثل هذا عن مجلاته الأخرى، وقد شبهه بعض الكتاب المعاصرين بابن خلدون في هجرته إلى مصر، وفي نزعته المغربية، قال:

«لاشك أن محمد الخضر حسين كان علَماً من أعلام الفكر المغربي الإسلامي مكافحاً وطنياً، ومغترباً في سبيل الحفاظ على حرية الكلمة. وأقام ـ كابن خلدون ـ بقية عمره في مصر، ورقي فيها إلى أعلى المناصب، وعمل

(١) «الفكر والثقافة المعاصرة» (ص١٧٦).

في ميدان الإصلاح الإسلامي، واللغوي، وعمل في التدريس والصحافة والكفاح الوطني. ولقد أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء جمعية (الشبان المسلمين). وكانت مجلته وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب العربي وقضاياه، ورسولاً قوياً يستصرخ المشارقة حين يكشف لهم عن مؤامرات الاستعمار، ويدعوهم إلى مقاومة التغريب والتجنيس والفرنسة. فهو منذ أقام في مصر بعد الحرب العالمية الأولى يحمل هذه الرسالة، ويعمل في كل هذه الميادين: الإسلام، واللغة، والكفاح السياسي»[1].

«وكان محمد الخضر حسين مستنيراً، متفتح الذهن، يدعو إلى الإصلاح على أساس قاعدة علمية واضحة، فهو يؤمن بفكر لا يتعصب لقديم، ولا يفتتن بجديد، يعتمد الرأي حيث يثبته الدليل، ويثق بالرواية بعد أن يسلمها النقد إلى صدق الغاية»[2].

*** قمة مجده شيخ للأزهر:**

هذا هو الشيخ محمد الخضر حسين، الذي بلغ في شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ قمة مجده الديني والعلمي حين أصبح شيخاً للأزهر، فكان أول عالم غير مصري يتولى هذا المنصب منذ قرون عديدة خلت[3]. وكان اختياره لهذا المنصب من طرف اللواء محمد نجيب، ومجلس وزرائه، وقد زاره

---

(١) «المرجع نفسه» (ص١٧٣ ـ ١٧٤).

(٢) «المرجع نفسه» (ص١٧٤).

(٣) عن مشيخة الأزهر، وأسماء شيوخه، انظر: كتاب «مساجد ومعاهد» سلسلة الشعب ـ (ج١ ص٦٦ ـ ٦٧).

في بيته ثلاثة وزراء، وأعلموه بهذا القرار[1].

وكان الشيخ الخضر حسين حين تولى هذا المنصب قد شارف الثمانين من عمره، ورغم تقدمه في السن، فقد تحمل أعباء هذه المسؤولية الثقيلة بصبر وحلم اشتهر بهما منذ صباه، كما أهّله لذلك علمه الواسع، وماضيه المجيد في الكفاح الوطني والعلمي والإسلامي والأدبي والاجتماعي، وخاصة نزاهته وعفته، وشخصيته الرصينة المهيبة.

*** دسائس ومنافسات:**

ومنصب شيخ الأزهر تحيط به دائماً الدسائس والمناورات، والحسد والمنافسة. والشيخ الخضر كان يعرف ذلك كله. ولم يكن ـ حين قبل أعباء المنصب ـ ينوي أن يستمر فيه طويلاً، فلا سنّه تسمح له بذلك، ولا مغربيته أيضاً؟! ولكنه أراد أن يحقق أسمى هدف لعالم ديني، جاهد ستين عاماً في سبيل العلم والدين والوطن، وقد حققه. ولما شعر بأن المنافسة المصرية قد بدأت تتحرك بين شيوخ الأزهر، لم يكترث بذلك ـ لاعتماده على مناصرة حكومة اللواء نجيب له ـ رغم اللمز والغمز اللذين قامت بهما صحف معينة في القاهرة[2].

*** استقالته، وفاته:**

ولكن لما أُبعد اللواء محمد نجيب عن الحكم، ونُفي إلى مكان مجهول يوم ٢٠ أوت ١٩٥٣، شعر الشيخ الخضر بأن عليه أن يتنحى باختياره قبل أن

---

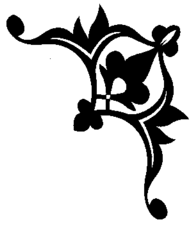
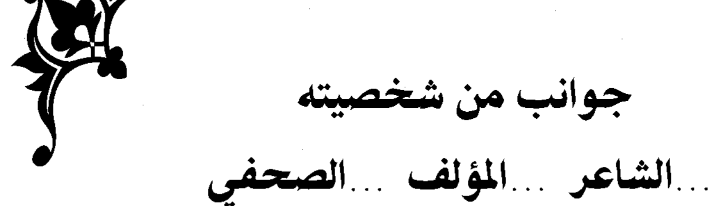
(١) مجلة «الأزهر»، م٢٩ (عدد ٢٠/٢/ ١٩٥٨) (ص٧٤٤).

(٢) منها مجلة «روز اليوسف»، ومجلة «الجيل الجديد».

يحدث شـيء آخر. فاسـتقال من منصـبه في جانفي - يناير - ١٩٥٤م بحجة مرضه، وحاجته إلى العلاج والاستجمام. وقام فعلاً بزيارة شقيقه الشيخ زين العابدين المقيم في دمشق، ثم عاد إلى مصر؛ حيث أقام إلى أن توفي في شهر رجب وشهر فيفري (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، ودفن في تربة آل تيمور... كما أسلفت القول.

وبهذا نكون قد أحطنا بعناصر حياته المدنية والعلمية والوطنية في جميع مراحلها، وفي مختلف ظروفها.



جوانب من شخصيته

...الشاعر ...المؤلف ...الصحفي

* . . . الشاعر:

من أهم جوانب شخصية الشيخ محمد الخضر حسين: شاعريته، وقد مرت بنا خلال الصفحات الماضية نتف من شعره، تدل ـ بعض الشيء ـ على مستوى هذه الشاعرية، وعلى الاهتمامات المختلفة والأغراض المتعددة التي عالجها في شعره.

والواقع أن الخضر حسين ابتدأ حياته الأدبية شاعراً قبل أن يبدأها ناثراً، فنحن نجد آثاره الشعرية الأولى أكثر اهتماماً بالحياة العامة، وأطرف أسلوباً، وأميل إلى التجديد والمطالبة بالإصلاح من نثره.

ولكنه سرعان ما انقلب إلى النثر، فعبر عن جميع قضايا الحياة والمجتمع والفكر، تاركاً للشعر بعض المناسبات الخاصة، والجوانب الأكثر التصاقاً بالعاطفة والوجدان والإخوانيات.

ورغم ذلك، فقد ترك الشيخ محمد الخضر حسين مجموعتين كبيرتين من شعره، تكون كل منهما ديواناً كاملاً.

وقد طبعت المجموعة الأولى تحت عنوان «خواطر الحياة»، عام (١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م).

وأعيد طبعها ثانية عام (١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م)، وشرح هذه الطبعة الشيخ

محمد علي النجار، المدرس بكلية اللغة العربية من جامعة الأزهر، وكان الشيخ الخضر ـ يومئذ ـ يتولى مشيختها.

أما المجموعة الثانية، فما زالت مخطوطة، وإن كان كثير منها منشوراً في الصحف، ويقال: إنها أعدت للطبع، ولكن وفاته حالت دون ذلك، فعسى أن ترى النور مع بقية مؤلفاته الأخرى غير المطبوعة، وأن يتولى ذلك بعض تلاميذه أو أصدقائه، وما أكثرهم في جميع الأقطار[1]!.

*** خواطر الحياة:**

يقع ديوانه في (٢٠٧ صفحة) من الحجم المتوسط، ويحتوي على زهاء مئة وثمانين قصيدة ومقطوعة، وهو قصير النفَس في معظم شعره؛ إذ أن أكثره مقطوعات لا تتجاوز الأبيات الخمس إلا نادراً. على أن هناك قصائد مطولة تصل إلى أربعين بيتاً. ونادراً ما تصل إلى ثمانين أو مئة، كما في موشحه (صقر قريش).

وتدور أغراض شعره بين الوطنيات، والإسلاميات، والرثاء، والوصف، والدعوة إلى النهوض والتحرر من ربقة الجهل والتخلف والحكم الأجنبي، مع عدد من قصائد الوجدان، ثم الإخوانيات.

وإذا نحن أخرجنا الإخوانيات من باب المديح، على اعتبار أنها عواطف مودة وأخوة صادقة، وليست من باب التملق أو الارتزاق بأي حال من الأحوال، فإن شعر الخضر حسين يكون قد خلا من المديح، كما هو

---

(١) ذكر محب الدين الخطيب أن للشيخ ديواناً آخر (في الحكمة والخواطر التي تحوم حول الحق والخير)، وضعه بعد استقالته من مشيخة الأزهر، انظر: مجلة «الأزهر» (م٢٩ ص٧٤٤).

خالٍ من الهجاء، ومن جميع الأغراض التافهة الأخرى، وهذا في حد ذاته ينم عن خلق رفيع، واتجاه نظيف، وكلاهما ليسا بدعاً في أخلاق الرجل، فهو من عرفنا تمسكاً بأخلاق الإسلام، وحرصاً على الاستقامة التامة في حياته وعلاقاته مع الناس.

*** المرأة في شعره:**

يكاد شعر الخضر حسين يخلو تماماً من الحديث عن المرأة، وهو خالٍ تماماً من الغزل.

ولا شك أن اجتنابه الغزل واضح الأسباب، من حيث منزلة الرجل الدينية، وطبيعته الجدية الصارمة، وحرصه البالغ ـ إلى حد التزمت ـ على نظافة حياته، قولاً وعملاً من هذه الشبهات. كل ذلك يفسر خلو شعره من الغزل، ولكن ذلك لم يمنعه من الحديث عن المرأة بما يشبه الغزل. أقول: يشبه الغزل؛ لأنه لم يتغزل فعلاً، وإنما عالج موضوعاً عالجه غيره من الشعراء القدامى، فهو ليس من نوع المعارضات الشعرية، وإنما تضمين لمعنى اشتهر به شاعر قديم، أو محاكاة ومجاراة لقول مأثور في التشبب بالمرأة.

فمن ذلك محاكاته لقول عنترة المشهور:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المبتسم

يقول الخضر حسين:

ولقد ذكرتك في الدجى والجند قد ... ضربوا على دار القضاء نطاقا

وقضاة حرب أرهفوا أسماعهم ... وصدورهم تغلي عليّ حناقا

والمدعي يغري القضاة بمصرعي ويـرى معانـاتي الـدفاع سـياقا
أتـروع أهـوال المنـون متيمـاً جَرَّعْتِـهِ بعـد الوصـالِ فراقـا؟!

وقضاة حرب المتحدث عنهم: قضاة المحكمة العسكرية التي حوكم فيها عام ١٩١٦ بدمشق في عهد حاكمها العثماني جمال باشا السفاح.

ومن هذا القبيل أيضاً: نظمه بيتين في الغزل الشعبي التونسي، يقول الخضر:

خطـرت فـلاح جبينهـا والنـاس غرقـي فـي سـبات
غـرّ الإمـام فخالـه فجـراً وأحـرم بالـصلاة!

أخذه من غزل بدوي تونسي قديم:

جات ظاهرة، نادوا عليهـا وَلـي وأبرق خدها، قام الإمام يـصلي

ولست في حاجة إلى القول بأن البيت الشعبي الدارج أجمل وأبلغ من اجتهاد الشيخ الخضر في «تفصيحه».

على أن شاعرنا يذكر المرأة في غير باب الغزل والنسيب، مـرات قليلة، في مناسبات حزينة أليمة، أولاها: فراقه لزوجته التونسية اضطراراً، حين اعتزم الهجرة إلى الشرق عام ١٩١٢، ووافقت هي على الذهاب معه، ولكن أهلها عز عليهم فراق ابنتهم؛ إذ من يدري؛ لعلها لا تعود أبداً[١].

والطريف أن كلاً منهما ظل يذكر صاحبه بالاحترام والمحبة والثناء، رغم أن كلاً منهما قد تزوج من جديد.

يقول الشيخ الخضر متحسراً على فراق شريكة حياته بالحياة:

---

(١) ترك معها الشيخ ابنته الوحيدة منها، ولم ينجب غيرها من كل زوجاته فيما نعلمه.

جارتي، منذ ضحوة العمر عـذراً لأخـي خطـرة نـأى عنـه بيتـك
قـال يـوم الـوداع وهـو يعـاني سكرة البين: ليتنـي مـا عرفتـك!

وهذا معنى جميل بلا ريب، ويدل على مكارم الرجل، ووفائه وألمه في وقت واحد.

*** رثاء زوجته:**

وبهذه المناسبة نذكر أن الشيخ الخضر قد تزوج في الشرق ثلاث مرات ـ حسبما نعلم ـ ولكنه لم ينجب منهن أولاداً.

إحداها: في دمشـق أثناء إقامته بها، في سـنوات (١٩١٢ ـ ١٩٢٠)، والثانية: في مصر، من عائلة النجمة القاطنة بمنطقة الهرم. وقد توفيت زوجته هذه بعد عِشرة دامت زهاء ثلاثين عاماً، فرثاها بقصيدة، يقول فيها:

أعاذل غض الطرف عن جفني الباكي فخطب رمى الأكباد مني بأشـواك
ولـي جـارة أودى بهـا سـقم إلـى نوى دون منآهـا المحـيط بـأفلاك
أجـارة هـذا طـائر المـوت حـائم ليذهب من زهـر الحيـاة بمجنـاك
حنانيك هل سـاءتك منـي خليقـة فأنكرت دنيانـا وآثـرت أخـراك؟!
وكنت أعزي النفس من قبل أنني أمـوت قريـر المقلتـين بمحيـاك
ولـم أدر مـا طعـم المنـون فذقتـه مساء لفظتِ الروح والعينُ ترعـاك
فهيهات أن أنساك ما عشت والأسى يموج بقلبي ما جرت فيـه ذكـراك

*** زوجة جديدة:**

كانت وفاة السالفة عام ١٩٥٣، وهو شيخ للأزهر، فاضطر إلى الزواج من قريبة لها صغيرة السن؛ مما جعل الصحافة المصرية تلمزه بذلك، وتتخذ

من هذا الزواج غير المتناسب عمراً مغمزاً لمآرب أخرى.

وقد حقق لي ـ شخصياً ـ صديقه الوفي العلامة الشيخ محب الدين الخطيب بأن الشيخ الخضر كان «لا يحب أن يكون أعزب»، وليس من شك ـ عندي ـ في أن الشيخ الخضر قد اضطر للزواج، ومن قريبة زوجته بالذات، للأسباب التالية:

١ ـ ما ذكره الشيخ الخطيب من أنه لا يحب أن يكون أعزب.

٢ ـ لكبر سنه، وحاجته إلى شريكة حياة ترعاه، وتحدب عليه، وتقوم بشؤونه في ساعة المرض أو الشدة.

٣ ـ أنه لم ينجب أولاداً، وليس له أي قريب أو قريبة في مصر، مما يخفف عنه مشاعر الوحدة والوحشة والانفراد في شيخوخته.

٤ ـ وأنه ـ في رأيي ـ إنما تزوج قريبة زوجته؛ لأنها كانت مطلعة على حياته العائلية، فهي بمثابة القريبة، كما وأن أهل الزوجة سهّلوا ذلك له، وشجعوا عليه؛ حرصاً منهم على صيانة حياة الشيخ، وتوفير الراحة والهناء النفسي له، وهم أقرب الناس إليه، وألصقهم به، وأكثرهم إدراكاً لمتاعبه ومشاغله وظروفه.

وعلى هذا، فلم تكن زوجته الجديدة زوجه بالمعنى الحسي، بل كانت ممرضة، وراعية لحياة الشيخ في تلك المرحلة الخاصة من شيخوخته.

وهكذا يمكن القول ـ باختصار ـ بأن الشيخ الخضر لم يوافق على الزواج إلا بسبب وحدته وغربته وشيخوخته، تلك الشيخوخة التي تحتاج لمن يرعاها، ويحنو عليها، وليس كالزوجة الوفية البارة راعياً وحانياً.

*** رثاء والدته:**

في سنة (١٣٣٥هـ ـ ١٩١٦م) فقد الشيخ والدته، فرثاها بقصيدة يقول فيها:

قطّب الدهر فأبديت ابتساما ... وانتضى الخطب فما قلت سلاما

لست أدري أن في كفيك يا ... دهر رزءاً يملأ العين ظلاما

لست أدري أنك القاذف في ... مهجتي ناراً ومذكيها ضِراما

فإذا العين ترى عن كثب ... كيف تلقى نفسي الأخرى حِماما

يا سقاة الترب ماء هاكم ... عبراتي إن في الجفن جماما

أفلا يبكي الفتى نازحة ... سهرت من أجله الليل وناما

«بنت عزوز» لقد لقنتنا ... خشية الله وأن نرعى الذماما

ودرينا منك أن لا نشتري ... بمعالينا من الدنيا حطاما

ودرينا منك أن الله لا ... يخذل العبد إذا العبد استقاما

ودرينا كيف لا نعنو لمن ... حارب الحق، وإن سل الحساما

كنت نوراً في حمانا مثلما ... نجتلي البدر إذا البدر تسامى

كان لي منك إذا أشكو النوى ... كتب تحمل عطفاً وسلاما

فادخلي في سلف قمتِ على ... هديه الحق وأحسنت القياما

واسعدي نزلاً إلى الملقى إلى ... يوم لا نخشى على الأنس انصراما

من هذه الأبيات، ومن كامل القصيدة نحسّ بصدق العاطفة، وحرارة الإحساس، ودفق الشاعرية، وصفاء التعبير. وهي خصائص لم نجدها واضحة في رثاء زوجته، وهذا دليل على بره بالأمومة، وعلى تباين الظروف التي فقد

فيها أمه أولاً، وهو في كهولته، وزوجته ثانياً، وهو في شيخوخته، وربما كان الحرج الديني هو الحاجب لعواطفه نحو زوجته، بينما كان الواجب الديني هو المحرك لعواطفه ـ فوق دوافعه الإنسانية ـ للبر بوالدته.

* . . . المؤلف:

مؤلفات الشيخ محمد الخضر حسين كثيرة العدد، غزيرة المادة، متنوعة الموضوعات.

ولئن كان معظمها بحوثاً ومحاضـرات دينية وإسـلامية، فإن بحوثه ومحاضراته في اللغة والأدب والنقد، وبعض جوانب التاريخ العامة كثيرة هي الأخرى.

ولعل أبرز مجال ظهرت فيه شخصيته هو مجال النقد المدعم بالنصوص والحجج الأدبية والتاريخية واللغوية.

ومن أبرز أعماله في هذا الميدان كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، وكتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لطه حسين، فكلاهما كان سبب شهرته في مصر، واقتعاده مكاناً سامياً بين أقرانه من شيوخ الأدب ورجاله في القاهرة.

وتأتي بعد ذلك بحوثه اللغوية التي كان فيها مرجعاً وأستاذاً لا يجارى. وقد أعانته على النجاح في هذا المجال حافظته القوية جداً، وعنايته بالمراجعة والمقارنة. . مما جعله باحثاً مقتدراً بين زملائه، وأعطى لآرائه قيمة خاصة لدى المعنيين بالدراسات اللغوية[١].

---

(١) انظر بوجه خاص: مجلة «الفكر» الكويتية، (مجلد ١ ع٣) (أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٧٠) (ص١٩٤ ـ ١٩٦).

وفي مجال البحث الأدبي القائم على التحليل والمقارنة، كان له فضل السبق إلى بحث موضوع طريف ومبتكر.. هو موضوع «الخيال في الشعر العربي»، فلست أعلم أن أحداً قبله عالج هذا الموضوع، وخاصة بشكل كتاب كامل ومستقل. وحتى صاحبنا الشهير (أبو القاسم الشابي) في كتابه: «الخيال الشعري عند العرب» كان متأخراً عنه، مترسماً خطاه، وإن لم يقلده، أو يجاريه في شيء مما ذهب إليه.

أما موضوعاته الدينية والإسلامية بوجه عام، فإنه كان يعتمد فيها مذهب السلف، وتمجيد أعمالهم، والتنويه بخصالهم، واعتبارهم المنار الذي لا يستنار إلا به.

لذلك تراه يكاد لا يخرج عما ذهبوا إليه، أو اجتهدوا فيه. وهذا لا يعني أن الرجل كان جامداً، أو محافظاً، أو متعصباً لكل قديم.. وإنما كان يميل إلى الاعتماد على السلف، والاهتداء بهم وبآرائهم قبل غيرهم. لكنه كان ـ مع ذلك ـ يمتاز عن كثير من أمثاله الشيوخ بالتفتح والتبصر لفهم آراء غيره، ومناقشتها بهدوء ـ عُرف به ـ والرد عليها ـ عند اللزوم ـ بالحجة والنص، وإعمال الرأي.

وفي هذا الصدد يقول أحد مترجميه:

«كان محمد الخضر حسين مستنيراً، متفتح الذهن، يدعو للإصلاح على أساس قاعدة علمية واضحة[1]. وهو يؤمن بفكر لا يتعصب لقديم، ولا يفتتن بجديد. يعتمد الرأي حيث يثبته الدليل، ويثق بالرواية بعد أن

---

(١) هي القاعدة السلفية.

يسلمها النقد إلى صدق الغاية»[١].

وأشهد أن الرجل، كباحث وناقد، كان رجلاً عفيف القول، نظيف اللسان، معتدل اللهجة. ولا تستطيع أن تقدر فيه هذه الخصال حق قدرها إلا إذا قرأت ردوده على طه حسين، وعلي عبد الرازق، وقرأت أيضاً ردود غيره عليهما.

والواقع أن جوانب فكره ومؤلفاته خصبة ومتعددة، ولا تستطيع هذه العجالة أن تعطيه حقه، وتوضح معالم شخصيته. وإلى أن نفعل ذلك في طبعة قادمة، نكتفي هنا بعرض مدقق لجميع ما وصلنا وتعرفنا عليه من بحوثه ومؤلفاته المطبوعة. ملاحظاً قبل ذلك ما يلي:

أولاً: أنه بدأ يحاضر ويكتب في الصحافة منذ سنة ١٩٠٤، واستمر إلى سنة ١٩٥٨، فالمدة تستغرق ٥٤ سنة على الأقل؛ أي: أكثر من نصف قرن. يضاف إلى ذلك أنه كان غزير الكتابة، كثير البحث، دائب النشاط، وهو أمر نادر جداً بين أقرانه ومعاصريه من الشيوخ[٢].

ثانياً: أن معظم إنتاجه من بحوث ومحاضرات ما زال متناثراً في المجلات والصحف التي نشر فيها. ورغم الجهد الطيب الذي قام به حفيده للأخ الأستاذ علي الرضا الحسيني المحامي بدمشق، فإن ما لم يجمع من آثاره أكثر مما جمع. ولعل عناية حفيده تتواصل حتى تشمل ما بقي.

ثالثاً: القائمة التي سنذكرها تشمل كل ما وصل إليه علمنا من كتب

---

(١) أنور الجندي: «الفكر والثقافة المعاصرة في الشمال الأفريقي» (ص١٧٤).

(٢) يماثله في هذا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

ورسائل مطبوعة، مرتبة بحسب تاريخ طبعها للمرة الأولى، مع ذكر الطبعات الموالية إن كانت.

رابعاً: إن الطبعات التي أشرف عليها حفيده للأخ ـ التي تمت كلها بعد وفاة الشيخ ـ لم يكن معظمها على النسق الذي وضعه مؤلفها. فقد تصرف الناشر في بعض العناوين، وفي المحتوى، وعمد إلى تكديس كتب على كتب، أو جمع مقالات ومحاضرات إلى كتاب سبق طبعه مستقلاً. وقد نتج عن هذا عسر هضم لدى الباحثين.

وكنا نفضل لو سلك حفيده مسلكاً آخر يقوم على ما يلي:

أ ـ نشر كتبه القديمة كما هي في طبعاتها الأولى.

ب ـ جمع المحاضرات والبحوث الصغيرة ـ ما طبع منها وما لم يطبع ـ في كتاب متعدد الأجزاء، كما فعل المؤلف نفسه في كتابه «رسائل الإصلاح»، وكما فعل الناشر ـ مشكوراً ـ في كتاب «دراسات في العربية وتاريخها»[1].

ج ـ جمع المقالات في كتاب مستقل متعدد الحلقات، تخصص كل حلقة بموضوع عام.. ديني، أدبي، اجتماعي، وطني. مع الإشارة دائماً إلى مكان النشر الأول، وتاريخه، وملابساته إن وجدت.

خامساً: وعلى ذلك، فإننا سنذكر **أولاً**: الكتب التي طبعت بالنسق الأول؛ أي: في حياة المؤلف، **وثانياً**: الكتب التي ذكرها الباحثون، أو ورد ذكرها في المراجع، أو أعلن عنها في غلاف كتبه المطبوعة، ولكننا لم

---

(١) رأينا الطبعة الثانية منه، مؤرخة بسنة ١٩٦٠، ولسنا نعلم هل توجد طبعة أولى قبلها، أم أن الناشر اعتبر جميع ما طبع مفرقاً طبعة أولى!.

نرها، **ثالثاً**: الكتب التي تولى حفيده للأخ نشـرها، على الصورة والعناوين التي نشرها بها.

أولاً ـ كتب النسق الأول:

١ ـ حياة اللغة العربية:

محاضرة ألقاها بنادي الجمعية الخلدونية مساء يوم السبت (١١ شوال ١٣٢٧، وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٠٩) ـ طبعة أولى بالمطبعة التونسية، ١٩٠٩، ص (٦٠).

٢ ـ الحرية في الإسلام:

محاضرة ألقاها بنادي جمعية قدماء تلامذة الصادقية مساء يوم السبت (١٧ ربيع الثاني ١٣٢٤)، وهو يومئذ القاضي بمدينة «بنزرت».

ـ طبعة أولى بالمطبعة التونسية ١٩٠٩، ص (٦٤).

ـ طبعة ثانية بالأوفست تونس ١٩٧٢، ص (٦٤).

٣ ـ الدعوة إلى الإصلاح:

رسالة طبعت بتونس على نفقة السيد العروسي بن الحسين.

ـ طبعة أولى بالمطبعة العربية بتونس ١٩٠٩، ص (٤١).

ـ طبعة ثانية بالمطبعة السلفية القاهرة (١٣٤٦/ ١٩٢١)، ص (٨٤).

٤ ـ الخيال في الشعر العربي:

ـ طبعة أولى بنفقة عناية المكتبة العربية في دمشق، طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٢، ص (٩١).

ـ طبعة ثانية بإشراف حفيده، مضافاً إليها بحوث أدبية أخرى. دمشق ١٩٧٢ من (ص٥ ـ ٧٢).

٥ ـ نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم»:

الأصل للشيخ علي عبد الرازق.

ـ المطبعة الأولى بالمطبعة السلفية في القاهرة (١٣٤٤/ ١٩٢٥)، ص (٤ ـ ٢٥٢).

٦ ـ نقض كتاب «في الشعر الجاهلي»:

والأصل للدكتور طه حسين.

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية في القاهرة (١٣٤٥/ ١٩٢٦)، ص (٧ ـ ٣٦٤).

٧ ـ الخطابة عند العرب:

محاضـرة ألقاها في نادي (جمعيـة الشـبان المسـلمين) مساء الأربعاء ٥ ذي الحجة ١٣٤٦.

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٤٦/ ١٩٢٧)، ص (٢٨).

ـ الطبعة الثانية، نشرها حفيده مضافة إلى كتاب «الخيال في الشعر العربي» ص (١٤٦ ـ ١٦٤) طبع دمشق ١٩٧٢.

٨ ـ العظمة:

محاضرة ألقاها في دار (جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية) يوم الجمعة ٢٦ ربيع الثاني (١٣٤٦/ ١٩٢٧).

وقد تضمنت الرد على مقالة علي عبد الرازق التي كان نشرها في جريدة «السياسة» يوم ١٢ ربيع الأول بمناسبة ذكرى المولد الشريف.

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٤٦/ ١٩٢٧)، ص (٢٨).

ـ الطبعة الثانية نشرها حفيده مضافة لكتاب «محمد رسول الله وخاتم

النبيين»؛ لعلاقتها به. ص (١٤٠ ـ ١٥٤) طبع دمشق ١٩٧١ .

٩ ـ علماء الإسلام في الأندلس :

محاضرة ألقاها في نادي (جمعية الشبان المسلمين) باسم (جمعية الهداية الإسلامية) مساء الأربعاء ١٨ ذي الحجة (١٣٤٦ / ١٩٢٧).

ـ المطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٤٧ / ١٩٢٨)، ص (٣٢).

١٠ ـ ثلاث محاضرات :

ألقاها في نادي (جمعية الشبان المسلمين).

١ ـ السعادة عند بعض علماء الإسلام، ص (٤ ـ ١٤).

٢ ـ محمد ﷺ، ومتانة عزمه، ص (١٥ ـ ٢٣).

٣ ـ حياة أسد بن الفرات، ص (٢٥ ـ ٤٣).

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٤٧ / ١٩٢٨)، ص (٤٣).

ـ الطبعة الثانية أعادها الحفيد للمحاضرة الثانية فقط في كتاب «محمد رسول الله»، ص (٧٤ ـ ٧٨)، وللمحاضرة الثالثة في كتاب «تونس وجامع الزيتونة»، ص (٧٠ ـ ٨١) طبع دمشق ١٩٧١ .

١١ ـ طائفة القاديانية :

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية في القاهرة (١٣٥١ / ١٩٣٢).

ـ الطبعة الثانية ضمن «رسـائل الإصـلاح» الآتي ذكره (ج٣ ص١٠٧ ـ ١٢٥).

١٢ ـ حياة ابن خلدون، ومثل من فلسفته الاجتماعية :

ـ محاضرة ألقاها بتونس قبيل هجرته، وأعادها بالقاهرة في (جمعية

تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) مساء يوم الجمعة ٥ صفر (١٣٤٣/ ١٩٢٤)، وطبعت في نفس السنة بالمطبعة السلفية، ص (٤٨)، وأعاد نشرها حفيده في كتاب «تونس وجامع الزيتونة»، ص (٤٤ ـ ٩٦) طبع دمشق ١٩٧١.

١٣ ـ القياس في اللغة العربية:

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٥٣/ ١٩٣٤)، ص (١١٧).

ـ الطبعة الثانية نشرها حفيده ضمن كتاب «دراسات في العربية وتاريخها»، ص (٥ ـ ١١٢) طبع دمشق ١٩٦٠.

١٤ ـ رسائل الإصلاح:

كتاب متعدد الأجزاء جمع فيه جملة كبيرة من بحوثه ودراساته في الدين والأخلاق وغيرهما. وقد جعله أربعة أقسام هي: ١ ـ قسم الأخلاق والاجتماعيات، ٢ ـ قسم المباحث الدينية من أصول الدين وأصول الفقه والأحكام العلمية، ٣ ـ قسم السيرة النبوية، وتراجم الرجال والبحوث التاريخية، ٤ ـ قسم مباحث اللغة والآداب[1].

وقد نشر منه في حياته ثلاثة أجزاء تدور كلها في القسمين الأول والثاني.

ـ الجزء الأول، مطبعة الهداية الإسلامية بالقاهرة (١٣٥٨/ ١٩٣٨)، ص (٤ ـ ٢٤٠)، وقد أعاد الحفيد طبع هذا الجزء بعد أن حذف وأضاف له موضوعات من الجزء الثاني، وأبقى على عنوانه كما هو. طبع دمشق ١٩٧١، ص (٢٤٠).

---

(١) مقدمة الجزء الأول.

ـ الجزء الثاني، مطبعة حليم بالقاهرة، بلا تاريخ، ص (٢٣١). وقد نقل منه الحفيد موضوع «أديان العرب قبل الإسلام» إلى كتاب «محمد رسول الله»، وموضوعات أخرى إلى الجزء الوحيد الذي نشره باسم «رسائل الإصلاح»، كما نقل موضوع التصوف إلى كتاب «الشريعة الإسلامية» ص (١٧٤ ـ ١٩٠).

ـ الجزء الثالث، نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة (١٣٥٨/ ١٩٣٩)، ص (١٦١).

وقد أعاد الحفيد بعض موضوعاته في كتاب سماه «الشريعة الإسلامية» ص (٥ ـ ٥١)، و(٩٢ ـ ١١١).

١٥ ـ خواطر الحياة:

ديوان شعر ضم مجموعة كبيرة من قصائده ومقطوعاته.

ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٦٦/ ١٩٤٦).

ـ الطبعة الثانية، عليها تعليقات بقلم الشيخ محمد علي النجار. المطبعة السلفية (١٣٧٣/ ١٩٥٣)، ص (٢٠٧).

١٥م ـ تونس تحت الاحتلال:

رسالة كتبها ونشرها سنة ١٩٤٨ بمناسبة مرور ٦٧ سنة من فرض الحماية والاحتلال الفرنسي على تونس، وأصدرتها (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) التي كان يرأسها. وكان الأمير عبد الكريم الخطابي رئيساً شرفياً لها.

وعنوان الرسالة الكامل هو «تونس ـ ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي ١٨٨١ ـ ١٩٤٨»، وهي بمثابة تقرير عام عن سياسة فرنسا الاستعمارية بتونس في جميع الميادين السياسية والدستورية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

ـ الطبعة الأولى: القاهرة ١٩٤٨، ص (٣٤)، وقد ختم الرسالة بقوله:

«ما زالت الحركات السياسية الوطنية في تونس تنهض مرة بعد أخرى، وترفع صوت الأمة عالياً بمطالبها المشروعة من أعلى المنابر، وتعقد المظاهرات لذلك، وتضرب البلاد عن الأعمال في كل مناسبة، وتقدم احتجاجات ضد كل تشريع أو تصرف يتصادم مع أهدافها الوطنية في الاستقلال التام، ولهم في جهادهم مواقف حفظها لهم التاريخ، وكم تعرضوا في هذا الجهاد لمصادمة الاستعمار لهم بالحديد والنار، وابتلوا بالاعتقال والسجن والإبعاد إلى أطراف القطر وخارجه، ونكبوا في أموالهم بالتغريم، وكانوا يحتملون ذلك الأذى، ويقابلونـه بالتجلد والتصميم على العمل لخير وطنهم وحريته، حتى انتهت الأمة في هذا الدور الأخير إلى توحيد كفاحها وهدفها منه في المؤتمر الوطني العام الذي انعقد في ٢٧ رمضان سنة ١٣٦٥ هجرية، ونحن نختم هذه المذكرة بنشر مقررات ذلك المؤتمر فيها إثباتاً لتاريخ توحيد العمل والاتجاه».

وبعد أن أورد مقررات المؤتمر المذكور، والتي تضمنت إعلان إفلاس سياسة الحماية، وضرورة اتحاد الشعب لتحقيق الاستقلال، ختم الرسالة بقوله (ص٣٤):

«هذا هو الهدف الذي أضحت الأمة التونسية تعمل لتحقيقه، معرضة عن كل سياسة لا تتفق معه، أو تناقضه. . .».

ثانياً ـ كتب ذكرتها المراجع:

١٦ ـ تعليقات على كتاب «الموافقات»:

طبعت بهامش كتاب «الموافقات»، وهو كتاب «في أصول الأحكام، تأليف الإمام أبي إسحاق اللخمي الشاطبي المتوفى سنة (٧٩٠/ ١٣٨٨)،

وعليه تعليقات للشيخ محمد الخضر بن الحسين التونسي، والكتاب يقع في أربعة أجزاء في مجلدين، المطبعة السلفية سنة (١٣٤١/ ١٩٢٣)[1].

١٧ ـ مدارك الشريعة الإسلامية:

ذكره سركيس في «معجمه» (ص١٦٥٢) قائلاً: «مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها، دمشق ١٣٣٠»، ولم يذكر عدد الصفحات. ولكن حفيده أعاد نشرها في كتاب «الشريعة الإسلامية» ص (٥٥ ـ ٧٧)، وذكر في تعليق ص٥٥: إنها محاضرة ألقاها المؤلف بنادي جمعية قدماء الصادقية بتونس يوم السبت ١٨ جمادى الثانية ١٣٣١، وطبعت في رسالة.

وعلى هذا تكون آخر عمل علمي قام به في تونس قبيل رحيله عنها نهائياً.

ويكون تاريخ الطبع كما ذكره سركيس فيه خطأ. وقد سبق له نشرها تباعاً في مجلة «البدر» ـ المجلد الثاني ج٨ ـ ١٠ (١٣٤٠/ ١٩٢٤).

١٨ ـ مناهج الشرف:

ـ قال سركيس في (ص١٦٥٢): «وهو في الأخلاق ـ مط الترقي ـ دمشق ١٣٣١». ولعل هذا التاريخ هو تاريخ الانتهاء من الكتابة لا الطبع، لوجود عبارة على الكتاب تقول: «للسيد محمد الخضر التونسي أستاذ آداب اللغة العربية والفلسفة الإسلامية بالمدرسة السلطانية.. تم تحريره في جمادى الثانية ١٣٣١»، وهو الصحيح؛ إذ أنه كان في هذا التاريخ بتونس، ولم يستقر بعد في دمشق، ولا تولى فيها التدريس.

---

(١) فهرست المكتبة اللزامية ببنزرت (ص٧٧)، باب: أصول الفقه رقم ٧.

١٩ ـ الإمتاع فيما يتوقف تأنيثه على السماع:

ـ ذكره محب الدين الخطيب في غلاف عدد من كتب الشيخ الخضر التي تولى نشرها.

ـ ونشره حفيده في كتاب «دراسات في اللغة العربية وتاريخها» الآتي ذكره، ص (٢٥٩ ـ ٢٧٧).

٢٠ ـ آداب الحرب في الإسلام:

ـ ذكره كحالة في «معجم المؤلفين» (ج٩ ص٢٨٠).

٢١ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين:

ذكره كحالة بعنوان «السيرة النبوية».

وذكرت طبعه بالعنوان الأول عائدة إبراهيم نصير في: «الكتب العربية التي نشرت في مصر بين عامي ١٩٢٦ ـ ١٩٤٠» (ص٨٣ رقم ٢/ ١٢١٣).

ـ طبعة أولى ـ إدارة الأزهر ـ القاهرة ١٩٣٣، ص (٤٧).

ـ الطبعة الثانية، نشرها حفيده سنة ١٩١٦، كما أشار إلى ذلك في تعليق (ص٣٨) من الطبعة الثالثة.

ـ الطبعة الثالثة، نشرها حفيده مضافاً إليها محاضرات وبحوث أخرى. طبع دمشق ١٩١٧ ص (٣٨ ـ ٧٣).

٢٢ ـ هدى ونور:

ذكره ناشرو كتبه على غلافها، وخاصة حفيده في سرده لمؤلفات الشيخ.

٢٣ ـ تراجم الرجال:

ذكره بعض مترجميه، وكذلك حفيده.

٢٤ ـ أسرار التنزيل:

ذكره حفيده بما يفيد أنه «تفسير للفاتحة، وسورة البقرة، وبعض آيات من سور: آل عمران، الحج، الأنفال، يونس، صٓ»[١]، ويبدو أن الحفيد جمعه من المجلات، واختار له العنوان.

٢٥ ـ دراسات في اللغة:

ذكره حفيده أيضاً[٢].

٢٦ ـ محاضرات إسلامية:

ذكره حفيده، ولعله ينوي جمع محاضراته الإسلامية في كتاب[٣].

٢٧ ـ دراسات في الشريعة الإسلامية:

ذكره حفيده، ولعله ينوي جمعه مما نشره في المجلات[٤].

٢٨ ـ السعادة العظمى في الإسلام:

ذكره حفيده، ولعله يقصد به مجلته «السعادة العظمى»، وكان يذكرها دائماً بهذا الاسم، ولكنه أضاف مؤخراً: «في الإسلام»[٥].

---

(١) «الخيال في الشعر العربي» ـ طبعه الحفيد ـ (ص٢٠٧)، ولم يشر إلى أنه مطبوع أم لا.

(٢) «المرجع نفسه» (ص٢٠٤).

(٣) «المرجع نفسه» (ص٢٠٤).

(٤) «المرجع نفسه» (ص٢٠٤).

(٥) نفس المرجع والصفحة.

٢٩ ـ تراجم الرجال والبحوث التاريخية:

ذكره حفيده[١]، ولعله يكمل به ما بقي من رسائل في طبعتها الأولى كما أشار إلى ذلك مؤلفها (راجع رقم ١٤).

ثالثاً ـ كتب نشرها حفيده:

٣٠ ـ دراسات في العربية وتاريخها:

جمع فيه طائفة من رسائله وبحوثه المطبوعة في المجلات أو رسائل مستقلة، وضم بالخصوص:

أ ـ القياس في اللغة العربية ص (٥ ـ ١١١). (راجع رقم ١٣).

ب ـ حياة اللغة العربية، ص (١١٢ ـ ١٦٥). (راجع رقم ١).

ج ـ الاستشهاد بالحديث في اللغة، ص (١٦٦ ـ ١٨٠)، وكان المؤلف قد ألقاه في مجمع اللغة، ونشره في المجلد الثالث من مجلة المجمع، ونشره المشرف على جمع «رسائل الإصلاح» (ج٢ ص١٥٨ ـ ١٧٦).

د ـ الإمتاع بما يتوقف تأنيثه على السماع، ص (٢٥٩ ـ ٢٧٧). (راجع رقم ١٩).

هـ ـ موضوعات أخرى نقلها من مصادر غفل عن ذكر معظمها:

ـ طبعة ثانية[٢]، مطابع دار المنار بدمشق ١٩٦٠ ـ ص (٢٨٢)، وهذا الكتاب أحسن عمل قام به الحفيد من حيث التنظيم والإشارة إلى المصدر... إلخ.

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) راجع التعليق رقم ٦٧.

7034

٣١ ـ بلاغة القرآن:

جمعه مما نشر في المجلات، وأشار إلى المرجع في بعض دون بعض.

ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١، ص (٢١٦)، والكتاب بلا فهرست.

٣٢ ـ تونس وجامع الزيتونة:

جمعه مما سبق نشره في المجلات، أو الرسائل الصغيرة، وله علاقة بتونس، وخاصة تراجم عدد من العلماء والمشهورين أمثال: ابن خلدون، وأسد بن الفرات، ومحمود قبادو، وعمر بن الشيخ.

ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١، ص (١٤٦).

وهذا الكتاب عمل جيد، وإن أهمل ذكر مراجع تراجم العلماء، مع أنها منثورة في مجلة «الهداية الإسلامية».

٣٣ ـ الشريعة الإسلامية:

يمثل هذا الكتاب معظم الجزء الثالث من «رسائل الإصلاح» في طبعتها الأولى. (راجع رقم ١٤)، وقد أضاف له جملة مقالات وأبحاث نقلها من مجلات «نور الإسلام»، و«الهداية الإسلامية». وأشار لها في الحواشي.

ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١، ص (٢٢٢).

٣٤ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين:

جمع فيه عدة رسائل، خاصة المرقمة (٨ و١٠ و١٤ و٢٠). أما بحث «أديان العرب» الذي استهل به الكتاب (ص٧ ـ ٣٧)، فمنقول من «رسائل الإصلاح» (ج٢ ص٥٧ ـ ٩٧)، وأضاف للجميع مجموعة مناسبة من المقالات الأخرى.

ـ مطبعة العلم بدمشق ١٩٧١ ص (٢٤٠).

٣٥ ـ رسائل الإصلاح:

في جزء واحد، ضم معظم الجزء الأول، وبعض الثاني من الطبعة الأولى (راجع رقم ١٤).

ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١ ص (٢٤٠).

٣٦ ـ الخيال في الشعر العربي:

جمع فيه كتاب «الخيال»، ومحاضرة: الخطابة عند العرب، ومحاضرات في البلاغة والآداب.

ـ المطبعة التعاونية بدمشق، ط٢ ـ ١٩٧٢، ص (٢٠٣).

*** . . . الصحفي:**

لم يشتغل الشيخ الخضر حسين بالصحافة كمهنة يرتزق منها، ولا انقطع لها كما ينقطع الصحفي المحترف. ولكنه مارسها كرسالة ومنبر للتعبير عن مذهبه في الإصلاح، وآرائه في الدين والحياة والفكر.

وطول ممارسته لها، وتحمله أعباء مسؤوليات كثيرة فيها، منذ فجر شبابه إلى آخر لحظة من حياته، وجب اعتباره صحفياً مناضلاً، ورائداً من رواد الصحافة العربية، وواحداً من بُناتها الأولين.

فبالإضافة إلى ما كتبه ونشره من مئات المقالات والفصول والأبحاث في مختلف الجرائد والمجلات بتونس ودمشق ومصر. وأسس عدداً من المجلات، وساهم في تحرير كثير غيرها، وكان بذلك مؤسساً للصحافة، وصاحب امتياز، ومحرراً، ورئيس تحرير.

وفيما يلي أهم المجلات والجرائد التي عمل بها، أو تولى تحريرها، أو ساهم بالكتابة فيها:

١ ـ مجلة «السعادة العظمى»:

سبق أن قلت: إنه أسس في سنة ١٩٠٤ مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة تأسست وصدرت في تونس[١]، وقد جعلها نصف شهرية، وذات اتجاهين: ديني، وأدبي. ولئن لم يصدر منها سوى ٢١ عدداً، فإن مجموعتها تعتبر مصدراً هاماً لتاريخ الصحافة العربية، وطليعة رائدة للإصلاح وبذوره الأولى بتونس.

ساهمت «السعادة العظمى» ـ برغم عمرها القصير ـ بدور فعال في الحياة التونسية، وكان لها أثر محمود ـ إثر مطلع القرن ـ على الحركات الفكرية والدينية والاجتماعية.

ورغم نزولها إلى الاعتدال ـ كشأن صاحبها دائماً ـ فقد جوبهت بمعارضة عنيفة من طرف شق الجامدين والمحافظين من شيوخ الزيتونة وأمثالهم في الحياة العامة يومئذ.

ولكن عدداً غير قليل من كبار العلماء، وأعيان البلاد والمثقفين، وقفوا إلى جانبها بقوتهم المادية والاجتماعية والأدبية. ومن أبرز هؤلاء: الوزير الأول الشيخ محمد العزيز بوعتور، والشيخ سالم بوحاجب، وحسن حسني عبد الوهاب، ومحمد الطاهر بن عاشور، ومحمد النخلي[٢].

ولعل أهم ما عنيت به المجلة: تأييدها للإصلاح، ودعوتها لتغيير مناهج

(١) فيليب دي طرازي: «تاريخ الصحافة العربية» (ج٤ ص٣٤٨)، و«أركان النهضة» (ص٤٠)، ومجلة «لواء الإسلام» (س١١ ع١١ ص٦٧٥).

(٢) انظر حديثه عن بعض هؤلاء وتشجيعهم له: مجلة «لواء الإسلام» (س١١ ع١١ ص٦٧٥) (فيفري ـ فبراير ـ ١٩٥٨).

التعليم الزيتوني، ومطالبتها بإدخال تدريس الأدب واللغة فيه، ونشرها لأولى محاولات التجديد في الشعر، ودفاعها عن اللغة العربية.

وإذا سلّمنا بما يقوله الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عنها[١]، فإنها كانت لسان جماعة من الشيوخ والعلماء الميالين إلى الاعتدال في تحقيق الإصلاح وبناء النهضة.

٢ ـ مجلة «الشبان المسلمين»:

صدرت سنة ١٩٢٩ شهرية إسلامية أخلاقية، وكان الشيخ الخضر من أبرز مؤسسيها وكتابها. وهي ناطقة باسم (جمعية الشبان المسلمين) التي كان له يد كبرى في تكوينها في نفس السنة.

ورغم إصداره شخصياً مجلة «الهداية الإسلامية»، فإنه لم ينقطع عن الكتابة فيها، والمحاضرة في نادي الجمعية، والمساهمة في نشاطاتها الأخرى.

٣ ـ مجلة «الهداية الإسلامية»:

مجلة إسلامية شهرية، أسسها الشيخ الخضر في القاهرة بعد استقراره بها، وظهور شأنه وصيته فيها.

وكانت المجلة لسان (جمعية الهداية الإسلامية) التي دعا الشيخ إلى تأسيسها سنة (١٣٤٦/ ١٩٢٨)، وتولى رئاستها إلى آخر يوم من حياته[٢].

---

(١) «الحركة الأدبية» (ص٦٢)، وعن علاقتها بالمنار: (ص٦٤).

(٢) انظر: نشرة صغيرة عن تأسيس الجمعية ونظامها الأساسي ومؤسسيها الأولين. والعدد الأول من مجلة «الهداية الإسلامية» الصادر في (جمادى الثانية ١٣٤٧ نوفمبر ١٩٢٨).

وهذه المجلة هي أكبر عمل صحفي قام به؛ لطول حياتها، وتواصل ظهورها، ولإشرافه على تحريرها، واتخاذه لها منبراً وصوتاً ينادي بالإصلاح والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

وإلى جانب ذلك، كانت لسان المغرب العربي في مصر والشرق العربي، مدة ثلاثين سنة، حتى اعتبرت ـ بحق ـ مجلة مغربية تصدر في القاهرة؛ لما كانت تختص به من اهتمام كبير بقضايا المغرب العربي وتاريخه وثقافته وأدبه، وكفاحه التحريري ضد الاستعمار والفرنسة. وعن هذا الدور المغربي بالذات يقول كاتب مصري معاصر:

«كانت مجلة «الهداية الإسلامية» مجلة مغربية واضحة الدلالة، في كتابتها وأبحاثها، ودفاعها عن مختلف المواقف الوطنية والإسلامية والعربية»[١].

٤ ـ مجلة «نور الإسلام»:

مجلة شهرية إسلامية ذات مستوى رفيع في تحريرها وموضوعاتها، وقد أصدرتها مشيخة الأزهر، وعهدت برئاسة تحريرها إلى الشيخ الخضر، واستمر صدورها من سنة (١٣٤٩ إلى ١٣٥٣هـ) ـ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤)، وفي أثناء سنتها الخامسة أبدلتها المشيخة بمجلة جديدة هي:

٥ ـ مجلة «الأزهر»:

وهكذا حلت مجلة «الأزهر» محل «نور الإسلام»، وعهد إلى الشيخ الخضر برئاسة تحريرها، كاستمرار لعمله في المحلة السابقة، ولكنه تخلى عن هذه المسؤولية بعد سنوات قليلة، وإن لم ينقطع عن الكتابة فيها، وعن إصدار مجلته «الهداية الإسلامية».

---

(١) أنور الجندي: «الفكر والثقافة» (ص١٧٦).

٦ ـ مجلة «لواء الإسلام»:

في سنة ١٩٤٥ ـ أصدر صديقه الشيخ العلامة أحمد حمزة مجلة «لواء الإسلام» شهرية دينية ثقافية اجتماعية، وطلب من الشيخ الخضر أن يتولى رئاسة تحريرها، فقبل هذه المسؤولية، واستمر في ذلك إلى أن تولى مشيخة الأزهر سبتمبر ١٩٥٢، وعندها تخلى عن التحرير، واقتصر على الكتابة فيها، وظل كذلك إلى عدد شهر فيفري (فبراير) ١٩٥٨، وهو الشهر الذي توفي فيه[1].

وعن دوره في هذه المجلة يقول مؤسسها:

«ومنذ اتجهنا إلى إنشاء مجلة «لواء الإسلام» نتقدم بها محتسبين النية خدمة لهذا الدين الحنيف، وبياناً لحقائقه، لم نجد علماً يحمل اللواء سوى الشيخ الخضر حسين، فأرسى قواعد التحرير فيها، وتعهدها بتوجيهه وقلمه وقلبه المشرق المنير، ونيته وإخلاصه ﷺ، فسارت قدماً إلى الأمام تحمل رسالتها، وتتجه إلى غايتها، ومن ورائها (الخضر) ونخبة مؤلفة من العلماء المخلصين المؤمنين».

«ولم ينقطع عن رئاسة التحرير إلا عندما شغل منصب شيخ الأزهر. وفي هذا المنصب أعاد إليه كرامته، وأكد عزته، ولا يزال الأزهريون يذكرون له مواقف الشمم والإباء، وما زالت كلماته التي قالها، والتي استهل بها عهده فيه، تدوي في آذانهم، يرددونها، ويعترفون له بتحققها.. فقد قال ﷺ: «وليت أمر الأزهر، فإن لم يزد في عهدي، فلن ينقص منه شيء». ثم ترك

---

(١) كان آخر مقال له بعنوان (فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه) نشرته «لواء الإسلام» (س١١ ص٦٧٣ ـ ٦٧٥).

الأزهر موفوراً عزيزاً، وعكف على العلم والكتابة مرة أخرى في «لواء الإسلام»، واستمرت المجلة تشرق بمقالاته، وتضيء بإخلاصه حتى قبضه الله إليه»[١].

٧ ـ مجلة «الفتح»:

صحيفة أسبوعية إسلامية أسسها وأصدرها سنة ١٩٢٦ صديقه الكبير الشيخ محب الدين الخطيب، وهو سوري مهاجر مثله إلى القاهرة. وكان قد سبقه إليها بنحو السنة، وهو كالشيخ الخضر من رعيل الكفاح الإسلامي الأول في بلاد الشام، وفي دمشق كان تعرفه به. فلما استقر كلاهما بمصر، ربطت بينهما رابطة الهجرة، فضلاً عما كان بينهما من روابط العلم والمودة والنضال المشترك عن الإسلام والمسلمين.

وللشيخ محب الدين دور هام في حياة الشيخ الخضر.. فهو الذي ربط الصلة بينه وبين عدد كبير من العلماء والشخصيات المصرية والعربية ذات النزعة الإسلامية. وهو أيضاً الذي شجعه ـ منذ البداية ـ على نشر مؤلفاته، وطبعها في المطبعة السلفية التي أسسها الشيخ محب الدين الخطيب[٢].

فلما أصدر مجلته «الفتح»، ساهم الشيخ الخضر في تحريرها، والكتابة فيها بما يلائم اتجاهاته الدينية، ويساعد صديقه على النجاح في مهمته الإسلامية.

---

(١) «لواء الإسلام» (عدد مارس ١٩٥٨، مجلد ١١ ع١٢ ص٧٤٣ ـ ٧٤٤).

(٢) راجع بحثاً جيداً عن حياة الخضر كتبه الشيخ محب الدين في مجلة «الأزهر»: مجلد ٢٩ ص٧٣٦ ـ ٧٤٤ (٢٠/٢/ ١٩٥٨)، وانظر ما كتبه محب الدين عن الخضر في مذكراته المنشورة في مجلة «الثقافة» الجزائرية عام ٧٢ ـ ١٩٧٣.

ولمجلة «الفتح» دور هام جداً في الدفاع عن قضايا المغرب العربي، وخاصة يوم تعرض إلى محنة التجنيس[1].

* **مجلات وصحف أخرى:**

لا نستطيع أن نعرف بالتحديد جميع المجلات والجرائد الأخرى التي نشر فيها الشيخ الخضر قصائده ومقالاته وبحوثه. ولبس ثمة شك في أنها كثيرة جداً، سواء منها الصادرة في مصر، أو تونس، أو في غيرها من البلاد، ومع ذلك نذكر هنا أسماء ما عرفناه منها؛ لتكون عوناً للباحثين الراغبين في الإحاطة والتوسع ومتابعة جميع آثاره المنشورة.

٨ ـ مجلة «مجمع اللغة العربية»:

وهي حولية يصدرها المجمع في القاهرة متضمنة بحوث أعضائه، وقرارات المجمع، وقد صدر عددها الأول سنة ١٩٣٥ محتوياً جملة أعمال الدورة الأولى المنعقدة في سنة ١٩٣٤، وهي السنة التي تأسس فيها المجمع، واختير الشيخ الخضر ليكون من بين أعضائه الأولين.

وفي العدد الأول نجد للشيخ بحثاً بعنوان: «المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية» ص (٢٩١ ـ ٣٠٢)[1].

ولا يخلو عدد واحد من هذه المجلة ـ صدر في حياته ـ من بحث له، أو قصيدة، أو هما معاً.

---

(١) من ذلك نشرها سلسلة من المقالات جمعتها بعد ذلك في كتاب بعنوان «ظاهرة مريبة...».

(٢) لم ينشر هذا البحث في كتاب «دراسات في العربية وتاريخها».

٩ ـ مجلة «المجمع العلمي العربي»:

وهي مجلة مجمع دمشق الذي كان الشيخ الخضر من أعضائه الأولين عند تأسيسه في سنة ١٩١٩[١]، ولما هاجر إلى مصر، واستقر بها، انتخب عضواً مراسلاً[٢]. ومن يتابع فهارس المجلة يجد كثيراً من أخباره وبحوثه ومحاضراته مبثوثاً في أعدادها[٣].

١٠ ـ مجلة «البدر»:

وهي شهرية أدبية علمية، أصدرتها جماعة من (جمعية الجامعة الزيتونية) للتعبير عن مقاصدها، وللمساهمة بها في النهضة الثقافية التونسية. وكان صدورها بين عامي (١٩١٢ ـ ١٩٢٢).

ومقالات الشيخ بها كثيرة، كما نشر فيها آخر محاضرة له بتونس بعنوان «مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها». وقد اخترنا نماذج من مقالاته فيها في قسم: المختارات.

١١ ـ المجلة الزيتونية:

وهي مجلة شهرية إسلامية تونسية أصدرتها نخبة من شيوخ الزيتونة ابتداء من سنة ١٩٤١.

١٢ ـ جريدة الزهرة:

يومية سياسية جامعة، أسسها المرحوم السيد عبد الرحمن الصنادلي[٤]

---

(١) راجع عن ذلك: «تاريخ المجمع العلمي العربي» لأحمد الفتيح.

(٢) مجلة «المجمع العلمي العربي»: مجلد ٦ ج١٢ (ص٥٥٦ ـ ٥٥٧) ديسمبر ١٩٢٦.

(٣) انظر تفصيل ما نشره في فهارس المجلة التي وضعها الأستاذ عمر رضا كحالة.

(٤) م. ص. المهيدي: «تاريخ الصحافة العربية» (ص٧).

سنة ١٨٨٩، وهي رابع صحيفة عربية صدرت بتونس. وقد عمرت طويلاً، وعاشت بعد وفاة مؤسسها سنة ١٩٣٥ بإدارة ابنه، وانقطعت عن الصدور عقب الاستقلال بمدة قصيرة.

١٣ ـ الزهراء:

مجلة علمية أدبية اجتماعية، منشئها محب الدين الخطيب، ودام صدورها شهرياً مدة خمس سنوات من (١٣٤٣/ ١٩٢٤ إلى ١٣٤٧/ ١٩٢٩).

*** المراجع:**

أولاً ـ المخطوطة:

١ ـ مشاهير المهاجرين التونسيين: (الطيب بن عيسى).

٢ ـ مجموعة خاصة من الرسائل والوثائق.

ثانياً ـ الكتب المطبوعة:

١ ـ الأدب التونسي:

زين العابدين السنوسي.

جزآن ـ مطبعة العرب ـ تونس (١٩٢٧ ـ ١٩٢٨).

٢ ـ أركان النهضة الأدبية بتونس:

محمد الفاضل بن عاشور، ط١ تونس (١٣٨١/ ١٩٦١).

٣ ـ أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث:

أحمد تيمور، ط١ ـ القاهرة ١٩٦٧.

٤ ـ البرنس في باريس:

محمد المقداد الورتاني، الطبعة الأولى ـ تونس ١٩١٤.

٥ ـ البلاد العربية والدولة العثمانية :

ساطع الحصري ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٦ ـ تاريخ الصحافة العربية :

الفكونت فيليب طرازي .

طبعة مصورة للطبعة الأولى ـ بيروت (١٩١٣ ـ ١٩٢٧) .

٧ ـ تاريخ الصحافة العربية وتطورها بالبلاد التونسية :

محمد الصالح المهيري ـ تونس ١٩٦٥ .

٨ ـ تاريخ المجمع العلمي العربي :

أحمد الفتيح ـ دمشق ١٩٥٦ .

٩ ـ التوفيقات الإلهامية :

اللواء محمد مختار باشا، طبعة أولى ـ بولاق (١٣١١ / ١٨٩٣) .

١٠ ـ حاضر العالم الإسلامي :

تعليق شكيب أرسلان، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٧١ .

١١ ـ الحركات الاستقلالية في المغرب العربي :

علال الفاسي ـ القاهرة ١٩٤٨ .

١٢ ـ الحركة الأدبية والفكرية بتونس :

محمد الفاضل بن عاشور، القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٥٦ .

١٣ ـ الفكر والثقافة المعاصرة في الشمال الإفريقي :

أنور الجندي ـ القاهرة ١٩٦٥ .

١٤ ـ كفاح صحفي : علي مصطفى المصراتي :

طبعة أولى ـ بيروت ١٩١٦ .

١٥ ـ المجمع العلمي العربي في خمسين عاماً:

عدنان الخطيب، دمشق ١٩٦٩ .

١٦ ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً:

المجلد الأول بقلم الدكتور إبراهيم مدكور، القاهرة ١٩٦٤ .

١٧ ـ محاضرات المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٥٤ .

١٨ ـ مساجد ومعاهد:

سلسلة كتاب الشعب، رقم ٧٥، الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٦٠ .

١٩ ـ معجم المؤلفين:

عمر رضا كحالة ـ الأجزاء ٩ و١٠ و١٢ و١٣ ـ دمشق ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ .

٢٠ ـ معركة الجلاز:

محمد المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى ـ طبعة أولى ـ تونس ١٩٦١ .

٢١ ـ الموسوعة العربية الميسرة:

بإشراف محمد شفيق غربال ـ القاهرة ١٩٦٥ .

٢٢ ـ هذه تونس: الدكتور الحبيب ثامر ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٢٣ ـ يوم ميسلون:

ساطع الحصري ـ طبعة جديدة ـ بيروت (؟).

ثالثاً ـ فهارس الكتب والدوريات:

١ ـ فهرس ٣٢٠٠ مجلة وجريدة عربية:

وضعه عبد الغني أحمد بيوض ومن معه ـ المكتبة الوطنية ـ باريس ١٩٦٩ .

٢ ـ فهرس الدوريات العربية في دار الكتب المصرية :
جزآن ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦١ .

٣ ـ الكتب العربية التي نشرت بين ١٩٢٦و١٩٤٠ :
عائدة إبراهيم نصر، الجامعة الأمريكية ـ القاهرة ١٩٦٩ .

٤ ـ فهرس مجلة المجمع العلمي العربي :
دمشق ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٧١ .

٥ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة :
يوسف إليان سركيس ـ القاهرة ١٩٢٨ .

٦ ـ فهرس المكتبة اللزامية :
وهي مكتبة خاصة ببنزرت (تونس)، وضعه الشيخ أحمد حفصة الغمراسني ـ مطبعة النهضة ـ تونس ١٣٥٠ ـ ١٩٣١ .

رابعاً ـ المجلات والجرائد :

١ ـ الأزهر : مجلة ـ القاهرة ـ المجلد ٢٩ (١٩٥٨) .

٢ ـ البدر : مجلة ـ تونس ـ المجلد الثاني ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ .

٣ ـ الثريا : مجلة ـ تونس ـ المجلد الثالث ٤٣ ـ ١٩٤٤ .

٤ ـ الدعوة : جريدة ـ القاهرة ـ ١٣٧٢/ ١٩٥٢ .

٥ ـ روز اليوسف : مجلة ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ .

٦ ـ السعادة العظمى : مجلة ـ تونس ـ ١٩٠٤ .

٧ ـ الشعب : مجلة ـ تونس ـ ١٩٦٨ .

٨ ـ العالم الأدبي : مجلة ـ تونس ـ ١٩٣٢ .

٩ ـ عالم الفكر: مجلة ـ الكويت مجلد ١٩٧٠ .

١٠ ـ العرب: مجلة ـ تونس ـ المجلد الثالث ١٩٢٣ .

١١ ـ العمل: جريدة ـ الملحق الثقافي ـ تونس ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢ .

١٢ ـ لواء الإسلام: مجلة ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨ .

١٣ ـ المجمع العلمي العربي: مجلة ـ دمشق (كل السنوات، والفهارس).

١٤ ـ مجمع اللغة العربية: مجلة ـ القاهرة ـ ١٩٣٥ ـ ١٩٥٨ .

١٥ ـ المشير: جريدة ـ تونس ـ سنة ١٩٥٨ .

١٦ ـ نور الإسلام: مجلة ـ القاهرة ـ ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ .

١٧ ـ الهداية الإسلامية: القاهرة ـ كل السنوات.

*** ملاحظة هامة:**

جميع مؤلفات الشيخ محمد الخضر حسين التي وردت في متن الكتاب أو هوامشه كانت لنا عوناً ومصدراً أساسياً في كتابته.

❑ ❑ ❑

محمد الخضر حسين
عالم فذ ومجاهد من الرعيل الأول

بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي(١)

«ولد في مدينة «بوطان» بتركيا عام (١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م)، وطلب العلم في صباه بدمشق، ثم درس في الأزهر، وعمل أستاذاً ورئيس قسم في كلية الشريعة بجامعة دمشق. له مؤلفات غزيرة: من الفكر والقلب ـ من روائع القرآن ـ مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجاً ـ اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ـ تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث ـ قضايا فقهية معاصرة ـ مدخل إلى فهم الجذور ـ وغيرها».

منذ أيام نعي إلى العالم الإسلامي في معظم أقطاره، وفاةُ أحد أعلامه الخالدين، هو فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين المغربي التونسي.

ومن الطبيعي أن يحدث صدى هذا النبأ المؤسف هزة قوية بين الأوساط، وأسى عميقاً في النفوس، وفراغاً بيناً في عالمنا الإسلامي الشاسع، فلقد كان الشيخ الجليل من أولئك القلة الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادراً.

كان كأنما يستشعر دائماً أنه لم يخلق لنفسه، وإنما للإسلام. والروح التي تخفق بين جنبيه لم يكن يشعر أنها شيء آخر غير روح الإسلام التي يجب

---

(١) كتاب «من الفكر والقلب» الطبعة الأولى عام (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

أن تظل خفاقة في عالمه الذي يعيش فيه.

ولذا، فقد كان يلتمس في الدعوة إلى الحق والثورة على الباطل، وإنارة سبل الإسلام، غذاء حياته، وراحة نفسه، تماماً كأي شخص يبحث عن هذه الراحة في لقمة الطعام، وجرعة الشراب، وأسباب الدنيا..

ويبدو أنه ـ رحمه الله ـ لم يكن ليشفي غلة نفسه أن يخدم الإسلام من الطريق التي يسلكها معظم أمثاله من الشيوخ والعلماء فقط، فشق أمامه كل طرق الفكر والفنون، وجندها كتلة واحدة مجتمعة لخدمة الإسلام والعالم الإسلامي. فلقد خدم الإسلام أديباً لامعاً، وجاهد في سبيله كاتباً مبدعاً، وتصدى لنصرته عالماً من أفذاذ علماء التشريع وأصوله، وكان أروع قرين له في كل ذلك إخلاصه القوي الغريب.

لقد تناوبته مراحل مختلفة متتالية من صور الحياة، وهو عند كل مرحلة منها لا يلقي عصاه إلا ليتخذ منها ميداناً للجهاد الدائب في إخلاص راسخ لا يميله عنه شيء من زعازع الحياة ورياحها.

ابتدأت أولى مراحل جهاده على صفحات مجلة «الأزهر»، وكانت تلك المجلة إذ ذاك صوتاً إسلامياً مدوياً في شتى أطراف العالم، يخشع له العدو والصديق، ويهتز بتأثيره القاصي والداني، وكانت روح تلك المجلة متمثلة في شخصين عظيمين، لا يذكر أحدهما إلا وذكر معه الآخر، هما: الشيخ يوسف الدجوي، والشيخ محمد الخضر حسين. والذي استعرض شيئاً من كتابات هذين العظيمين في تلك المجلة يستطيع أن يتخيلهما في وقفتهما المناضلة المكافحة عن حوزة الإسلام وقدسيته ضد قوى كثيرة متألبة تهدف إلى خدشه والنيل منه.

وكانت المرحلة الثانية من حياته الدائبة المجاهدة هي تدريسه في كلية الشريعة بالأزهر. كان ـ رحمه الله ـ يحاول جاهداً أن يدخل إلى قلوب طلابه مع العلم روحه، وكان يجاهد أن يلصق الوسائل بالغايات؛ لكيلا يقف الأزهريون بعد تخرجهم في نهاية الوسائل ودون الغايات وإذا بهم أعضاء أشلاء، لها صورة الثمرة أمام الأبصار، وليس لها حقيقتها وطعمها.

وكان يأبى أن يوقع على الساعة التي يدرسها إذا امتلأت من أول دقيقة فيها إلى آخر لحظة بالتعليم والإفادة. ومعنى ذلك: أن الساعات التي كانت تذهب ببعضها فوضى الطلاب بسبب بعض الشؤون العامة أو الخاصة لم يكن يرضى أن يأخذ عليها أي أجر.

ثم أقلته الدولة بعد ذلك إلى منصب مشيخة الأزهر، فضرب أكبر مثل للتاريخ بالإخلاص والتفاني في العمل لمصلحة الأزهر والإسلام. وراح يضع المشاريع الإصلاحية لنهضته وتقوية دعائمه.. ولما لم يمكن لكل ما أراد أن يطبق، أبى إلا الاستقالة عن منصبه، معتذراً بأنه ليس من الوفاء للحق أن يملأ منصباً دون أن يملك أن يعطيه حقه.

ولكنه لم ينزل ليستريح، ولم يترك مشيخة الأزهر ليخلد إلى السكون، بل ظل واقفاً نفسه لخدمة الإسلام، والدفاع عنه في كل ما يمكنه من مجال.

عمل رئيساً للتحرير في مجلة «لواء الإسلام»، ولما تملكته الشيخوخة، ودبّ إلى أطرافه الضعف، ولم يعد يستطيع الدوام في مركز المجلة، استأذن من مؤسسها أن يتولى الكتابة لها، والإشراف على موادها في مكتبه في البيت، ولم يرض أن يأخذ بعدئذ لقاء عمله أي شيء، كان يرى أن رئيس التحرير

ليس له أن يقعد في بيته، ثم يأخذ فوق ذلك أجراً.

وظلّ مثابراً على الكتابة، وظل ماضياً في طريقه إلى الدعوة والجهاد الفكري، رغم ما آل إليه جسمه من الضعف، والحاجة إلى الراحة والسكون، ولكنه ـ كما قلت ـ لم يكن يفرق بين ألم روحه التي في جسمه، وألم الروح الإسلامية في هذه الأرض. لقد كان عليه لكي يستريح أن يرى المجتمع الإسلامي من حوله سعيداً هادئاً مستقيماً.

ولا أزال أذكر يوم عُدته في السنة الماضية في بيته في القاهرة، رأيته جالساً على مقعد إلى جانب مكتبه، وقد ذوى منه الشكل، وذابت معظم ملامح وجهه، وامتزجت ـ من الضعف ـ الكلمات بعضها في بعض على شفتيه، ورأيت ـ رغم هذا ـ قلماً يرتجف في يده، وأوراقاً مبعثرة على (طربيزة) بين يديه.

ولقد سألته ـ إذ ذاك ـ عن هذه الأوراق، فأجاب بصوت خافت، وكأنه يتجاهل العجز المتشبث به: بأنه مقال يكتبه للواء الإسلام.

فقلت: ولكن ألا تشعرون أن هذا يتعبكم، وأنكم بحاجة إلى شيء من الراحة في هذه الفترة؟

فأجاب ـ رحمه الله ـ بلهجة متواضعة لا أزال أذكرها:

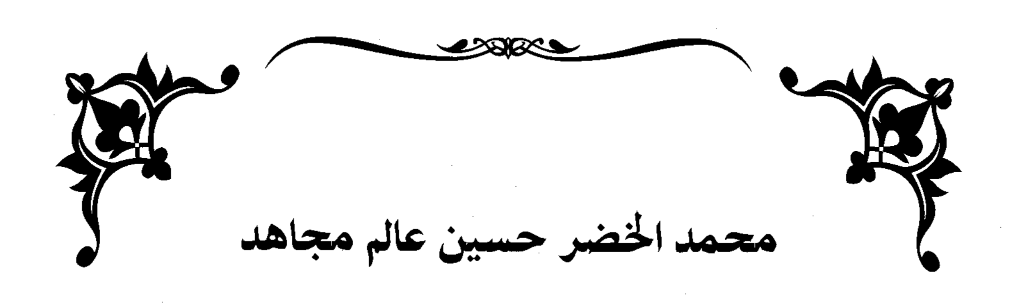
ـ قلما أشعر بالراحة ساكناً بلا عمل..

لا أحسب أن مثل هذا الإنسان يبعثه الله في العالم إلا عبرة للكسالى الخاملين الذين تلويهم النسمات، ويقعدهم التثاؤب؛ كي يؤوبوا إلى رشدهم، وتنخسهم مشاعر الخجل والحياء إن كانت فيهم مشاعر..

رحمه الله . . كان أهم ما يشتاق إليه في عالمنا هذا هو أن تعود إليه وحدته الإسلامية ليلتقي بقوته الجبارة التي رُكنت منذ دهر طويل في مخزن التاريخ.

وإني لأرجو أن يحقق الله عزاءنا فيه، وأن يأذن لهذا العالم أن يهب إلى وحدته ليستردها، وإلى قوته ليستعيدها.





محمد الخضر حسين عالم مجاهد

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

«كاتب وباحث في العلوم الإسلامية، له دراسات قيمة في مجلة «الأزهر»، وفي العديد من المنشورات المتخصصة في العالم الإسلامي. وأستاذ في كليات الجامع الأزهر»[1].

يحلو لكثير من النقاد أن يصنفوا المؤلفين طبقتين: طبقة العلماء، وهم أرباب البحوث العلمية في الفقه والتشريع والعلوم اللسانية؛ من نحو وبلاغة وتصريف، وطبقة الأدباء، وهم أصحاب الآثار الفنية؛ من نثر بارع الصوغ، صادق العاطفة، وشعر رائع المعنى دقيق التصوير، فإذا نظم العالم شعراً، أو ألف الأديب مصنفاً علمياً، فقد سلك مسلك التكلف والافتعال، وربما دعم هذا التقسيم لديهم ما يشاهدونه كثيراً من ركاكة أشعار العلماء، وضحالة إنتاج الأدباء، وهذا حق في أكثر أحواله، ولكنه لا يمنع أن يوجد من الموهوبين من يبرز في الناحيتين على نحو يدهش ويروع!.

أذكر أني كنت أقرأ كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الشهير علي بن عبد العزيز الجرجاني، فأجد الرائع المبدع من التحليل الأدبي والصوغ البياني، مع الاستشفاف الملهم لأسرار الروح ونوازع الوجدان،

---

(١) مجلة «الأزهر» القاهرة ـ الجزء الأول ـ السنة الثانية والأربعون.

ثم أنتقل إلى ما رواه الثعالبي من شعره، فأجد المطرب المرقص مما يملك الوجدان، دقةَ إحساس، ولطافة منزع! والرجل بعدُ قاض فقيه يؤلف في الفقه والتشريع، ويحذق أساليب الاستنباط والقياس وقواعد الأصول ذات المنحى العويص!! وتفوقه في الناحيتين المختلفتين دليل ملموس على أن العلم لا يمنع الأدب؛ فقد يوجد في ذوي المواهب من يطير بجناحين متعادلين، فيحرز قصب السبق في مضماري العلم والأدب دون نزاع، ولقد كان السيد محمد الخضر حسين أحد هؤلاء دون جدال!! فالرجل قاض فقيه يكتب في الأصول والتشريع والتاريخ كتابة المتعمق الدقيق، وقد كان يدرّس لطلاب كلية أصول الدين أبواباً من السياسة الشرعية، ويغوص فيها مغاص الأصولي الجدلي المتكلم النظار، ثم هو صاحب رسائل أدبية، ومقالات تحليلية، وديوان شعري يجعله في طليعة أرباب الفن الرفيع، ولا ندري كيف تأتى له ذلك، ومنشؤه التعليمي بجامع الزيتونة في تونس إن استطاع أن يلهمه بصر العالم، فلن يستطيع أن يورثه ذوق الأديب دون جهد جهيد!

ولد الأستاذ بقرية من قرى الجزائر على حدود القطر التونسي، في أسرة تعتز بعراقة النسب، وتفخر بمن أنجبت من العلماء والأدباء، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة طالباً. وأكب على التحصيل والتلقي حتى نال الشهادة العالمية عن جدارة، وتهيأ للإفادة العلمية كاتباً ومدرساً وقاضياً.

وتسألني عن طريقة التدريس بجامع الزيتونة إذ ذاك، فلا أجد أحسن مما قاله الأستاذ أحمد أمين، في كتابه «زعماء الإصلاح» (ص١٤٨):

«وعلى رأس هذه الكتاتيب: جامع الزيتونة، وهو صورة مصغرة من

الأزهر في ذلك العهد، تقرأ فيه علوم الدين؛ من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وعلوم اللغة؛ من نحو وصرف وبيان ومعان، في كتب مقررة لها متون وشروح وحواش، ويقضى الوقت في تفهم تعبيراتهم، وإيراد الاعتراضات والإجابة عنها، فالعلم شكل علم لا علم، والنتاج جدل لا حقائق، والناجح في الامتحان الذي يستحق أن يكون عالماً: أقدرهم على الجدل، وحفظ المصطلحات الشكلية، أما الجميع، فسواء في عدم التحصيل إذا مسوا الحياة الخارجية، فالمناقشة في أن شرب الدخان حلال أو حرام، والغيبة أشد حرمة أم سماع الآلات الموسيقية، وخيال الظل تجوز رؤيته أو لا تجوز».

ويقص الأستاذ محمد الخضر حسين نفسُه طريقة أحد أساتذته في التدريس، فيقول عن شيخه عمر بن الشيخ، نقلاً من مجلة «الهداية الإسلامية» جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ: «أما أسلوب الأستاذ في التعليم، فمن أنفع الطرق، كان يقرر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتضح المراد منها، ثم يأخذ في سرد عبارات الشرح، وما تمس الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت في الموضوع، لا سيما الكتب التي استمد منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة، ولا يغادر عويصة أو عقدة إلا فتح مغلقها، وأوضح مجملها، بحيث يتعلم الطالب من دروسه كيف تلتقط الجواهر للمعاني من أفواه المؤلفين، زيادة عما يستفيده من العلم»، ثم يقول عنه: «تلقيت عن الأستاذ ـ رحمه الله ـ دروساً من «تفسير البيضاوي»، ودروساً من «شرح التاودي على العاصمية»، ودروساً من «شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر الخليلي»، وكنت بعد أن استقال من منصبي الفتوى ونظارة الجامع أزوره كثيراً؛ حرصاً على الاستفادة من علمه».

هذه الطريقة في الشـرح والتلقين هي نفسـها الطريقة الأزهرية القديمة التي نادى محمد عبده بوجوب إصلاجها، ودعا إلى نمط آخر من الدراسة يهتم باللباب دون القشور، وأرجح أن بعض أساتذة الزيتونة لم يكونوا من هذا الطراز؛ لأن الشيخ الخضر في غضون مقالاته الكثيرة يتحدث عن أستاذه سالم أبو حاجب، فيرينا نمطاً من العلماء الأفذاذ يهتمون بالحقائق الخالصة، ويعملون على إحياء الوعي المجدد الناهض، فهو ـ مثلاً ـ في دروسـه كان يستشـهد على كل كلمـة لغوية ببيت من الشـعر مما ينبئ بكثـرة محفوظـة الأدبي.

وزملاؤه إذ ذاك كانوا لا ينظرون إلى دواوين الشعر العربي نظرة تأمل واستيعاب، وأكاد أجزم أن وجود هذا الأستاذ في حياة الخضر العلمية كان ذا أثر بعيد في اتجاهه الفكري، فهو الذي حدا إلى البعد عن دائرة الحواشي والمتون والتقريرات، وهيأه لأن يرد التراث العلمي من أصفى موارده في أمهات الكتب للشافعي، وابن حزم، والغزالي، والفخر، والشاطبي، وأمثال هؤلاء من أفذاذ العلماء!

ولا تجد تعليلاً لنبوغ الخضر في حداثته، وتفوقه عن أقرانه غير صفاء مورده، ودسامة غذائه الفكري، على حين يظل بعض الزملاء في مصر وتونس مولعين بكتب المماحكات، وحواشي المتون.

تخرج الأستاذ في الزيتونة صحيحَ العلم، وواسع الأفق، فصيح العبارة، وراعه أن يرى الاحتلال الفرنسي يأخذ بمقبضه الحديدي على أعناق المسلمين في أصقاع المغرب بشتى نواحيه التونسية والجزائرية والمراكشية! فطفق يدعو إلى اليقظة والتحرر، وأنشأ مجلة «السعادة العظمى» لتوضح للقارئين مأساتهم

الدامية، وتكشف تخلفهم الحضاري والعلمي، وبُعدهم عن تعاليم الإسلام في مجتمع يقول الأستاذ أحمد أمين في وصفه (ص١٤٩):

«جزء كبير من السكان بدو لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من علم إلا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئاً من الدين، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية مدارس تعلم أبناءها، وقليلاً من أبناء البلاد اللغات والجغرافيا والتاريخ والحساب والجبر والهندسة، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها، تحولت مالية البلاد إلى أيديهم، أما إدارة البلاد، ففوضى، الحاكم حاكم بأمره، وأحب الناس إليه من يجمع له المال من حله وحرامه، ولا ضبط في دخل ولا خرج، والعدل والظلم متروكان للمصادفات، فإن تولى بعض الأمور عادل، عدل، وكان العدل موقوتاً بحياته ـ وقلما يكون ـ، ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالي، وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية، لا مرجع لها، ولا يمكن الحساب عليها».

هذه حال تونس، وهي مشابهة لأكثر أحوال الممالك الإسلامية في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، ولو كان الأستاذ الخضر ممن يفكرون في ذواتهم الخاصة، لقنع بما أسند إليه من وظائف القضايا بالمحاكم، والتدريس والخطابة بالزيتونة وغيرها من المدارس، وهي وظائف تضمن العيش الرغيد، وتوفر صعاب الرزق، بل إنها كانت ـ عند بعض الوصوليين ـ مدعاة التقرب إلى المحتلين؛ إذ يصيرون لعبة هينة في أيديهم، يصدرون عن آرائهم، ويمهدون لتمكين سيطرتهم بما يلفقون من تقريب وتمهيد!

ولكن الرجل حي الضمير، شديد الحساسية؛ فقد رأى الأجنبيَّ يحاول أن يطمس نور الشـريعة عن عيون تهيم بالإسـلام، كما يبذل قوته الحاشدة لتشويه اللغة العربية، والحكم عليها بالجمود والتقهقر؛ لينصرف الناس عن قرآنهم المجيد، وأحاديث نبيهم الكريم، ثم تنقطع صلاتهم بأصحاب الذخائر العلمية الرائعة من ورثة الأنبياء وهداة المصلحين.

لذلك أنشأ صحيفة «السـعادة العظمى» على نمط «العـروة الوثقى»؛ لتنشر محاسن الإسلام، وتفضح أساليب الاستعمار، وكانت خطة السيد ـ منذ حمل لواء الدعوة في صباه إلى أن لقي الله في شيخوخته ـ واضحة مفهومة، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع ـ في أصح أسبابه ـ إلى انصراف المسلمين عن هدي الشريعة الإسلامية، ويرى أن السيطرة الأوروبية لم تملك زمام الأمور في الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم، واستضاءت بالعقل، وأن الشلل العقلي لم تتمهد وسائله المؤسفة وأسبابه القاتلة في ربوع الحنيفية إلا حين استطاع الدخلاء أن يلبسوا الحق بالباطل، فيصموا الإسلام بما هو براء منه من الجمود والتزمت والاستسـلام، والأخذ بالخـرافات والبدع والغيبيات المزعومة، مما لم يأت به وحي سماوي، أو هدي محمدي!

ولذلك كانت مهمة «السعادة العظمى» شاقة خطيرة؛ إذ أخذت تحارب القوة والمال والنفوذ بعزم واثق، وجهد صابر أمين! والرائع حقاً أن الأستاذ ﷺ قد ثبت على معتقده ثبات الأبطال في كل مكان رحـل إليه، فهو في تركيا ودمشـق، وألمانيا والقاهرة، شـاباً وكهلاً وشيخاً، هو في تونس يافعاً غضّاً يناهض الباطل بالحق، ويحارب الكفر بالإيمان! ومن يطالع روائـع قلمه، وبخاصة كتاب «رسائل الإصلاح» بأجزائه الثلاثة، يدرك يقينه الثابت بماضي

الأمة الإسلامية، فهو في كل مقال يخطه، أو محاضرة يلقيها يلتمس الأدلة اليقينية على مجد السلف، وعزّ الأجداد، وكان ذلك أمراً لابد له أمام مزاعم الاستعمار وأذنابه، ممن يرون في الشرق كل تأخر، وفي الغرب كل تقدم وازدهار، ويمكننا أن نستعير بعض ما كتبه السيد في مقدمة كتابه «نقض الشعر الجاهلي»؛ ليرى القارئ إجمال دعوة الرجل موجزاً بقلمه البليغ، قال الأستاذ:

«نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية ابتدأت بطلوع كوكب الإسلام، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث، وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المثلى، سادت هذه النهضة، وكان لها الأثر الأعلى في الأفكار والهمم والآداب، ومن فروعها نهضة أدبية لغوية، جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني أمية، واستوت على سوقها في أيام بني العباس.

تمتع الشرق بنهضتيه الاجتماعية والأدبية حقباً، ثم وقف التعليم عند غاية، وأخذ شأناً غير الشأن الذي تسمو به المدارك، وتنمو نتائج العقول، فإذا غفوة تدب إلى جفون هذه الأمم، ولم تكد تستفيق منها إلا ويد أجنبية تقبض على زمامها.

التفت الشرق إلى ما كان في يده من حكمة، وإلى ما شاد من مجد، وإلى من شب في مهده من أعاظم الرجال، أخذ ينظر إلى ماضيه؛ ليميز أبناؤه بين ما هو من تراث آبائهم، وبين ما يقتبسونه من الغرب، ويشعروا بما كان لهم من مجد شامخ، فتأخذهم العزة إلى أن يضموا إلى التالد طريفاً، وليذكروا أنهم ذرية أولئك السراة، فلا يرضوا أن يكونوا للمستبدين عبيداً».

هذا هو المجال الذي انطلق فيه يراع الأستاذ طيلة حياته: مجال التذكير

بالأمجاد عن دراسة وتنقيب، وكشف الخداع عن بهارج الغرب في استشفاف ونفاذ، ووضع العلاج لأدواء الشرق في بصر وتشخيص!! وقد ألح في ذلك إلحاحاً جعل فريقاً من المؤرخين يفهمون رسالته الإصلاحية على غير وجهها الصحيح. فالأستاذ (ولفريد كانتويل سميث) أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة (مونتريال) يضع كتاباً عن الإسلام في التاريخ الحديث، يتعرض فيه إلى مجلة «الأزهر» موازناً بين رئيسي تحريرها السابقين: محمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، فيجعل الأول ممثلاً للمدرسة السلفية فقط، والثاني مجدداً عصرياً تسير طريقته في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة، وهذا شطط بالغ تنبه إليه الأستاذ حين تعرض لنقد الكتاب، فقال نقلاً عن مجلة «الأزهر» رجب ١٣٨١هـ:

«ويقول صاحب الكتاب في مقابلته بين الشيخ الخضر، ومنهج الأستاذ وجدي: إن أولهما يعتبر الإسلام وحياً تاماً قد تنزل على صورته الكاملة منذ عصر الرسالة المحمدية، فلا إضافة إليه، ولا زيادة عليه، ولا تحوير فيه، وإنما الإيمان بالإسلام هو الذي يحتمل القوة والضعف، كما يحتمل زيادة المعرفة، أو النقص فيها، أو يحتمل المراجعة من عصر إلى عصر لتفقد الآثار العصرية فيه، وليس الأستاذ الخضر ـ كما يرى المؤلف ـ من أنصار الحنين إلى الماضي، بل هو من أنصار الدعوة التي لا زمان لها؛ لأنها صالحة لكل زمان، ومهما تتجدد مذاهب المعرفة، فالمسلم يسلم أمره إلى إرادة الله كما هدته معارفه إلى فهم تلك الإرادة الإلهية بالدرس والإلهام، وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين في الحاجة إلى التصحيح والإصلاح، وهما ـ على تعبير المؤلف ـ طرف اليسار من المتعلمين الذين

جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين وأتباع الطرق الصوفية الذين ضيقوا حدوده عليهم، وإن لم يجاوزوه».

ولم يسكت المستعمرون عن صاحب السعادة، وقد أقضّ مضاجعهم بما ينادي به من استقلال وإصلاح، فآذوه وناوؤوه، وحكموا عليه بالإعدام، حتى اضطر إلى الفرار إلى الآستانة واهماً أن مجال الإصلاح بها أوسع وأرحب، ولكنه فوجئ بانهيار آماله حين وجد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحاً للدسائس المغرضة، والمؤامرات الرخيصة، وأن من يجعلون أنفسهم رجال الدين هناك لا يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة، بل لا يتناهون عن كل منكر يفعلونه، فهم يحيكون المكائد بالليل، ويفسرون المنامات، ويقرؤون الكف بالنهار، على أنهم يضيقون بكل عالم مصلح يصدع بالحق، وينادي باليقظة والاستبصار، فهاجر الرحالة الصابر إلى دمشق، وحرص على البقاء بها مدرساً للغة العربية في المدرسة السلطانية، ولكن مبادئه تهتف به أن يسهم بنصيبه في البعث الإسلامي، فيكتب ويخطب ويدعو، ثم يسافر إلى ألمانيا، فيلتقي بالأحرار من أنصار الفكرة الإسلامية أمثال: محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد، ويعملون جميعاً على استقلال الدول الإسلامية أمداً طويلاً في وطأة الحرب العالمية الأولى، وبين طلقات المدافع وأزيز الطائرات في مسرح جهنمي تشيب له الرؤوس؟

ثم يعود إلى دمشق ثانية، فيواصل التدريس بالدار السلطانية، ويقرأ كتاب «مغني اللبيب»؛ ليكون ـ فيما بعد ـ أساساً لمؤلف نحوي بلاغي شامل.

حتى إذا ختمت الحرب، وأسرعت فرنسا باحتلال الشام، رأى نفسه

مضطراً إلى الهجرة بنفسه فراراً من هؤلاء الذين حكموا عليه بالإعدام في تونس يسابقه جهاده، ورائعه ونضاله، فيمم وجهه شطر الديار المصرية، ليصبح له فيها شأن جديد..

حضر السيد محمد الخضر حسين إلى مصر في وقت عصيب من تاريخها الفكري، وكانت الحاجة ماسة إلى كل رجل مثقف من رجال الدين قد فهم الشريعة فهماً صحيحاً، يستند إلى الأصول من القواعد والأمهات من المراجع، مع مطاوعة سهلة للبيان النير المشرق، يوضح به للقراء ما التبس عليهم من أوجه الخلاف بين دعاة الإلحاد وأنصار الفكرة الإسلامية، هؤلاء الذين وُصفوا ـ فيما بعد ـ بأنصار القديم، ووصف خصوصهم بأنصار الجديد، كما حلا للدكتور طه حسين أن يسهب في ذلك ويزيد!

نعم، كان المخلصون من حماة الفكرة الإسلامية في غير الدوائر الدينية الرسمية كثيرين، ولكن وجود أمثال العالم المحقق الأديب المبين محمد الخضر حسين أمر ضروري، يحتم أن يقوم أحد أصحاب العمائم المستنيرة بالجهر بكلمة الإسلام فيما ران من شكوك، وما أذاعه أذناب الاستشراق من مفتريات!

وقد ملئ كتاب «الشعر الجاهلي»، و«الإسلام وأصول الحكم» بأقسى عبارات التهكم بالمعممين! فحق لأحدهم أن يقول فيجيد!

كانت سيطرة الثقافة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى مدعاة إلى إغراء براق بأوربا، وازدراء ناقم لأمجاد الشرق في رأي من جهلوا الحق فضلّوا عن سبيله، ومن عرفوا الحق مستبصرين، ولكنهم مالؤوا الباطل ليصلوا إلى الشهرة والجاه والزعامة الفكرية من سفاح دنيء لا يعرف معنى الشرف

في القول أو الفعل، وإن تستر بخداع زائف من التصايح بالحرية الفكرية، والمنهج العلمي، ويشهد الله أن لا حرية ولا منهج، ولكن الهوى يهمي ويصم!.

ما كاد الأستاذ الخضر ينزل حي الحسيين بمصر غريباً لا يعرف أحداً من الناس، ومهاجراً في سبيل الله بقلمه المجاهد الشجاع، حتى وفق لعمل بدار الكتب بأجر زهيد لا يتفق ومنزلته الكبيرة، ولكنه كان ـ بتوفيق الله ـ صلة حميدة إلى اشتهاره الأدبي، ونبوعه العلمي، ثم إلى اتصاله بأشباهه من الغُير على مقدسات الإسلام من أعلام المفكرين؛ كأحمد تيمور، ومحب الدين الخطيب، وعبد الحميد سعيد، وعبد الوهاب النجار، ومحمد رشيد رضا، ثم شاءت الأقدار أن تفتضح معركة الشعر الجاهلي، وأن يكون الأستاذ بطلاً معلماً من أبطال المعركة، يصيح بالحق، ويندد بالضلال.

لقد ظهر كتاب «الشعر الجاهلي» ينادي باحتقار كل قديم دونه في صحف الأدب والشك فيه، ويزعم أن جل ما قيل منسوباً إلى شعراء الجاهلية اختلاق زائف بغيض، وهذه الآراء مهما صادمت البداءة الواضحة، لا تحدث ضجة بين الناس يسعى إليها الدكتور طه حسين باذلاً جهده الجهيد، فلا بد إذن من الهجوم على المقدسات الدينية هجوماً لا هوادة فيه، فليتعرض الكاتب إلى القرآن المجيد، وليزعم أن حديثه عن إبراهيم وإسماعيل لا يكفي لإثبات وجودهما في التاريخ!

إذ أن رواية ذلك وتسجيله لا يكفيان لإثباته دون بحث عن العوامل القريبة والبعيدة في الرواية والتدوين!

ونحن لا نريد أن نفيض في دعوى الانتحال الشعري؛ لأنها لب الكتاب

وفحواه، وهي دراسة أدبية يتبين وجه الحق في بطلانها من أيسر طريق، ولكننا نلخص ما تورط فيه الكاتب ملحاً ليهاجم الإسلام هجوماً يرضي أساتذته من قساوسة المستشرقين، ويجعل الرجل صاحب دعوة جديدة في الفكر الإسلامي الحديث.

فالدكتور طه يعلن أن محمداً قد استغل المقدسات بمكة، وفي مقدمتها البيت الحرام الذي بناه إبراهيم؛ كيلا يفقد قوته الروحية مع صراع الشرك، فالمسألة مسألة استغلال للسيطرة فحسب، لا أن بيتاً لله بناه إبراهيم على وجه التحقيق.

والدكتور يعلن أن القرآن لم يكن جديداً على العرب، إذ أن عقائده الجديدة كانت معروفة في شبه الجزيرة بدليل عجيب يرتضيه طه وحده، وهو قبول من قبل الدين، ومعارضة من عارض؛ إذ لو لم يكن مألوفاً، ما حفل به أحد.

والدكتور طه يعلن أن دعوة الإسلام دعوة محلية، في جماعة خاصة، وفي حياة خاصة، فهي ليست دعوة عامة للبشرية كما ينطق بذلك القرآن الصريح.

ومنطق هذا كله كما يقول الأستاذ الدكتور البهي ـ في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث» (ص١٩): إن القرآن ليس وحياً لرسالة الله!! وإذا كان المؤلف النابغة قد أثبت اقتراب هذه الأفكار من كتاب «المذهب المحمدي» للمستشرق الإنجليزي (جب)، فإن الأستاذ الخضر قد استطاع أن يجد الأصل الاستشراقي الذي سطا عليه الدكتور سطواً فاحشاً فيما كتبه الدكتور (مرغليوث) في مجلة «الجامعة الآسيوية الملكية» سنة ١٩١٦، وفي كتاب

«محمد» المطبوع سنة ١٩٠٥، وقارئ الرد المفحم الذي كتبه الأستاذ يرى عجباً حين يجد الدكتور يضطر للشك في المتواتر من أخبار القرآن بحكم منهج (ديكارت)، ثم يقبل كل رواية مريضة واهية يذكرها كتاب «الأغاني» كحق مسلَّم يستند إليه في قضية الانتحال، حتى اضطر القارئ إلى الاعتقاد بأن المنهج الديكارتي لا يصلح فقط إلا حين يجابه الحقائق لا الأراجيف.

وإذا كان فريق من الأساتذة الأعلام؛ كالأستاذ الرافعي، والدكتور الغمراوي، ومحمد لطفي جمعه، ومحمد فريد وجدي، قد مزقوا كتاب الدكتور تمزيقاً علمياً بما فضحوه من السرقة والتدليس ومجافاة الحق، فإن الأستاذ الخضر قد زاد عليهم جميعاً بشيء تفرد به، وهو غوصه على النصوص العربية من أمهات كتبنا العلمية التي جهلها الدكتور، فظن أفكاره في الشك والانتحال والاستشهاد بالقرآن ستكون جديدة على القارئ العربي! وأكثرها مدون بنزاهة في الكتب الأمينة التي حرفها الاستشراق عن قصد، ثم سطا عليها طه بعد التحريف، فثرثر وأطال.

فطه مثلاً يقول في (ص٩): «وينتهي بنا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله». والأستاذ الخضر يقول ـ مثلاً ـ في الرد على ذلك (ص٢٢): «لم تكن هذه النتيجة غريبة إلا عند من يتناول البحث خطفاً، ولا يمشي فيه على روية وأناة، وقد أنكر بعض أهل العلم فيما سلف على من يتوقف من النحويين في تقرير ألفاظ القرآن على شاهد عربي، ومن هؤلاء: فخر الدين الرازي؛ حيث يقول في «تفسيره الكبير»: «إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول عن قائل مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن

العظيم كان أولى، وكثيراً ما أرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول، فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم؛ فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وقفه دليلاً على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلاً على صحته أولى».

وأنكر أبو محمد بن حزم على من لا يمضي في الاحتجاج بظاهر القرآن، فقال في كتاب «الفصل»: «ولا عجب أعجب ممن إن وجد لامرئ القيس، أو لزهير، أو لجرير، أو الطرماح، أو لأعرابي أسدي أو تميمي، أو من سائر أبناء العرب لفظاً في شعر أو نثر، جعله في اللغة، وقطع به، ولم يعترض فيه، ثم إذا وجد الله تعالى خالقِ اللغات وأهلها كلاماً، لم يلتفت إليه، ولا جعله حجة، وجعل يصرفه عن وجهه».

وهكذا نرى في الكتاب عشرات النصوص القوية التي تسلك مسلكاً جديداً في الفهم، ولو كانت هذه مزية الكتاب وحده، لكفته فخراً، فكيف إذا لم يدع شبهة تحوم إلا بددها برأيه ونقله وعقله في بصر وتمكين؟!.

وكأن المصادفات العلمية الفذة قد هيأت للرجل أن يجول الجولة الثانية بمصر، حين صدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعالم من علماء الأزهر، قد امتلأ يقيناً بأقوال الاستشراق، فجعلها المنبع الأول لفهم الحكم في الإسلام على نحو يقرب من تعاليم المسيحية وحدها، إذ أن المعروف المتفق عليه أن المسيحية دين لا دولة، ولكن الإسلام شيء، والمسيحية شيء آخر، فالإسلام دين ودولة، والرسول حاكم ومبلغ معاً، ونصوص القرآن مليئة بما يجعل هذه الحقيقة في مرتبة البدهيات!

ولكن الأستاذ علي عبد الرازق، يجهر بدعواه، واهماً أنه وحده صاحب

القول الفصل! وقد تطرق إلى الرد عليه في الصحف اليومية من لا يقف معه في مستوى واحد، كما وجد من تساند الإلحاديين وتكالبهم على تأييده بما يملكون من صحف وأندية وأقلام ما يخلع على كلامه بعض الوجاهة لدى الضعفاء، ولكن السيد محمد الخضر ـ نضر الله وجهه ـ يتصدى لهذا الإفك الصريح، فيأتي على بنيانه من القواعد، وكان مجاله النقدي هذه المرة في قمة من القوة والتمكن والإفحام؛ لأن الجدال ليس في الرواية والقصص والانتحال كما في أكثر فصول «الشعر الجاهلي»، ولكنه يدور حول قواعد أصولية عميقة في الفقه والحكم والتشريع، ويجد من تاريخ الإسلام الحافل برجاله وحوادثه ومؤلفاته ما يعين على جلاء الشك، ورد الزيغ، لذلك كان مؤلَّف الخضر حجة قوية تقود المنصفين إلى مراشد اليقين، وقد ظل الأستاذ علي عبد الرازق ضائقاً به حتى بعد ربع قرن من صدوره، وانتهاء المعركة على نحو يرضي المخلصين، فقد قرأت بالسنة الثامنة ـ على ما أذكر ـ من مجلة «لواء الإسلام» كلمة للأستاذ علي عبد الرازق تنبئ عن غضبه الموقد على الأستاذ، وتعيب طريقته في نقد الكتاب، ومجمل العيب في رأي الأستاذ عبد الرازق أن الأستاذ الخضر ينقل كل نص من نصوص الكتاب على حدة، ثم يفنده بالرأي والدليل، وذلك أدعى إلى تمزيق الفصل الواحد وتشتيته. ونحن نقول للأستاذ عبد الرازق: إنه قد ظلم الحق فيما قال؛ لأن هذه النصوص تأتي متوالية متعاقبة، وقارئ النقد يستطيع أن يجمعها بسهولة لتكون كل ما جاء بالفصل الواحد من الكتاب، وهي بعد خير وأقوم من مسلك ناقد يلخص الموضوع من عنده، ثم يعقب عليه، إذ ربما فات من التلخيص شيء هام لا يعرفه القارئ المحايد، ولا ندري كيف يحافظ الخضر على نصوص الكتاب

جميعها، فلا يسقط منها شيئاً ذا بال، ثم يكون ذلك مطعناً يوجه إليه من ناقد نبيه؟! إن الغيظ وحده لم يستطع أن يخمد في نفس المنقود على تطاول الأيام به حتى وجد المنفذ على صفحات «لواء الإسلام»! ولو كان نقد الأستاذ عبد الرازق للأستاذ الخضر علمياً نزيهاً، ما تعرض لأمور شخصية لا تتصل بالبحث في شيء، ولكنه تخيل الموهوم، ثم خاله حقيقة، فتيقنه! على طريقة بعض الناس.

لقد كان تمكن الخضر في الدفاع مدعاة التقدير من ذوي الأحلام، فتقدم لامتحان العالمية بالأزهر، وكان الشيخ عبد المجيد اللبان رئيس اللجنة مع نخبة من زملائه المختارين، فأبدى الشيخ من الرسوخ والتمكن ما أدهش، حتى إن الشيخ اللبان صاح بملء فيه: «هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج؟!». ونال الشهادة العالمية الأزهرية، وبها صار أستاذاً في الأزهر، فمدرساً بكلية أصول الدين، بل كانت طريقه فيما بعد إلى مشيخة الأزهر ذات القدر الخطير!

وقد اتجه الأستاذ إلى تأسيس الجماعات الدينية، فكان أحد مؤسسي جمعية الشبان المسلمين، وقد وضع لائحتها الأولى مع صديقه محب الدين الخطيب، وقامت هذه الجمعية برسالتها المخلصة في هداية الشباب الإسلامي، ومحاربة الإلحاد العلمي، والنزق الخلقي، واستطاعت أن تصد هجوم الحضارة الملحدة المادية بما تقوم به من ندوات ومحاضرات، وما تنشره من صحف ومؤلفات.

وكأني بالخضر وقد شاء أن ينشئ جماعة الهداية الإسلامية؛ لتساند أختها في الدعوة إلى الله، وقد كان نشاطها علمياً أكثر منه اجتماعياً؛ إذ أن

محاضراتها المتتابعة قد وجهت الأذهان إلى كنوز الثقافة الإسلامية، كما أن مجلتها الشهرية كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ. وإذا عرفنا أن مجلة «الأزهر»، ومجلة «لواء الإسلام» قد ظلتا سنوات عديدة تصدر عن رأي الشيخ وتوجيهه، أدركنا جهاده الشاق في مضمار الصحافة العلمية الراقية، وعرفنا مصادر متنوعة تجمع إنتاجه الدسم الفياض، هذا ولم يفت الأستاذ أن يحارب على صفحات هذه المجلات جميعها ما يند من الأقوال المتطرفة في الأدب واللغة والدين، حتى اختلف في الرأي مع أناس مخلصين لا ترقى إليهم الشبهة في علم أو خلق أو دين، ولكن العلم الأصيل شيء غير الإخلاص والخلق، فقد يكون المخلص الغيور متسرعاً ينظر إلى زاوية واحدة، فلا بد أن يناقشه إنسان مطمئن ثاقب النظر منفرج الزوايا واسع الاطلاع كالأستاذ الخضر، والنقاش بعدُ سديد مفيد.

هذا وقد اختير الرجل عضواً بالمجمع اللغوي بمصر، فأبدى من الآراء السديدة في الإصلاح اللغوي ما تشهد به مجلة المجمع، ومحاضر جلساته، وهو أول من أعلن بالمجمع صحة الاحتجاج بالحديث النبوي، وأحد من اشتركوا في معارك النقاش اللغوي حول الوضع الاصطلاحي، وحق المحدثين في وضع الكلمات، هذا غير ما خاضه من بحوث تتعلق بالاشتقاق، والتعريب، والفصيح، والدخيل، وجموع التكسير قياسية وسماعية، مما يشهد بالتخصص الماهر الفاحص في فنون اللغة والبيان، على أنه تقدم إلى هيئة كبار العلماء برسالة في القياس، يقول المغفور له الأستاذ محب الدين الخطيب عنها بمجلة «الأزهر» شعبان سنة ١٣٧٧هـ:

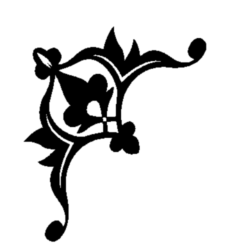
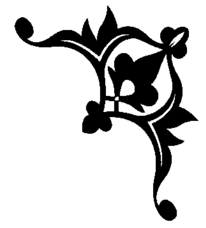
«وفي أثناء إقامته بدمشق شرع في دراسة كتاب «مغني اللبيب» في علم

العربية لجمال الدين بن هشام، بمحضر جماعة من أذكياء طلاب العلم بدمشق، وكان يرجع في تقرير المسائل المتصلة بالسماع والقياس إلى تلك الأصول المقررة والمستنبطة، فاقترح عليه أولو الجد من الطلبة جمع هذه الأصول المتفرقة؛ ليكونوا على بينة منها ساعة المطالعة، فألف مقالات تشرح القياس، وتفصل شروطه، وتدل على مواقعه وأحكامه، ومن هذه المقالات تألفت رسالة «القياس في اللغة العربية» التي أعاد عليها النظر بمصر». وهي ـ كما رأيتها ـ تجمع الأصول العالية في أحكام القياس والسماع، وتضم فصولاً عن شروط القياس وأقسامه، وقياس التمثيل، والقياس الأصلي، مع إيضاح الأمور المشتركة بينهما، هذا إلى أبواب في فضل اللغة العربية، ومسايرتها للعلوم المدنية، وحاجتها إلى المجتمع، وحاجة المجتمع إليها، وتأثيرها في التفكير، وتأثير التفكير فيها! وغير ذلك كثير! فإذا أضفنا إلى رسالته عن القياس رسالته الأدبية في الخيال العربي، عرفنا جهد هذا الأديب، كما عرفنا من قبل مقام ذلك الفقيه!

أما مشيخته الكبرى للأزهر، فقد كانت دليلاً على أن الله لا يتخلى عن رجاله المناضلين، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المضينة في الدين واللغة والأدب تضيع بدداً دون تقدير مادي ملموس، فرأى الأزهر لعهده حلقة ذهبية من حلقات الكمال والجلال والوقار، وطفق الزائرون من كتاب وعلماء وصحافيين يتقاطرون على مكتبه، وكلهم يسأل عن أمور هامة في الإصلاح الديني، والتشريع الإسلامي، والتقدم الحضاري، فيجد الإجابة الرصينة السديدة يفوح بها شيخ الإسلام الدارس المستنير، ولكن أعباء السنين تتراكم على كاهله الضعيف، فيترك المشيخة معتكفاً محتسباً حتى يلبي نداء

ربه في ١٣ رجب سنة ١٣٧٧هـ، وهو التاريخ الهجري الذي كان ﷺ يحرص على تدوينه في كل مكاتبة أو رسالة، ونحن نسجل به رحيله الطاهر إلى ساحة الرحمة والرضوان في جنة عرضها السماوات والأرض.

❏ ❏ ❏

محمد الخضر حسين
ذلك الجنـدي المجهـول

بقلم عبد القادر سلامة

«الأستاذ عبد القادر بن عمر سلامة، عالم، فاضل، حافظ لكتاب الله. ولد عام (١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٨م) في «قصبة المديوني» التابعة لولاية «المنستير» في تونس.

تلقى علومه في جامع الزيتونة، وحصل على شهادة التطويع عام (١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٨م)، وعمل في التجارة طيلة حياته مع المواظبة على المطالعة، والدعوة إلى الله بالحسنى. أصدر مجلة «المعرفة» في تونس عام ١٩٦٠م، وهي إسلامية شهرية»[١].

تسائلني: هل في صحابك شاعر ... إذا متُّ قال الشعر وهو حزين؟!

فقلت لها لا هم لي بعد موتتي ... سوى أن أرى أخراي كيف تكون

وإن شئت تأبيني فدعوة ساجد ... له بين أحناء الضلوع حنين!!

(من ديوان «خواطر الحياة» طبعة ثانية، ص١٧٧)

كان ـ رحمه الله ـ علماً من أعلام الإسلام، وكان تعريفاً وتشريفاً للتونسيين وجامع الزيتونة، ومفخرة للمغرب الإسلامي كله، كان خلقه قبساً من شمائل النبوة، ومشكاة من هدي القرآن.

---

(١) بحث منشور في مجلة «المعرفة» التونسية، العدد السادس من السنة الخامسة.

عرفته، وعجبت منه وهو يخف لزيارة كل تونسي يقدم القاهرة في طريق الحج، أو لأمر خاص، فيسأل عن أحوال تونس صغيرها وكبيرها:

هات الحديث فإنني أصبو إلى أبناء تونس من صميم القلب جدا

«خواطر ٧٢»

كان يحب تونس وأهلها حباً جماً، وحب الوطن من الإيمان:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن شَحُّوا عليّ كرام

كان نعم المشير والوزير، شديد الحفاظ على المودة والإخاء، واصل كل من وصل مصر من علماء تونس وقادة حركة تحريرها، وجمع العاملين لتحرير المغرب، واتصل بمن يزور القاهرة من أكابر وعظماء العالم الإسلامي.

كان لا يجاهر بالسوء، ولكن سرعان ما يسل ثيابه من كل عمل أو زعيم يتبين له أنه داع لضلالة، أو مسرف على نفسه، أو عدو لله.

كان شديد الاستمساك بمذاهب أهل السنة والجماعة، لا يجامل في انحراف، ولا يماري في خلاف، ولا يطعن مخالفاً من خلاف، مجلسه مجلس علم وحلم، ودين ووقار، سمته سمة الصالحين.

يغضي حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

ذو همة عالية، وطموح كبير، وأمل واسع، يجاهد لإعلاء كلمة الله، وقد حفظت منه هذه الآية وكأني لم أقرأها في كتاب الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

يهتم بشؤون جميع المسلمين، ويسعى لجمعهم على العمل لطاعة الله وطاعة رسوله، متحركاً لا يسكن، ولا يشكو رهقاً ولا ضنى ولا غربة.

إن الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ لم يعتمد في خدمة قضيته الكبرى قضية الإسلام والمسلمين على الطبقة العامة، قاعدة الشعوب، كما يحلو لهم أن يقولوا، بل أوكل ذلك إلى كفاءة أعضـاء الجمعية، ومجلـس إدارتها، وأكثرهم علماء من الأزهـر، يتناوبون الخطابـة والوعظ والدروس على المنابر، وعقب الجمعة في الجوامع، وفي مراكز فروع الجمعية بمصر والعراق وسوريا، أما جمعية الهداية الإسلامية، والتي أنشأ لها مجلة باسمها ترأس الشيخ إدارتها ورئاسة تحريرها أكثر من ربع قرن، فقد رزقه الله بسطة في العمر والعلم أحسب أنه عمل فيهما بما يرضي الله، وبما لا يلحقه في ذلك غيره.

الغرض من تأسيس جمعية الهداية الإسلامية ومجلتها (١٣٤٦ ـ ١٩٢٨): القيام بما يرشد إليه الدين الحنيف من علم نافع، وأدب رفيع، وخلق كريم، وتعتمد في تحقيق هذا الغرض على الوسائل الآتية:

١ ـ السعي لتعارف الشعوب الإسلامية، وتوثيق الرابطة بينها، ورفع التجافي بين الفرق الإسلامية، والتعاون مع كل جمعية تسعى لهذه الغاية.

٢ ـ نشر حقائق الإسلام بأسلوب يلائم روح العصر.

٣ ـ مقاومة الإلحاد والدعايات غير الإسلامية في الأوطان الإسلامية بالطرق العلمية.

٤ ـ الجهاد في إصلاح شأن اللغة العربية وإحياء آدابها.

وقد كان همّ الشيخ وسعيه منصباً على توجيه وتثقيف المثقفين والواعين من الأمة، وتجميعهم، وهم قليل جداً في ذلك العهد السحيق في أول هذين القرنين، وابتدأ عمله المبارك بتونس، ثم بسوريا، ثم بتركيا في الحرب العالمية

الكبرى الأولى، وسوريا ثم بمصر بين الحربين العالميتين، ثم بعد الحرب الثانية إلى أن توفاه الله بالقاهرة (١٣٧٨ ـ ١٩٥٨).

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

كنا ونحن صغار يحدثنا شيوخنا عن فضائله ومآثره، ويقولون: هو رجل سبق زمانه، وكانوا يصفونه بالعلم الغزير، والجواب الحاضر، والنكتة اللطيفة، والملاحظة الدقيقة، مع الجسارة في الدعوة إلى الإصلاح، ورفع هذه الأمة من كبوتها، فكان يدرس ويحاضر، وينشئ القصائد، وجرى أترابه ومن بعده على ذلك؛ كزميله الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، وأصدر مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة عربية في المغرب، وإن ذلك التحرك والنشاط لخدمة الإسلام والعربية في ذلك العهد السحيق ليعد بحق من العجائب والنوادر، وكلما زاد إعجاب الناس بأعماله، وإكبارهم له، وتأثرهم به، كلما زاد حنق المستعمرين عليه، وغضبهم منه، فضاقوا به ذرعاً، وضاق بهم، وهاجر إلى معقل آمال المسلمين في ذلك العهد دار الخلافة الإسلامية إسطنبول، وقد سبقه إليها وإلى الشرق علماء وفضلاء كثيرون، منهم: العلامة الرحالة محمد بيرم الخامس، صاحب «صفوة الاعتبار»، والشيخ صالح الشريف، وخال الشيخ العلامة محمد المكي بن عزوز، المتوفى بإسطنبول سنة ١٣٣٤، وقد رثاه الشيخ بقصيدة في ديوان «خواطر الحياة» (ص١٨٠).

وقد ترى أن النوابغ في المغرب تشرق من المغرب، وتغرب بالمشرق.

وأقام وأهله وإخوته بدمشق، وكان لهم فيها مآثر محمودة لا تزال جارية إلى الآن، وقد كانت سورية بعد الحرب الأولى عند قسمة تركة الرجل المريض من نصيب فرنسا، فلجأ الشيخ إلى مصر، وقد كانت مصر ملجأ

الأحرار، وقلب الإسلام الحنون، إليها يلجأ المستجيرون والعاملون لعز الإسلام وتحرير الأوطان:

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما سر يوماً بالإياب المسافر

هناك، وقد سبقه صيته العلمي والحركي، أحاط به خبرة من علماء الجامع الأزهر وأهل الفضل ولا يعرف الفضل إلا ذووه، فانتضى قلمه المتبحر في العلوم الإسلامية، ليظهر ويحبط كيد المستشرقين والمعجبين بهم في محاولاتهم الإجهاز على المسلمين في عقائدهم وثقافتهم، بعد أن أجهزوا عليهم عسكرياً، واحتلوا أرضهم، واقتسموها بين الأقوياء منهم، فصمد إليهم الشيخ للرد على شبهاتهم واتهاماتهم، ونقض غَزْلهم أنكاثاً بما كان ينشره من المقالات والمحاضرات، وألف كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، و«نقض كتاب الشعر الجاهلي» لطه حسين، وفي كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» كشف زيغ المذاهب الهدامة؛ كالبهائية، والقاديانية، ووجدت فيه الجماعة الإسلامية بمصر نعم المعين على نوائب الحق، فوقروه، وعزرّوه، أمثال: المرحوم أحمد تيمور باشا، والشيخ علي محفوظ، واقتدى به وغبطه كثير من علماء الأزهر، فأسسوا هم بدورهم المجلات والجمعيات؛ كجمعية مكارم الأخلاق، ومجلتها، وكان بينهم نشاط محمود، وتنافس وتسابق إلى الوعظ والإرشاد والتعليم والدعوة إلى الله وإلى محاسن الأخلاق.

نزلتُ القاهرة سنة (١٩٣١ ـ ١٣٤٨)، وزرت الشيخ في دار جمعية الهداية الإسلامية، ومجلتها بهذا الاسم، وسألني الشيخ المشوق لمعرفة أخبار تونس عما جد في مشروع التجنيس، وهو المشروع الذي فتح للتونسيين الحصول

على الجنسية الفرنسية، فيكون للمتجنس الوعد بالمساواة مع الفرنسيين الممتازين بزيادة الثلث على مرتباتهم، والدخول إن أمكن للوظيف العمومي، والقروض لإحياء الأرض الدولية التي توزع على الفرنسيين، ونقل قضايا الخصام إلى المحكمة الفرنسية في الأحوال الشخصية وغيرها، إلى آخر ما هنالك من الامتيازات للمستعمرين الذين يريدون إذابة الجنسية التونسية والملة الإسلامية، وكان قد أشيع بتونس أن شيوخ المجلس الشرعي قد أفتوا بجواز التجنيس وبقاء المتجنس على إسلامه، وسارت في الشعب فورة استنكار وغضب، وقصصتُ الإشاعة كما هي للشيخ، فاستفهمني عن هذه النقطة بالذات، فقلت له: إنها شائعة في البلاد، فظهر في نبرات السؤال الألم لهذا الاتهام، والإنكار له، فعلمت أني أخطأت في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

وإنا كنا ولا زلنا نشيع في الناس ما يوحى به إلينا من تحطيم المخالف في الرأي بكل الوسائل، وكان الواجب على المسلم أن يرفض ما يرمى به أخوه من السوء، وأن يحفظ لسانه من قول الزور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور: ١٩].

واستشرت الشيخ في أمر مرة، فقال بصراحة المؤمن: لا أستطيع ذلك، فكان الرد جميلاً، لا يعد فيخلف، واستشرت مرة أخرى آخر، فوعد وأخلف، ووصل الحديث مرة إلى التعليم في الأزهر والزيتونة، فقلت له: ما تركته ورائي بجامع الزيتونة أحسن مما وجدته هنا بالأزهر، فصادق على قولي، وقال: هو كذلك. وحضرت محاورة بينه وبين عضده في الجمعية المرحوم علي محفوظ

في دقاقة الأعناق، وهي العشر سنين التي بين الستين والسبعين، وقد وصلها، وكل عشر سنين من العمر لها اسم خاص، وقد رأيت له في ذلك أبياتاً في ديوانه «خواطر الحياة» (ص١٨٢) طبعة ثانية منها:

قضيت ستين عاماً في الحياة وهل قضيت يومين منها في رضا الله؟
فلا يغرنك أقلام وألسنة تقول إنك ذو علم وذو جاه
وما أبرئ نفسي والهوى يقظ بين الجوانح وهو الآمر الناهي

وكان يأمر باستدعائي لحضور المآدب التي يحضرها ويقيمها للمشايخ التونسيين المنتسبين للجامع الأزهر في بيت صديقنا الحاج محمد أبو شعالة، وممن حضرها من الأحياء الذين أذكرهم: الأستاذ عبد السلام خليف، وابن عمه الشيخ البشير، وحدّث على ما كان يحدث في تلك المجالس من تعارف وود، وعلم وسياسة، وأدب وفكاهة، وقد كنت أتصل بالشيخ عبد العزيز الثعالبي، وعرفت اتجاه الشيخين والبعد ما بينهما، وكذلك ما يفصل بين الشيخ والشيخ رشيد رضا، وسبب انفصال الشيخ عن جمعية الشبان المسلمين بعد أن كان من أعضاء إدارتها، ومن المؤسسين لها، حتى آل أمرها إلى الانضواء تحت مظلة الناصرية أخيراً.

كانت لي مع الشيخ ـ رحمه الله ـ مراسلات، وكان لي مع أخيه الشيخ محمد المكي بن الحسين لقاءات، وكان آخر لقاء لي مع الشيخ الخضر حسين مرتين سنة (١٣٧٥ ـ ١٩٥٥): مرة بالقاهرة، ومرة بدمشق في دار أخيه الأستاذ زين العابدين، وكانت بحضرة ابن أخيه المحامي الآن الأستاذ علي الرضا الذي كان له الفضل الأكبر في جمع ونشر تراث عمه في كتب قيمة أثرت المكتبة الإسلامية، وعرّفت الناشئة ببعض مآثر ومفاخر هذه العائلة النبيلة،

ولولاه لضاع هذا التراث العظيم الذي لا زال مغموراً، ولم يكشف عن محاسنه بالدراسات والمناقشات الجامعية، ولم يدرس، ولم ينتفع به، فعسى الله أن يهيئ لهذا العالم المسلم المخلص من يكتب عنه، ويعرف به، وينشر كتبه وشعره وعلمه بين الشباب المسلم الناهض الذي كان عمل الفقيد العظيم من أجله، وأختم هذه الكلمة بفقرات من كلامه تيمناً وذكرى.

ختم كلمته في حفلة تأبين الدكتور ستومو الأندونيسي:

حقاً إن أرضنا لا تنبت من المجاهدين إلا قليلاً، ولا يغرنا كثرة أسماء الزعماء؛ فإن فيهم المرائي والجبان، وصاحب الذمة التي تباع بثمن بخس، ومن هؤلاء من ترونه ينوح على الإسلام علانية، ويقتل دموعه، ولكن بأنامل تبيت تطعن في مقاتله خفية، ولا عجب أن تروا الأنامل الملطخة بدم الجريح مبتلة بدموع البكاء عليها؛ فإن الذي يستطيع أن يلاقي الناس بوجهين، ويحدثهم بلسانين، يستطيع أن يتخذ دموعاً ليست من نوع الدموع التي تبعثها حرارة الإيمان على الحق.

في الزعماء ناصح للأمة يجاهد لسلامتها ورفعة شأنها، وفي الزعماء مخادع للأمة يتخذ زعامتها حبالة يصطاد بها مطمعاً لذيذاً، أو ملبساً أنيقاً، بل يتخذ زعامتها معولاً يهدم به الباقي من صرح سيادتها، وفلاح الأمة في ممايزتها بين المخلص الأمين، والمداهن الأثيم، ولا تطمح الأمة أن تسير سيرة رشيدة، أو ترقى في عزة راسخة إلا أن يكون في صدر سائسها إيمان بخالقها، وغيرة على حكمة شريعتها الإسلامية.

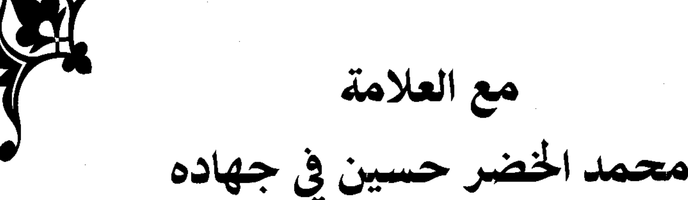
وقاوم الإلحاد وجمعيات التبشير ومدارسها، ونبه إلى أخطارها، ودعا إلى مقاطعتها:

إن المبشرين لم يأخذوا أبناء المسلمين وبناتهم بالقوة من بيوت آبائهم، وإنما الذي قذف بهؤلاء البنات والأبناء إلى هذه المدارس هم آباؤهم وولاة أمورهم، فجنوا بذلك على الوطن، وعلى الدين، وعلى رجال المستقبل وأمهات المستقبل أعظم جناية.

ومن ذلك ما كتب به لوزير المعارف على طه حسين الذي يسميه: عدو الله: «عرف الناس منذ سنين أن الدكتور طه حسين يعمل لهدم العقائد الإسلامية، وإفساد الأخلاق الكريمة، فكانوا يأسفون أشد الأسف على طائفة من شبابنا، يدخلون الجامعة ليتغذوا بالعلوم الصافية، والتربية الصحيحة، فيقعدون بين يدي هذا الرجل الذي يعمد إلى تلك الفطر السليمة، فينفخ فيها زيغاً، ويثير فيها أهواء. . . إلخ».







مع العلامة
محمد الخضر حسين في جهاده

بقلم سعدي أبو جيب

«ولد في مدينة دمشق عام (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م)، وحصل على الإجازة في الحقوق، وعمل في القضاء والمحاماة.

مؤلفاته: موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي - الوجيز من المبادئ السياسية في الإسلام - الماسونية - المعوق والمجتمع في الشريعة الإسلامية - القاموس الفقهي - التأمين بين الحظر والإباحة - مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية - دراسة في منهاج الإسلام السياسي - سحنون»[1].

من علماء أمتي من سفح على القرطاس عمره، وعاش في كهف العلم، حتى غدت الكلمة لا تخرج منه إلا على محفة من الكتب، في موكب من الأعلام..

ومنهم من أتاه الله بسطة في القلب والفكر، فعاش مع العلم، وعاش حياة الأمة، ومتاعبها، وآلامها.. حتى غدت لا تبرح ضميره، ولا تفارق فكره.. فهو يقلب طرفه في سماء المجد، والسؤدد، والصلاح، يبحث عن أقصر سبيل يوصل أمته إلى كل ذلك.

---

(١) مجلة «حضارة الإسلام» بدمشق - العدد الرابع - السنة ١٨ (جمادى الآخرة ١٣٩٧ - حزيران ١٩٧٧).

هؤلاء هم صفوة الصفوة من أهل العلم، بل هم العلماء الحق في قول علامتنا الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ . . . : «من وظيفة العالم مراقبة سير الأمة، حتى إذا اعترضها خلل، أرشد إلى إصلاحه، أو ضلت عن حق، قادها إلى مكانه. ومن تصدى لتقويم الخاطئين، ورد جماح المبطلين، يلاقي بالطبيعة أذى، ويجد في طريقه عقبات لا يقتحمها إلا ذو عزم ثابت، وإقدام لا يتزلزل. وكم من عالم يفوقه أقرانه علماً وألمعية، ولكن ينهض لإحياء سنة، أو إماتة باطل، ويلاقي في جهاده شدائد، فيجتازها بنفس مطمئنة، ولا يلبث أن يرجح وزنه، ويبعد في حلبة السباق شأوه. ولو كشف لنا الغطاء عن حياة العلماء الذين أوذوا في سبيل الدعوة إلى الخير، ولم ينحرفوا عن خطتهم فتيلاً، لرأينا كيف ارتفعت منزلتهم، وتجلى وقارهم، حتى في عين من كان يسومهم سوء الأذية، أو يشفي غليل صدره أن يصرعوا في مصارع الاضطهاد.

الرجال الذين أحرزوا هذه المزايا، واستحقوا لقب العالم المصلح ليسوا بكثير. فلو قلبت نظرك في السنين الماضية، وصعدت به إلى عهد قريب، رأيت المعاهد العلمية إنما تبعث في العصر الواحد الرجل أو الرجلين. . . »[١].

هل ترى إمامنا الأكبر من هذه النخبة المختارة التي قلما يجود بمثلها الزمان؟

سنسير معه في درب الحياة خطوة خطوة؛ علّنا نهتدي إلى الجواب. .

---

(١) «الدعوة إلى الإصلاح» (ص١٤٦).

*** مولده ونشأته:**

أدرك علامتنا النور في يـوم خير من سـنة (١٢٩٣ ـ ١٨٧٣) في بلدة «نفطة»، واحة النخيل في جنوب تونس، البلدة التي أنبتت عدداً مباركاً من العلماء، حتى وصفوها بالكوفة الصغرى...

ولقد رضع علومه الأولى من بيته، من فكر أمه السيدة حليمة السعدية بنت العلامة الكبير مصطفى بن عزوز ـ رحمة الله عليه ـ التي قامت بتدريسه، مع إخوته العلوم الدينية واللغوية، حتى إنه أخذ عنها كتاب الكفراوي في النحو، وكتاب السفطي في الفقه المالكي...

هكذا الأم، وإلا فلا...!

وحين أشرف هذا الألمعي على المراهقة انتقلت أسرته إلى مدينة تونس العاصمة، واستقرت بها...

*** في الزيتونة:**

وفي جامعة تونس العتيدة: الزيتونة، الدوحة المباركة بالعلم وأهله، التي لا ينضب نورها الدافق من الإسلام، ترعرع علامتنا الكبير، وزكا فكراً وأدباً، حتى حاز الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.

ولما أصبح في واحة العلم نخلة باسقة، ضمته الزيتونة أستاذاً ومربياً. وفي أيلول من عام ١٩١٢ غادر تونس وزيتونتها، وفي نفسه حرقة، وفي ضميره ثورة، وفي العين عبرة...

*** الرحيل:**

لماذا يرحل هذا الطود الشامخ من العلم؟

أملَّه الأهل والأحبة؟ أم ملّ هو من الأهل والأحبة...؟

لا . . . كل هذا لم يكن . . .

لقد لوثت أقدام الغزاة الفرنجية التراب التونسي العبق في يوم حزن من عام ١٨٨١ ، كما فعلوا قبل خمسة عقود من السنين في القطر الجزائري الحبيب .

هب عالمنا الكبير للجهاد، لا بالسلاح، ولا بالدم، فالاستعمار قد أناخ بكلكله السمج على بلاده الجريحة، وإنما بالقلم والفكر يبعث الروح، والأمل المتشوف إلى فجر مشرق لابد أن يأتي بعد الليل المدلهم . . ولذلك فقد أصدر مجلة «السعادة العظمى»، وأسس بنيانها على العلم، والعقل، وجعل رسالتها الدعوة إلى الدين الحنيف؛ بتفسير آيات التنزيل العزيز، وشرح الحديث الشريف، وترسيخ العقيدة الصحيحة لرد كيد الضالين المضلين، وإرساء قواعد التشريع العظيم في الحياة بكل أبعادها، ونشر الأخلاق والفضيلة، كل ذلك بلسان عربي مبين[1] .

كانت هذه المجلة صرخة عنيفة في ضمير الأمة كي تنهض من كبوتها، وتدرك التخلف الذي أدى بها إلى أن تقع مهيضة العزة تحت الاحتلال .

وكانت وخزة مُرَّة في جنب العدو المستعمر تنخر في حياته، ولا بد أن تأتي عليه . .

وزاد في أثر هذه المجلة الغراء : أن بيت صاحبها غدا دار ثورة للفكر

(١) مقدمة العدد الأول من المجلة الذي صدر في ١٦ محرم ١٣٢٢هـ. تحدد رسالة المجلة ومنهجها . وعندي أن هذه المجلة، ومجلة «العروة الوثقى» التي أصدرها في باريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده قد أحدثتا ثورة فكرية ـ على قصر حياتهما ـ لم تعرفها الصحافة العربية .

والأدب، والثقافة والوعي الاجتماعي.

لكل هذا وذاك عمد المحتل الغاشم إلى المجلة، فأغلقها بعد أقل من عام من صدورها، وكان العدد الأخير يحمل الرقم الحادي والعشرين، وقد صدر قي ذي القعدة ١٣٢٢هـ. .

فهل يسكن الثائر المجاهد، ويستكين؟ . . .

ها هو ذا بعد سنتين من وأد المجلة يقف بشمم وإباء في عام ١٣٢٤ يلقي محاضرة في تونس بدعوة من جمعية (قدماء تلامذة الصادقية) بعنوان: «الحرية في الإسلام»[1] قبض فيها قبضة من أثر الدين الخالد، ونثرها على الحاضرين، بل على مجتمعه بأسره، جواهر تصف الحرية ومعناها، والمشورة ومبناها، والمساواة بين السيد والمسود، والأمير والمأمور، وتحدث عن حرمة الدماء والأعراض والأموال. .

في مستهل كلمته حمل على المستعمر، ووصف الأمم التي تبيح لنفسها استعباد الأمم الأخرى، فقال: «الأمم المتوحشة يستهوي بها الاستئثار بالمنافع والنفيس من الفوائد أن ينسل أولو القوة منها نحو أموال الذين استضعفوا، ويصولوا عليها صيال الوحوش الضارية، ثم ينصرفوا بها إلى مساكنهم غير متحرجين من أوزارها، كأنما انصرفوا بتراث آبائهم وأمهاتهم، أو خصهم الله بما خلق في الأرض جميعاً».

وأخيراً طفح الحقد من قلب المستعمر، وكل إناء بالذي فيه ينضح، فأحكم التضييق على علامتنا الكبير حتى حمله على الرحيل عن الوطن، وأهداه

---

(١) «محاضرات إسلامية».

بعد حين وسام العز الرفيع: حكم الإعدام، الذي يزين عنق المجاهدين.

أعلمتم إذن سبب الرحيل..؟

فإلى أين سيتجه يا ترى...؟

*** في دمشق:**

إنه في دمشق، عاصمة المجد العربي الخالد، لا يعرف أحداً، ولا يعرفه أحد..

ولكن هل تخفى الشمس؟

وفي عصامية عجيبة انطلق وراء رزقه، ورزق عياله، يعمل في مدارسها، حتى اندفعت إليه نخبة مختارة من كرام أبناء هذه المدينة العتيدة، تنهل من نمير علمه العذب، ومن شخصيته الفذة، ومنهم: أستاذي الكبير علامة الشام محمد بهجة البيطار ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ..ومن حديث شيخي وقعت في نفسي الهمة الشماء، والعصامية الأبية التي كان يتحلى بها الشيخ الكبير..

ومرت الأيام.. حتى كان يوم نحس من عام ١٩٢٠ حين دخل الفرنسيون دمشق على جماجم أبطالنا في ميسلون، إنهم نفس الغزاة، حملة رائحة الاستعمار والاستعباد التي تلوث جو الكون، الذين احتلوا المغرب العربي وشطراً من أرض الشام..

فإلى أين يذهب العلامة المجاهد...؟

إلى أين...؟

*** في مصر:**

إلى القاهرة يمم وجهه، وذلك في عام ١٩٢٢، كما فعل العديد من

كرام رجال الوطن السوري.

وهنا ندخل في طور جديد، وسعيد في حياة الجهاد التي عاشها علامتنا الجليل...

في دنيا العلم أحرز قصب السبق، ها هو في الأزهر الشريف يدرّس الفقه في كلية أصول الدين، ثم يقدم رسالة علمية رائعة «القياس في اللغة العربية» ينال بها عضوية هيئة كبار العلماء.

وفي عام ١٩٥٢م تم اختياره شيخاً للأزهر، ولقي وجه ربه سنة ١٩٥٨م.

أما في دنيا الجهاد، التي عنها نتحدث، فهل خبت جذوته في نفسه الكبيرة، وفي القاهرة ما فيها من علوم وعلماء، ومن دراسات وأبحاث، ولا سيما بعد أن أصبح عضواً في المجمع اللغوي فيها، وفي المجمع العربي بدمشق؟

لا.. لن يكل السيف المشرع تحت راية الجهاد الحق حتى تتحرر بلاده، أو يهلك دون ذلك.

هو في القاهرة، وقلبه يحمل وطنه، وما يعاني.. أتريد أن تلمس وهج حب تونس في هذا الفؤاد العامر؟... ترنم معي إذن بهذه الأبيات التي انتقيتها لك من شعره[1]:

وطنـي علمتنـي الحـب الـذي ... يـدع القلـب لـدى البيـن عليـلا

لا تلمنـي إن نـأى بـي قـدر ... وغـدا الـشرق مـن الغـرب بـديلا

عزمـة قـد أبرمتهـا همـة ... وجدت للمجد في الظعـن سـبيلا

---

(١) ديوان «خواطر الحياة».

أنـا لا أنــسى علـى طـول النـوى وطنــاً طــاب مبيتــاً ومقــيلا

بل هو يعجب من شعراء عكفوا على اللهو والمجون، ووطنهم يعاني ما يعاني:

وأنفع الشعر ما هاج الحماسة فـي شعب يقاسي اضطهاد الجائر الأشر

مـن ذا يقـيم علـى أرض يظللهـا ضيمٌ، ويحسن وصف الدلِّ والحور

وتعاوده ذكريات صباه في تونس، فيجد شيئاً من حلوها، إلا أنه ينقلب علقماً في نفسه حين يرتد إليه طرفه مشـمئزاً من صورة جيـش الاحتلال، فيقول:

ليــال قــضيناها بتــونس ليتهــا تعــود وجـيش الغاصــبين طريــد

نعم.. لقد عاد لتونس أريج الحرية، بفضل الله سبحانه؛ لأنه أقدرك يا سيدي العلامة على النضال الذي كنت تغذي به رجال السياسة والعلم والأدب، حين كانوا يتوافدون إلى دارك العامرة، وإلى رابطة (تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) التي أسست، والتي قامت بعقد المؤتمرات والندوات لشرح قضية المغرب العربي للعرب، وللمسلمين، وللعالم[1]، وإلى (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) التي لعبت دوراً رائعاً في وحده النضال عند شباب المغرب العربي الأحرار.

كيف ينسـى تونس الخضـراء، وهو الذي ألقى المحاضرات، وكتب الدراسات المستفيضة عن الحالة العلمية في ذلك الوطن، وقدم بأدب وفخر

(١) رفع علامتنا الكبير مذكرة إلى دول العالم شرح فيها مساوئ الاحتلال الفرنسي، وقد نشرت في كتاب: «تونس وجامع الزيتونة» (ص١٢٨).

واعتزاز للمجتمع المصري أعلاماً من تونس لم يكن لاسمهم ولسيرتهم من ذكر في مصر[1]، فأي تعبير عن حب الوطن، والوفاء له، أصدق من ذلك؟.

هو في القاهرة بين إخوته العرب، فعليه إذن أن يؤدي شرف الأمانة الذي يحمل، وأن يقدم لهم كل ما يمليه عليه ضميره من واجب النصح، والعمل البناء الهادف..

ولذلك كان المعلم الأمين، وكان المرشد الصالح، والمربي الصدوق..

وجد في مدارس الدولة تقصيراً في التعليم الديني، فوجه المذكرات للسلطة لإصلاح ذلك[2].

وسمع بانحراف بعض أساتذة الجامعة عن أصالة الفكر العربي، فحذر من ذلك وزارة المعارف، ونبه على الخطر الذي ينزل بالأمة بسبب التهاون، والتغاضي عن ذلك.. وصدق؛ لأن النار من مستصغر الشرر.

هو في القاهرة، وما يشغله حب وطنه، ولا خدمة المجتمع الذي يعيش فيه عن خدمة دينه وشريعته.

ولذلك فقد اشترك في تأسيس (جمعية الشبان المسلمين) التي كانت في طليعة الجمعيات الهادفة إلى تربية الشباب المسلم تربية صالحة قويمة.

ومن فكره البنّاء ولدت (جمعية الهداية الإسلامية)، وكان هدفها: «أن تعرض حقائق الدين الحنيف، وحكمة تشريعه في صورتها الخالصة النقية، وأن تبحث في تاريخ رجال الإسلام من العرب وغير العرب، وأن تنبه على

---

(١) «تونس وجامع الزيتونة».

(٢) «الدعوة إلى الإصلاح» (ص١٤٨، ١٥٩).

ما كان لهم من عبقرية في العلم، أو فضل في البيان، أو شرف في الأخلاق، أو رشد في السياسة. .» . . وأن تعمل على رفع التجافي بين الفرق الإسلامية، ولعلها تستطيع بتأييد الله وبوسيلة مجلتها[١] الضاربة في الشرق يميناً وشمالاً أن تضع مكان التجافي إلفة وسلاماً، وإذ عز على زعماء هذه الفرق الوصول إلى تقليل مواقع الاختلاف في الآراء، فلا يعز عليهم أن يخففوا وقعه في القلوب، ويكفوه عن أن يشيع فيها فاحشة التقاطع والقصد إلى الأذى. . .

وحين طلع على العرب طه حسين بآراء في الشعر الجاهلي، استقاها من مدرسة الاستشراق، من (مرجليوث، وسانتيلانا) على وجه الخصوص، وفيها ما فيها من نيل يمس الإسلام في كتابه الكريم، هبّ علامتنا الكبير للرد على ذلك بعنف، وصدق لهجة[٢]، وكذلك فعل أديب العروبة والإسلام مصطفى صادق الرافعي في كتابه الرائع «تحت راية القرآن»، وأكرمْ بها من راية! . . وحين طلع علي عبد الرازق على العرب بكتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وفيه يجعل ديننا ـ الذي اختاره الله سبحانه ليكون نوراً للبشرية في مسيرة حياتها ـ مجردَ عبادات وأذكار فحسب، نهد أستاذنا الكبير ـ وهو فارس هذا الميدان ـ للرد على ذلك، وإظهار ما في هذا الدين الخالد من نظام شامل لشؤون الحياة في السياسة وأصول الحكم، وفي الفقه والمعاملات، وفي تنظيم أمور المجتمع على أقوم نظام، وأعدل تشريع[٣].

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية».

(٢) «نقض كتاب في الشعر الجاهلي».

(٣) «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

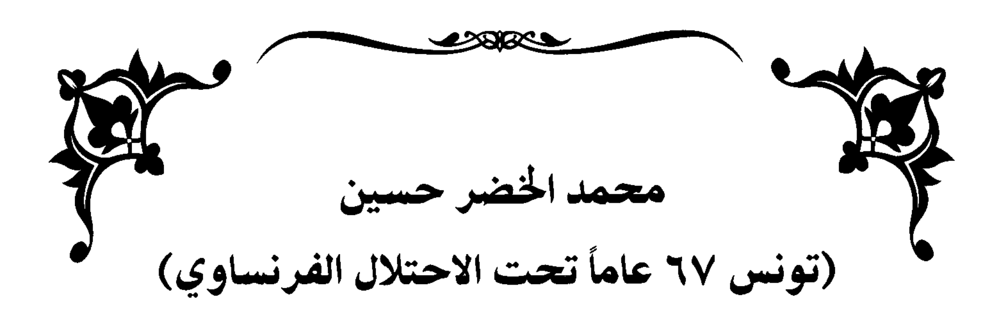
وبعد:

إنها سيرة مجاهد لتحرير الوطن من العبودية، ولتحرير فكر الأمة من الجهل والتخلف، ولإعمار ضميرها بالعقيدة الصحيحة، والخلق القويم، والرجولة، والشهامة، ولجعل لسانها عربياً مبيناً لا عوج فيه، ولا أمتاً..

إنها مسيرة عالم عاش في ضمير أمته، وعاشت أمته في ضميره..

أليس كذلك؟





محمد الخضر حسين

(تونس ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي)

تقديم وتحقيق كمال العريف

«كمال بن الحبيب العريف، باحث، صحفي، ورئيس سابق لجمعية الصحفيين التونسيين، ولد عام ١٩٢٤ في «أكودة» بالجمهورية التونسية، وتخرج من كلية الحقوق، وتقلد عدة مناصب إعلامية. له مؤلفات وبحوث عديدة في التاريخ والأدب والسياسة»[١].

*** كلمة الناشر:**

نعيد ـ في العدد الرابع من «كتاب الحرية» الذي بين يدي القارئ ـ نشر كتاب كان الشيخ محمد الخضر حسين أصدره في القاهرة ضمن نشاط (جبهة الدّفاع عن شمال إفريقيا) التي كان مؤسسها ومحور حركتها. وقد استهدف من هذا الكتاب الذي عنوانه:

«تونس ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي» التعريف بتونس ضحية الاستعمار الفرنسي لدى إخواننا في المشرق العربي، مثلما فعل الدكتور الحبيب ثامر، من خلال مؤلفه «هذه تونس» في الفترة نفسها. ونحن نقصد من إعادة نشر هذا الكتاب بتونس ـ بعد أن ظهر للوجود في القاهرة قبل نحو

(١) العدد الرابع من سلسلة «كتاب الحرية» الصادر عن جريدة «الحرية» بتونس.

أربعين عاماً ـ إلى غايتين :

أولاهما: أن نرفع عنه تراب النسيان، حتى يتيسّر تداوله، ويُعتمد في كتابة تاريخ تونس المعاصر على الوجه الصحيح.

وثانيتهما: أن نُحيي ذكرى صاحبه الشيخ محمد الخضر حسين الذي عُرف كعالم وشيخ للأزهر، وأن نبرز جهاده في سبيل تونس والمغرب العربي، ذلك الجهاد الذي أدى به إلى الخروج من وطنه، والانخراط في صفوف العاملين تحت لواء الدولة العُثمانية، لتحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار الغربي، وتحمّل ما أُضير به من مُصادرة الفرنسيين لأملاكه في تونس، ومطاردتهم إياه في سوريا بعد أن احتلتها جيوشهم.

وأملنا أن يَتخذ الشيخ محمد الخضر حسين ـ الذي نشر ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني في السنوات الأخيرة كل مؤلفاته، باستثناء الكتاب موضوع حديثنا، والذي خصّ الأستاذ محمد مواعدة سيرته بأطروحه لا بأس بها ـ مكانه في سجل المجاهدين من أجل حرية تونس والمغرب العربي والأمة العربية قاطبة، ومن أجل نهضة شعوبها.

وأملنا أيضاً أن نواصل ـ في سلسلتنا هذه ـ جمع التراث الفكري والنضالي لغيره من المجاهدين أمثال: الدكتور سليمان بن سليمان، والطاهر صفر، والشيخ محي الدين القليبي، ويوسف الرويسي، وسواهم؛ حتى ننقذ ذلك التراث الزاخر من البلى، ونثري بيبليوغرافيا النضال والتاريخ الوطنيين بالمراجع الأساسية التي لا يمكن كتابة التاريخ الصحيح من دون الرجوع إليها.

«الحرية»

*** حياته:**

ولد الشيخ محمد الأخضر بن الشيخ الحسين بن الشيخ علي بن عمر الشريف في «نفطة» من بلاد الجريد بالجنوب الغربي لتونس في (٢٦ جويليه ١٨٦٧ الموافق لـ ٢٦ رجب ١٢٩٣).

وقد أبدل اسمه ـ فيما بعد ـ إلى محمد الخضر حسين بناء على اقتراح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، رفيقه في الدراسة بالزيتونة، والتدريس بها، وصديقه مدى الحياة.

وهو من أسرة علم تنتسب إلى الرسول الأعظم ﷺ، وكانت تُلقب بالعمريّ، وتقطن بقرية «طُولقة»، وهي واحة بجنوب الجزائر، تبعد نحو أربعين كيلومتراً عن مدينة «بسكرة»، وقد هاجر والده وجده في منتصف القرن الماضي ـ على الأرجح ـ إلى «نفطة». أما أمه، فهي حليمة السعدية، بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، الذي رافق أبا المترجم له وجدّه في هجرتهما، ولدت بتونس سنة ١٢٧٠هـ، وتوفيت بدمشق في رمضان سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م)، وخاله العلامة محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز البُرجي النفطي الحَسَني الإدريسي، ولد بنفطة في ١٥ رمضان ١٢٧٠ (١٨٥٤)، وتعلم بتونس، وولي الإفتاء بنفطة، ثم قضاءها. وعاد إلى تونس، ثم رحل إلى الآستانة، فتولى تدريس الحديث في دار الفنون، ومدرسة الواعظين، ونال حظوة عالية في عاصمة الدولة العثمانية، وتوفي بها في ٢ صفر ١٣٤٤ (١٩١٥). وله مؤلفات عديدة في مختلف العلوم الشرعية والدنيوية.

درس محمد الخضر حسين في المكتب القرآني بمسقط رأسه على الشيخين: عبد الحفيظ اللموشي، ومحمد المكي بن عزوز. ولما بلغ

الثالثة عشرة، انتقلت عائلته إلى تونس (أواخر ١٣٠٦ ـ ١٨٨٨)، فأتم تعلمه الابتدائي وحفظ القرآن الكريم. التحق بجامع الزيتونة (١٣٠٧ ـ ١٨٨٩)، وحصل على شهادة التطويع (١٣١٦ ـ ١٨٩٨) من أساتذته الشيوخ: سالم بوحاجب في «صحيح البخاري»، وعمر بن الشيخ، ومحمد النجّار (في التفسير). درّس متطوعاً في العام الموالي لتخرجه، وواصل التعلّم. يقول ابن أخيه علي الرضا الحسيني: إنه حصل كذلك على الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية، ولكن هذه الشهادة لم تُحدَث إلا في أوائل سنة ١٩٣٣. وأرفع شهادة كان يُسَلّمها جامع الزيتونة ـ حتى ذلك العهد ـ هي (التطويع).

رحل إلى طرابلس الغرب (١٣١٧ ـ ١٨٩٩)، وزار الجزائر مرة أولى (١٣٢١ ـ ١٨٩٩)، ثم ثانية (من ٥ إلى ١٥ رمضان ١٣٢٢، من ١٢ إلى ٢٣ نوفمبر ١٩٠٤).

أصدر مجلة «السعادة العظمى» في (١٦ محرم ١٣٢٢ ـ أفريل ١٩٠٤)، وهي «مجلة علمية أدبية إسلامية نصف شهرية»، وكانت أول مجلة تصدر بتونس باللغة العربية، وقد أبرز منها واحداً وعشرين عدداً، ثم أوقفها في ذي القعدة (١٣٢٢ ـ ١٩٠٥)، بعد أن طالبت هيئة النظّارة العلمية بجامع الزيتونة الحكومة بتعطيلها.

تولى القضاء الشرعي في مدينة «بنزرت»، كما تولى الخطابة والتدريس بجامعها الكبير، بضعة شهور (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦)، ولكن القضاء لم يرقْه؛ إذ حال بينه وبين الدعوة إلى الإصلاح، فاستقال، وعاد إلى تونس حيث كلف بالإشراف على تنظيم المكتبة بجامع الزيتونة (١٩٠٦)، ودرّس متطوعاً في

جامع الزيتونة، وألقى في نادي قدماء الصادقية سنة ١٩٠٦ محاضرة عنوانها: «الحرية في الإسلام».

عين مدرساً مالكياً للعلوم الدينية والعربية من الطبقة الثانية بالجامع المذكور، بواسطة مناظرة (٢٣ جمادى الثانية ١٣٢٥ ـ ٣ أوت١٩٠٧). وفي العام الموالي عُين أيضاً أستاذاً بالمدرسة الصادقية. وفي الأثناء رفض عرضاً بأن يكون عضواً بالمحكمة المختلطة. درّس كذلك الأدب والإنشاء العربيين في الجمعية الخلدونية (١٩٠٨)، وحاضر وسامر فيها وفي نادي جمعية قدماء الصادقية. وكانت المواضيع التي تناولها في محاضراته ومسامراته أدبية ولغوية، ومن تلك المحاضرات: «حياة اللغة العربية» ألقاها سنة (١٣٢٧ ـ ١٩٠٩) في الخلدونية، ونشرها بتونس في العام نفسه، و«حياة ابن خلدون»، و«الدعوة إلى الإصلاح». انتخب نائب رئيس الجمعية الخلدونية سنة ١٩١٠. وفي خلال ذلك أخذ يكتب المقالات في مختلف شؤون البلاد إلى جانب قرض الشعر.

لاقى بجامع الزيتونة تهويناً من شأنه سدّ في وجهه باب التدرج في المناصب العلمية؛ إذ فشل في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى (١٣٣٠ ـ ١٩١٢)، فحزّ في نفسه أن يُحرم من النجاح بسبب المحاباة المسيطرة على الحياة العلمية في البلاد، وضاق بالقمع الذي سُلِّط على البلاد بعد حوادث الجلاز والترام، فتاقت نفسه إلى الهجرة، استقال من التدريس، ورحل إلى الشرق يوم الخميس (٤ شعبان ١٣٣٠ ـ ١٨ جويلية ١٩١٢)، فزار مالطة، والإسكندرية، والقاهرة؛ حيث التقى بالشيخ محمد رشيد رضا، وبور سعيد ويافا وحيفا ودمشق. استقر مدة قصيرة مع إخوته الذين سبقوه إلى الشام قبل

عام، الشيوخ: محمد المكي، وزين العابدين، ومحمد العروسي، بحيّ الميدان. ألقى اثني عشر درساً في الحديث بالجامع الأموي. ثم قصد بيروت والآستانة لزيارة خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز. وعاد إلى تونس يوم الاثنين (١٦ ذي الحجة ١٣٣٠ ـ ٢٤ نوفمبر ١٩١٢)، فوجد إدارة المدرسة الصادقية قد فصلته عن التدريس الذي مارسه بها منذ سنة ١٩٠٧، متعللة بغيابه. صوّر رحلته في مقالات نشرتها تباعاً جريدة «الزهرة»، وألقى دروساً بجامع الزيتونة، ومحاضرة عنوانها: «مدارك الشريعة الإسلامية» بنادي جمعية قدماء الصادقية.

ثم عزم على الرجوع إلى دمشق، فودّع زوجته، وغادر تونس (١٣٣١/ ديسمبر ١٩١٢)، منتقلاً إلى الجزائر، فمصر، فدمشق. ثم قصد ـ عبر القدس ـ الحجاز؛ حيث حجّ، ثم زار ألبانيا، ومعظم بلاد البلقان، والآستانة، ومنها قفل إلى دمشق. وهناك استقرّ مع عائلته: والدته، وإخوته الأربعة الذين سبقوه إلى هناك عام ١٣٣٠هـ، ودرّس العلوم الدينية والأدبية واللغوية في الجامع الأموي والمدارس الحكومية الثانوية والعليا، لا سيما مدرسة السلطانية العثمانية للدّراسات العربية، وكتب في الصحف والمجلات، مؤيداً الخلافة العثمانية، وداعياً إلى توثيق عرا الألفة بين العرب والترك، وألقى المحاضرات، ونشر الكتب والرسائل المدرسية والدينية، كما نشر في جريدة «الزهرة» اليومية التونسية «خلاصة الرحلة الشرقية» من (٢٥ مارس إلى ٧ أفريل، ومن ١٨ إلى ٢٧ أفريل ١٩١٣).

اتهم بالضّلوع مع أحرار العرب في مؤامرة ضد الدولة العثمانية، أيام

أحمد جمال باشا السفاح[1]، وسجن في فندق مع سعدي بك الملا سكرتير شكري الأيوبي، ستة أشهر وأربعة عشر يوماً، من (١٥ أوت ١٩١٦/ ١٣٣٤هـ حتى ٢٩ جانفي ١٩١٧/ ٤ ربيع الثاني ١٣٣٥)، وحوكم أمام مجلس عسكري، وطلب المدّعي إعدامه، ولكن المجلس برّأ ساحته، وأفرج عنه، فعاد إلى سالف نشاطه، ثم رحل إلى الآستانة حيث عمل منشئاً عربياً في ديوان وزارة الحربية، ومدّرساً أيضاً.

كلفه الباب العالي (١٣٣٦ ـ ١٩١٧) مع الشيخين التونسيين: صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي، وغيرهما من العلماء المسلمين بالسفر إلى ألمانيا للاتصال بالجنود المغاربة في جيوش الحلفاء الذين أسرهم الألمان، ومحاولة كسبهم إلى جانب الدولة العثمانية، فأسهم في نشاط (اللجنة التونسية الجزائرية)، وكتب في الصحف، وألقى المحاضرات على هؤلاء الجنود. وبقي هناك زهاء تسعة أشهر، تعلم في أثنائها اللغة الألمانية. وزار سويسرا وإيطاليا. عاد إلى الآستانة ودمشق، ثم رجع إلى «برلين»، وأقام بها نحو سبعة شهور، حتى سقطت الآستانة، (١٣٣٧ ـ ١٩١٨)، فعاد إلى دمشق ـ حيث قام الحكم العربي بزعامة الأمير (ثم الملك) فيصل بن الحسين ـ على متن باخرة مع عددٍ من زعماء الحركة الإسلامية، عبر الآستانة، من «همبورغ».

وفي تلك الأثناء حَجَزت السلطات الفرنسية في تونس أملاكه بتهمة المشاركة في تحريض المغاربة بألمانيا وتركيا على محاربة فرنسا. وتوفيت والدته وهو في ألمانيا (١٣٣٥ ـ ١٩١٧).

---

(١) انظر عنه: «الحركات الاستقلالية. . .» (ص٤٧ ـ ٤٨)، و«معجم المؤلفين» (ج١٢ ص٤٩، وج١٣ ص٤).

وفي دمشق استأنف الشيخ محمد الخضر حسين التدريس بالمدرسة السلطانية، كما درس في المدرسة العسكرية، واستأنف المحاضرة بالجامع الأموي، كما حاضر في جامع باب المصلّى. وكان مقرّباً من الملك فيصل.

اختير عضواً عاملاً في إحدى لجان المجمع العلمي العربي المؤسس بدمشق في أواسط سنة ١٩١٩، وأصبح عضواً مراسلاً لما ترك سوريا، وإلى آخر أيام حياته.

غادر دمشق بعد معركة ميسلون في (٢٤ جويلية ١٩٢٠) هرباً من ملاحقة سلطات الانتداب الفرنسي المفروض على سوريا إياه، ونزل لاجئاً سياسياً بمصر، والتقى بكبار رجالها وعلمائها. ثم قرر الإقامة بها، وحصل فيما بعد على جنسيتها، ودخل فحص الشهادة العالية الأزهرية، فاستحقها. عينته وزارة المعارف مُصَحّحاً بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، وقبل تولي تصحيح المخطوطات بالمكتبة العلمية المصرية في القاهرة (١٣٤٣ ـ ١٩٢٤). وحاضر في الجمعيات، وألقى دروساً دينية خاصة بالأزهر ومساجد ومعاهد أخرى، وكتب في الصحف والمجلات، وراسل مجلة «الفجر» التونسية الدستورية في موضوع: النظرية السياسية في الإسلام، كما راسل مجلة «البدر» التونسية في موضوع: الخلافة في الإسلام، ومسؤوليات العلماء (١٩٢١ ـ ١٩٢٢)، وأسهم في تحرير مجلة «العرب» التونسية سنة ١٩٢٣.

ما إن استقر الشيخ محمد الخضر حسين في مصر حتى بادر في جوان ١٩٢٤ إلى إنشاء (جمعية تعاون جاليات شمال إفريقية الشمالية). وقد تألفت هيئتها الأولى من: الشيخ محمد الخضر حسين (تونسي) رئيساً، وطاهر محمد التونسي (تونسي)، ومحمد عبد الوهاب المحامي (مغربي)، والدكتور الطبيب

عبد العزيز قاسم (مغربي)، ومحمد الرزقي (جزائري)، والدكتور محمد عبد السلام العيادي (جزائري)، ومحمد التهامي نصر (ليبي)، وعبدالله الكافي (ليبي) أعضاء، وكان مقرّها عيادة الدكتور قاسم بالسبع قاعات البحرية بالسكك الحديدية في القاهرة.

شارك في المعركة السياسية الدينية إثر صدور كتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» (١٩٢٥)، فألف «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، فنال به حُظْوَةً لدى الملك فؤاد الأول، الذي اقتبله في سراي قصر التين بالإسكندرية في ١ أوت ١٩٢٦. ثم ألف «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» للرد على كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين (١٩٢٦)، فنال به حُظْوَةً لدى شيوخ الأزهر.

حصل على الجنسية المصرية، وعُين مدرّساً في معاهد الأزهر الثانوية.

عيّن سنة ١٩٢٧ مدرّساً مؤقتاً في قسم التخصص بالجامع الأزهر، ثم أصبح سنة ١٩٢٨ مدرساً رسمياً بعد أن اجتاز امتحان شهادة العالمية بتفوق.

أسَّس سنة (١٣٤٦ ـ ١٩٢٨) جمعية «الهداية الإسلامية»، ورأسها إلى وفاته. وفي (جمادى الثانية ١٣٤٧/ نوفمبر ١٩٢٨) أصدر مجلة تحمل الاسم نفسه «الهداية الإسلامية»، وتولى إدارتها ورئاسة تحريرها.

واشترك سنة ١٩٢٩ في تأسيس (جمعية الشبان المسلمين)، ومجلتها التي حملت الاسم نفسه. تولى رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام» التي أصدرها الأزهر (١٣٤٩ ـ ١٩٣٩) بإشراف محمد الأحمدي الظواهري، والتي دُعيت بعد ذلك (١٣٥٣ ـ ١٩٣٤): مجلة «الأزهر». تخلى عن هذه المسؤولية بعد سنوات قليلة، ولكنه ظل يكتب فيها.

انضم إلى علماء الأزهر، وعيّن سنة ١٩٣٢ مدرساً للفقه (علم السياسة الشرعية) في كلية أصول الدين، ثم أستاذاً في قسم التخصص.

عيّن في أكتوبر ١٩٣٣ عضواً في مجمع اللغة العربية الذي أُنشـئ في القاهرة في ديسمبر ١٩٣٢.

أحيل على المعاش سنة ١٩٥٠.

اختير، سنة (١٣٧٠/ ١٩٥٠) عضواً في هيئة كبار العلماء بالأزهر، بعد أن قدّم رسالته العلمية «القياس في اللغة العربية»، وهي في الأصل بحث وضعه بدمشق في أثناء فترة إقامته وتدريسه بها، ثم نقحه وطبعه بالقاهرة (١٣٥٣/ ١٩٣٤)، ثم جَدَّده وتقدّم به إلى الهيئة، فقُبل بالإجماع.

تسلّم رئاسة تحرير مجلة «لواء الإسلام» التي أصدرها سنة ١٩٤٥ الشيخ أحمد حمزة، وتركها لما تولى مشيخة الأزهر، ولكن واصل الكتابة فيها حتى وفاته.

وفي فيفري ١٩٤٤ (١ ربيع الأول ١٣٦٤) أسس الشيخ محمد الخضر حسين، مع جمع من المغاربة (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، وتولى رئاستها، ينوبه الأمير مختار الجزائري، والدكتور محمد عبد السلام العيادي، والشيخ السعدي عمار، واختير الشيخ الفُضيل الورتلاني سكرتيراً لها. وقد انضم إليها عدد من المناضلين المغاربة اللاجئين إلى مصر من الحزب الحرّ الدستوري التونسي الجديد، وحزب الشعب الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن هؤلاء: الحبيب بورقيبة (١٩٤٥)، ومحمد محيي الدين القليبي عند زيارته الأولى لمصر. وقد انسلخ بورقيبة عنها بعد ذلك. وقامت الجبهة بنشاط دعائي طيِّب لقضايا الأقطار المغربية. وقد أُسندت

رئاستها الشرفية إلى الأمير محمد عبد الكريم الخطّابي، عند التجائه إلى مصر.

أُجريت على الشيخ محمد الخضر سنة ١٣٦٥ عمليةٌ جراحية ـ في أعلى القفا بمستشفى الروضة في القاهرة.

عُين شيخاً للجامع الأزهر في ١٦ ديسمبر ١٦٥٢.

استقال في (٢ جمادى الأولى ١٣٧٣ ـ ٨ جانفي ١٩٥٤) متعللاً بمرضه وحاجته إلى العلاج والاستجمام.

توفي ظهر الأحد (١٢ رجب ١٣٧٧ ـ ٢ فيفري ١٩٥٨)، ودفن في مقبرة آل تيمور بالقاهرة، إلى جانب صديقه أحمد تيمور باشا.

إخوته الشيوخ: محمد الجُنيدي، ومحمد العروسي، ومحمد المكي (الذي عاد، بعد سنوات، من دمشق إلى تونس، وتوفي بها سنة ١٩٦٣)، وزين العابدين الذي بقي مستقراً في دمشق.

تزوج تونسية بقيت في تونس هي وابنته الوحيدة منها لما هاجر سنة ١٩١٢، ثم تزوجت غيره، ثم تزوج سورية، فمصرية (١٩٢٠)، هي زينب رحيم، وقيل: من عائلة النجمة القاطنة بمنطقة الهرم، وتوفيت بالقاهرة سنة (١٣٧٢/ ١٩٥٣)، ثم رابعة قريبة لها صغيرة السنّ.

بدأ محاولة نظم الشعر وهو تلميذ في الزيتونة، عمره اثنتا عشرة سنة. وصادق منذ تلمذته بالزيتونة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي كان يزوره ـ بعد ذلك ـ في مصر. وفي مصر صادق أحمد تيمور باشا. وكان الطيب بن عيسى، صاحب جريدة «الوزير» التونسية من تلامذته بالزيتونة، وقد ظل يتابع أخباره في مهاجره، وينوّه بعلو مكانته في المشرق.

وفي سـنة ١٩٤٧ أسس بعض تلامذة الزيتونة أصيلي الجريد جمعية

(شباب الخضر بن الحسيني النفطي)، وجعلوا لها في العام الموالي نشرية أدبية سنوية ساهم في تحريرها: محمد الصالح المهيدي، ومصطفى خريف، ومحمد العربي صمادح، وغيرهم.

كتب إلى جانب الدوريات التي سبق ذكرها في مجلة «الزهراء» الشهرية التي أنشأها في القاهرة محب الدين الخطيب (عاشت من ١٣٤٣/ ١٩٢٤ إلى ١٣٤٧/ ١٩٢٩)، ومجلة «الفتح» التي أنشأها الخطيب أيضاً في القاهرة (١٩٢٦)، ومجلة «مجمع اللغة العربية» المؤسسة سنة ١٩٥٣ إلى وفاته، ومجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق، وجريدة «الأهرام» (١٣٦٥).

*** مؤلفاته:**

ترك الشيخ محمد الخضر تراثاً علمياً غزيراً من الدراسات الإسلامية واللغوية والأدبية والتاريخية، طبع بعضه في حياته، وبقي أكثره متفرقاً في الصحف والمجلات، ثم نشر ابن أخيه علي الرضا بن زين العابدين بن الحسين الحسيني مؤلفاته بعد وفاته متصرفاً في بعض محتوياتها وعناوينها على النحو التالي:

١ ـ بلاغة القرآن:

بلاغة القرآن ـ نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ـ رأي في تفسير القرآن ـ أمثال القرآن الكريم ـ المحكم والمتشابه في القرآن ـ اليمين في القرآن والحديث ـ الرقية والاقتباس والاستخارة والقرآن ـ إعجاز القرآن وبلاغته ـ ترجمة القرآن ـ حقيقة ضمير الغائب في القرآن ـ القرآن لا يقول إلا حقاً ـ الفن القصصي في القرآن ـ تحريف آيات الحدود عن مواضعها ـ كتاب يهذي في تأويل القرآن الكريم ـ كتاب يلحد في آيات الله ـ قصة أيوب عليه السلام.

٢ ـ الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان:

الاجتهاد في أحكام الشريعة ـ بناء الشريعة على حفظ المصالح ودرء المفاسد ـ الأصول النظرية الشرعية ـ القياس ـ الاستصحاب ـ مراعاة العرف ـ سد الذرائع ـ المصالح المرسلة ـ مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها ـ النسخ في الشريعة الإسلامية ـ صحيح البخاري وأثره في حفظ الشريعة ـ السنة والبدعة ـ الرؤيا ليست طريقاً للأحكام الشرعية ـ وجوب العمل بالحديث الشريف ـ أسباب وضع الحديث ـ الحديث المتواتر وحكم ما رواه الإمامان البخاري ومسلم ـ اجتهاد ابن القاسم ـ ليلة النصف من شعبان ـ نظرة في أحاديث المهدي ـ لا عدوى ولا طيرة ـ باب في حديث السحر ـ السنن والحكم النبوية ـ شرح مسألة الاقتداء بالمذهب المخالف ـ صنع الصور واقتناؤها ـ مكافحة الجشع والغش في المعاملات المالية ـ التصوف ـ تعدد الزوجات ـ الأخذ بالدين ـ الفتاوى والأحكام.

٣ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين:

أديان العرب قبل الإسلام ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين ـ رفقه وحكمته البالغة بالسياسة ـ سيرته في الخليقة ـ صبر محمد عليه السلام ومتانة عزمه ـ البلاغة النبوية ـ شجاعته عليه الصلاة والسلام ـ رجاحة عقله وحكمة رأيه ـ من آداب خطب النبي ـ الهجرة النبوية ـ إبادته عليه الصلاة والسلام للأصنام ـ نظرة في دلائل النبوة ـ آداب الدعوة وحكمة أساليبها ـ حياة الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب ـ قضاء البعثة المحمدية على المزاعم الباطلة ـ العظمة ـ المعجزات الكونية ـ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ـ الهجرة وشخصيات الرسول.

٤ ـ رسائل الإصلاح:

المروءة ومظاهرها الصادقة ـ الإلحاد: أسبابه، طبائعه، مفاسده ـ في مفاسد البغاء ـ كلمة في المسكرات ـ الشجاعة ـ المساواة في الإسلام ـ إباءة الضيم وأثرها في سيادة الأمم ـ عظم الهمة ـ الإسلام والمدنية الحديثة ـ صدق اللهجة ـ فضيلة الإخلاص ـ الأمانة في العلم ـ القضاء العادل في الإسلام ـ الإنصاف الأدبي ـ العلماء والإصلاح ـ المدينة الفاضلة في الإسلام ـ أصول سعادة الأمة ـ صدق العزيمة أو قوة الإرادة ـ الغيرة على الحقائق والمصالح ـ الشجاعة وأثرها في عظمة الأمم ـ كبر الهمة في العلم ـ الدهاء والاستقامة ـ الانحراف عن الدين ـ ضلالة فصل الدين عن السياسة ـ سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين ـ العزة والتواضع ـ المداراة والمداهنة ـ الرفق بالحيوان ـ محاكاة المسلمين للأجانب ـ الاجتماع والعزلة ـ علة إعراض الشبان عن الزواج ـ النبوغ في العلوم والفنون ـ متى تكون الصراحة فضيلة.

٥ ـ تونس وجامع الزيتونة:

فقهاء تونس ـ شعراء تونس ـ الحالة العلمية بجامع الزيتونة ـ الدولة الحسينية في تونس ـ الشعر التونسي في القرن الخامس ـ حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية ـ أسد بن الفرات ـ نظرة في أدب الشيخ محمود قبادو التونسي ـ نظرة في حياة وزير تونسي ـ محمد ماضور من علماء تونس وأدبائها ـ محمد النجار ـ أحمد أبو خريص ـ محمد بيرم الثاني ـ محمد الخضار ـ محمد النيفر ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ عمر بن الشيخ ـ أحمد كريم ـ محمد بن الخوجة ـ أحمد الورتاني ـ الطاهر بن عاشور ـ علي الدرويش ـ تونس.

٦ ـ دراسات في العربية وتاريخها:

القياس في اللغة العربية ـ حياة اللغة العربية ـ الاستشهاد بالحديث في اللغة ـ موضوع علم النحو ـ التضمين ـ تيسير وضع مصطلحات الألوان ـ طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية ـ حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليها ـ الإمتاع بما يتوقف تأنيثه على السماع.

٧ ـ الخيال في الشعر العربي:

الخيال في الشعر العربي ـ الشعر البديع في نظر الأدباء ـ أثر الشعر في الترويح عن النفس وإثارة العواطف الشريفة ـ نموذج من نقد الشعر ـ الشعر المصري في عهد الدولة الأيوبية ـ نظرة في شعر حسان بن ثابت ـ الخطابة عند العرب ـ نشأة علم البلاغة.

٨ ـ نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم»:

الخلافة والإسلام: الخلافة وطبيعتها ـ في حكم الخلافة ـ في الخلافة من الوجهة الاجتماعية ـ الحكومة والإسلام: نظام الحكم في عصر النبوة ـ الرسالة والحكم ـ الحكم والدين والدولة ـ الخلافة والحكومة في التاريخ ـ الوحدة الدينية والعربية ـ الدولة العربية ـ الخلافة الإسلامية.

٩ ـ دراسات في اللغة:

المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية ـ من وُثق من علماء اللغة ومن طُعن فيه ـ اللهجات العربية في هذا العصر ـ نيابة بعض الحروف عن بعض ـ الأمثال في اللغة العربية ـ وصف جمع غير العاقل بصيغة فعلاء ـ اسم المصدر في المعاجم، شرح قرارات المجمع، والاحتجاج لها ـ نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة ـ نقد إعرابين جديدين في صيغة التحذير ـ

ملاحظات على البحث المقدم لمجمع اللغة العربية عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى ـ الألفاظ المؤنثة عن طريق السماع.

١٠ ـ دراسات في الشريعة الإسلامية:

الله موجود ـ الأحكام العادلة ـ كيف تُستنبط القواعد من الكتاب والسنة ـ الحديث الصحيح حجة في الدين ـ الشهادة وأثرها في إقامة الحدود ـ الذرائع سدّها وفتحها ـ مراعاة العرف ـ حكمة الإسلام في العزائم والرخص ـ موقف الإسلام من الرؤيا وتأويلها ـ الكبيرة والصغيرة ـ الذوق وفي أي حال يُعتد به ـ النذر ـ المتعة ـ استحضار الأرواح ـ حكم الإسلام فيمن بلغته الدعوة ـ رسائل إخوان الصفا ـ العدوى والطيرة ـ الزكاة وأثرها في نهوض الأمة ـ الغيبة وأثرها في النفوس ـ صلاة الجماعة وأثرها في اتحاد الأمة ـ الدعوة القائمة على الحق ـ فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه ـ مكافحة المظالم موجبة للسلام ـ ما يلاقيه العلماء من المكاره ـ ما يلاقيه العلماء من سماحة أهل العلم ـ ما يلاقيه العلماء من سماحة الأمراء ـ المال المباح في الإسلام ـ حقوق الزوجين ـ الطلاق في الإسلام ـ تعدد الزوجات في الإسلام ـ النظافة في الإسلام ـ العلوم في دائرة الإيمان ـ الرفق بالضعفاء ـ الأدباء العلماء ـ زينة الإنسان حسن السمت ـ المنافقون في عهد النبوة والملاحدة بعده ـ ملاحظات على مقال مولد النبي.

١١ ـ الرحلات:

أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية ـ النهضة للرحلة ـ الرحلة الجزائرية ـ خلاصة الرحلة الشرقية ـ حديث عن رحلتي إلى دمشق ـ رحلتي إلى سورية ولبنان.

١٢ ـ تراجم الرجال:

نظرة في ناحية في خلافة عثمان ـ موسى بن نصير ـ علي زين العابدين ـ محمد الباقر وزيد ـ نظرة في حياة عمر بن عبد العزيز ـ نظرة في حياة الإمام مالك بن أنس ـ صقر قريش وكيف تأسست الدولة الأموية ـ أبو داود وكتابه «السنن» ـ صفحة من حياة أبي الحسن الأشعري ـ القاضي أبو الحسن الجرجاني ـ حجة الإسلام الغزالي ـ أبو بكر بن العربي ـ أحمد تيمور باشا.

١٣ ـ السعادة العظمى:

التقاريظ ـ الاعتصام بالشريعة ـ الأخذ بالقول الراجح ـ براءة القرآن من الشعر ـ العمل والبطالة ـ حياة الأمة ـ التربية ـ التقدم بالكتابة ـ مدنية الإسلام والعلوم العصرية ـ مدنية الإسلام والخطابة ـ كبر الهمة ـ التعاون والتعاضد ـ الديانة والتعاضد ـ الديانة والحرية المطلقة ـ البدعة ـ الزمان والتربية ـ الصيام ـ الأحاديث الموضوعة ـ تقسيم الكلام بحسب أغراضه ـ الإبداع في فنون الكلام ـ الفصيح من الكلام ـ طرق الترقي في الكتابة ـ الشعر العصري ـ الكلام الجامع ـ الأخلاق ـ أبو بكر بن العربي ـ أبو الوليد الباجي ـ منذر بن سعيد ـ تحقيق مسألة تاريخية ـ الرحلة الجزائرية ـ الأسئلة والأجوبة.

١٤ ـ أسرار التنزيل:

تفسير الفاتحة ـ تفسير آيتين من سورة البقرة ـ تفسر آية من سورة آل عمران ـ تفسير آيات من سورة الحج ـ تفسير آيات الصيام ـ ثلاث آيات من سورة الأنفال ـ أربع آيات من سورة يونس ـ خمس آيات من سورة صٓ.

١٥ ـ الدعوة إلى الإصلاح:

الدعوة إلى الإصلاح ـ أثر الدين في إصلاح المجتمع ـ أثر أدب اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح ـ حرية الدعوة دليل على رقي الأمة وعظمة الدولة ـ أصول الإصلاح الاجتماعي ـ من هو الواعظ بحق ـ الإسلام والعلم ـ التربية الدينية والشباب ـ التعليم الديني في مدارس الحكومة ـ العلماء وأولو الأمر ـ تعاون الدولة والأمة على انتظام الأمن ـ من هو الشاب المسلم ـ إلى شباب محمد ﷺ ـ مقاصد الإسلام في إصلاح العلم ـ نهوض الشباب بعظائم الأمور ـ جيل يؤمن بالأخلاق ـ مثل أعلى لشجاعة العلماء واستهانتهم بالموت في سبيل الحق ـ شجاعة العلماء وإنصاف الأمراء ـ محاربو الأديان ونموذج من سلاحهم ـ العلماء وحياتهم الاجتماعية ـ العناية بالتعليم الديني ـ مناهج الشرف.

١٦ ـ نقض كتاب «في الشعر الجاهلي»:

تمهيد: منهج البحث ـ مرآة الحياة الجاهلية في القرآن لا في الشعر الجاهلي ـ الشعر الجاهلي واللغة ـ الشعر الجاهلي واللهجات ـ أسباب انتحال الشعر: ليس الانتحال مقصوراً على العرب ـ السياسة وانتحال الشعر ـ الدين وانتحال الشعر ـ القصص وانتحال الشعر ـ الشعوبية وانتحال الشعر ـ الرواة وانتحال الشعر ـ الشعر والشعراء: قصص وتاريخ ـ امرؤ القيس ـ عبيد ـ علقمة ـ عمرو بن قميئة ـ مهلهل ـ جليلة ـ عمرو بن كلثوم ـ الحارث بن حلزة ـ طرفة بن العبد ـ المتلمس ـ نتيجة البحث.

١٧ ـ هدى ونور:

الإسلام والفلسفة ـ الحكمة وأثرها في النفوس ـ الحكمة العربية ـ التعاون

في الإسلام ـ مكانة الأزهر وأثره في حفظ الدين ورقي الشرق ـ خواطر ـ الشورى في الإسلام ـ طرق الصوفية والإصلاح ـ رسائل إخوان الصفا ـ الحلة والتعارف في الإسلام ـ العمل للكمال ـ تعدد الزوجات في الإسلام ـ الجمعيات الإصلاحية ـ الخلافة الإسلامية ـ العرب والسياسة ـ أسباب سقوط الأندلس ـ الجزائر واستبداد فرنسا ـ الظهير البربري ـ طريق الشباب ـ للحقيقة والتاريخ ـ الأستاذ صالح الشريف ـ قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية.

١٨ ـ محاضرات إسلامية:

الحرية في الإسلام ـ علماء الأندلس في الإسلام ـ السعادة عند بعض علماء الإسلام ـ التصوف في القديم والحديث ـ الدهاء في السياسة ـ الزينة والرفاهية في نظر الإسلام ـ هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام ـ الصداقة ـ مضار الإسراف ـ تعاون العقل والعاطفة على الخير ـ حقوق الفقراء على الأغنياء في الإسلام ـ السمو الخلقي في الإسلام ـ المعتزلة وأهل السنة ـ اختلاط الجنسين في نظر الإسلام ـ نقد آراء للأستاذ فريد وجدي.

١٩ ـ القاديانية والبهائية:

طائفة القاديانية: غلام أحمد ـ أصله وولادته ونشأته ـ ادعاء غلام أحمد الوحي والنبوة والرسالة ـ زعمه أن له آيات على صدقه ـ غروره وتفضيله نفسه على رسل الله الأكرمين ـ تكفيره لمن لا يؤمنون برسالته ـ القاديانية فرقتان ـ وجوب مقاومتهم والتحذير من دعايتهم ـ تفنيد مذهب القاديانية ـ خيبة مدعي النبوة كذباً ـ انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ ـ دفع شبهة يتشبث بها

القاديانية ـ نقض شبهة القاديانية ـ البابية أو البهائية.

٢٠ ـ الهداية الإسلامية:

آداب الحرب في الإسلام ـ الروح العسكرية في الإسلام ـ الطب في نظر الإسلام ـ حقوق الزوجية في الإسلام ـ القضاء العادل ـ مكانة القضاء ـ صفات القاضي في الإسلام ـ شريك قاضي الكوفة وموسى بن عيسى أميرها ـ أكُلُّ الجيش أسلفه؟ ـ السياسة الرشيدة في الإسلام ـ الدين والفلسفة والمعجزات ـ حقوق الجار ـ السخاء وأثره في سيادة الأمة ـ الحلم وأثره في الحياة الفردية والاجتماعية ـ حالة الأمة في هذا العصر ـ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى ـ خير نظام للحكم ـ سعيد بن جبير والحجاج ـ استعمال الألفاظ في غير مواضعها ومضاره الاجتماعية ـ فضل شهر رمضان ـ بحث موجز في أشهر الفرق الإسلامية ـ إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه حسين ـ الأدوية بين دسقوريدس وابن البيطار ـ كلمات وخواطر وآراء.

٢١ ـ تونس ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي (١٨٨١ـ ١٩٨٤):

مذكرة كما أسماها المؤلف أصدرتها (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية) التي كان يرأسها، وكان الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي رئيسها الشرفي.

٢٢ ـ خواطر الحياة.

٢٣ ـ تعليقات على كتاب «الموافقات».

*** آثار أخرى:**

٢٤ ـ لماذا نحتفل بذكرى الهجرة النبوية؟

٢٥ ـ الرحلة الألمانية.

٢٦ ـ نظرات في الإسلام وأصول الحكم.

* المصادر :

- أحمد تيمور باشا :

«أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث» ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٦٧ .

- محمد الفاضل بن عاشور :

«أركان النهضة الأدبية بتونس» ـ الطبعة الأولى ـ تونس (١٩٦١ ١٣٨٧) .

- عبد الوهاب سكر :

«أعلام الإسلام» ـ نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب .

- زين العابدين السنوسي :

«الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» ـ جزآن ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة العرب ـ تونس ـ (١٩٢٧ ـ ١٩٢٨) .

- أبو القاسم محمد كرو :

«محمد الخضر الحسين، شيخ الأزهر الأسبق ـ دراسة ـ مختارات» ـ سلسلة أعلامنا (٤) ـ الطبعة الأولى ـ ١٠/١٠/ ١٩٧٣ ـ دار المغرب العربي ـ تونس .

- جعفر ماجد :

«الصحافة الأدبية في تونس» ـ الجامعة التونسية ـ ١٩٧٩ (بالفرنسية) ـ (ص٣٠) .

- محمد مواعدة :

«محمد الخضر حسين : حياته ـ آثاره» (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨) ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٧٤ ـ (٣٤٢ ص) .

*** التقاويم :**

ـ أحمد توفيق المدني :

«تقويم المنصور»، الكتاب الأول، المطبعة العربية ـ تونس ـ ١٩٢٢ .

*** المقالات :**

ـ الإذاعة (مجلة ـ تونس) :

عدد ١ ـ ٥ ـ ١٩٧٤ .

ـ الأزهر (مجلة ـ القاهرة):

الشيخ محب الدين الخطيب ـ المجلد ٢٩ ـ ٢٠/٢/ ١٩٥٢ ـ (ص٧٣٦ ـ ٧٤٤).

ـ الأسبوع (جريدة ـ تونس) :

الطيب بن عيسى (من تلامذة الشيخ محمد الخضر وصاحب جريدة الوزير) ـ أعداد ٣ و١٠ نوفمبر و٨ ديسمبر ١٩٥٢ .

ـ الثريا (مجلة ـ تونس) :

المجلد ٣ ـ ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ .

ـ الثقافة (مجلة ـ الجزائر) :

الشيخ محب الدين الخطيب ـ مذكرات ـ عاما ١٩٧٢ و١٩٧٣ .

ـ الدعوة (جريدة ـ القاهرة) :

استجواب للشيخ محمد الخضر ـ عدد ٣٠ صفر ١٣٧٢ ـ ١٩٥٢ .

ـ الشعب (جريدة ـ تونس) :

عام ١٩٦٨ .

7114

- العالم الأدبي (مجلة - تونس):

عدد ٩/٥/ ١٩٣٢ - عدد ٢٧/٥/ ١٩٣٢ (ص١٥٢).

- عالم الفكر (مجلة - الكويت):

المجلد - ١ - عدد - ٣ - أكتوبر / ديسمبر ١٩٧٠ - (ص١٩٤ - ١٩٦).

- لواء الإسلام (مجلة - القاهرة):

الشيخ أحمد حمزة - المجلد ١١ - العدد ١٢ مارس ١٩٥٨ - (ص٧٤٣/ ٧٤٤) - المجلد ١١ العدد ١١ - فيفري ١٩٥٨ - (ص٦٧٥).

- مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق):

المجلد الأول - (ص١٢).

- المشير (جريدة - تونس):

الطيب بن عيسى - أعداد ١٧ فيفري، و٣ مارس، و١٤ أفريل، و١٩ ماي، و٦ أوت ١٩٥٨.

* ملفات:

- مركز التوثيق القومي:

ملف ب ٢ - ٨١.

- الأرشيف العام للحكومة التونسية.





أعلام الجزائر

الشيخ الإمام محمد الخضر حسين

(١٣٩٣/ ١٩٧٣ ـ ١٣٧٧/ ١٩٥٨)

بقلم محمد الأخضر عبد القادر السائحي[(١)]

إن الشيخ محمد الخضر حسين يعتبر من المصلحين المجددين في القرن الرابع عشر للهجرة، وإن أهم ما يمتاز به هو أنه طبّق بصدقٍ شعاره:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى   لفتشت عن واد أعيش به وحدي

فمن يكون؟

ومن اهتم به؟

وما هي آثاره؟

أما من يكون؟ فهو العبقري، المصلح، الإمام، المجدد، الكاتب، المناضل، المحارب للجهل والتعصب والإلحاد والدجل والخنا والسفاح.

هو المغربي الذي نال شرف الجلوس على قمة الهرم العلمي في مصر، فكرس الحقيقة الخالدة:

«من جد وجد»، وبرهن على مدى الترابط الوثيق بين الشعوب العربية،

---

(١) صحيفة «الشعب» الجزائرية ـ العدد ٧٨٥٤ (جمادى الثانية ١٤٠٩ ـ جانفي كانون الثاني ١٩٨٩).

وأوجب على العلماء والأدباء والمفكرين أن يكونوا الجسور الصحيحة التي تتجاوز بها الشعوب خنادق النظم، وأودية الحكام، ومستنقعات الجهل والدكتاتورية والرجعية.

وزاد من مكانة مصر رفعةً وشأناً؛ إذ برهنت على أنها أم العروبة، فعلاً تخرج بأبنائها النجباء، وتفتح لهم صدرها كريماً واسعاً حنوناً، بغض النظر عن الجهة التي نبتوا فيها.

انظروا معي في هذا المقطع من قصيدة رائعة لأمير شعراء الجزائر الشيخ محمد العيد آل خليفة ـ رحمه الله ـ، بعنوان: (تهنئة الأزهر بشيخه الجديد) قالها سنة ١٩٥٢ حينما أسندت رئاسة مشيخة الأزهر إلى الشيخ الإمام محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ:

وحبا الأزهر الشريف رئيساً ... عبقرياً، ومصلحاً مسماحا

وإماماً مجدداً مغربياً ... رفع المغرب المهيض جناحا

هنئ الأزهر الشريف بشيخٍ ... طاب أنساً به وزاد انشراحا

رأسَ الأزهرَ الشريف فخلنا ... سادنَ البيت أوتي المفتاحا

وجلا الحق «بالهداية» حيناً ... فنفى عنه غيمه وأزاحا

حارب الجهل والتعصب والإلحاد ... والدجل والخنا والسفاحا

بيراع يفري المشاكل عضباً ... وحِجى يكشف الدُّجى لمَّاحا

حاز آلُ الحسين (بالخضر) الحر ... مدى فخرهم وفازوا قداحا

أورث الله منه «طولقة» العرق ... وأورى «بنفطة» المصباحا

«تونس» تقبل التهاني نشوى ... وتهادي «الجزائر» الأفراحا

إنّ كلتا الأختين من خمرة البشرى تعاطت على الصفا أقداحا

قد طوى سبعة وسبعين عاماً ناشراً نور علمه وضّاحا

فالشيخ الخضر هو أحد الأئمة الذين نافحوا وجاهدوا عن الإسلام بالقلم والكلمة أكثر من نصف القرن الرابع عشر للهجرة، وطيلة النصف الأول من القرن العشرين، فهو صاحب مجلة «السعادة العظمى» التي صدر العدد الأول منها بتاريخ (١٦ محرم ١٣٢٢هـ سنة ١٩٠٤) بتونس، وواصلت صدروها نصف شهرية إلى العدد ٢١؛ أي: قرابة عام.

وهو عضو (المجمع العلمي العربي) بدمشق منذ سنة ١٩١٩، ومن أول أعضاء (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة منذ تأسيسه سنة ١٩٣٣، وصاحب مجلة «الهداية الإسلامية» التي أصدرتها بالقاهرة سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) جمعية (الهداية الإسلامية) لتكون الناطقة باسمها، ورئيس تحرير مجلة «نور الإسلام» (١٣٤٩/ ١٣٥٣هـ الموافق لسنة ١٩٣٠/ ١٩٣٤م) التي تحولت ـ فيما بعد ـ إلى مجلة «الأزهر»، ورئيس تحرير مجلة «لواء الإسلام» ١٩٥٤.

وبكلمة مختصرة: إنه أول من تصدى للشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» بكتاب نقض فيه دعاويه سنة ١٩٢٥. كما تصدى سنة ١٩٢٦ للرد على الدكتور طه حسين بكتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، وهو الذي نقد اقتراح الأستاذ أحمد أمين الذي قدمه للمجتمع اللغوي بالقاهرة مطالباً (ببعض الإصلاح في متن اللغة)، ووقف كذلك في وجه الأستاذ فريد أبي حديد في مسألة (موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى).

هذه بعض المجالات التي جال فيها الشيخ محمد الخضر حسين وصال، سنزيدها تفصيلاً وتوضيحاً بعد أن نعرف أين نشأ؟ وأين نبت؟ وكيف تكون؟

يعود منشؤه إلى أسرة (العمري) بالزيبان، تلك الأسرة العريقة في العلم والدين والشرف، ينتمي أبناؤها إلى التصوف، كما ينتمون إلى النسب النبوي الشريف، وهو ما أعطى لشيوخها في عصرهم مكانة مرموقة بين معاصريهم، خاصة في موطنهم الأصلي مدينة «طولقة» أحد المراكز الثقافية الهامة في الناحية منذ قرون.

في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة (منتصف القرن التاسع عشر للميلاد) رحل السيد الحسين بن علي بن عمر الشريف عن مدينة «طولقة» بأسرته صحبة صهره الشيخ مصطفى بن عزوز جد محمد الخضر للأم، ووالد العلامة الشيخ المكي بن عزوز، وذلك بعد اكتساح قوات الاستعمار الفرنسي للمنطقة متجهين إلى مدينة «نفطة» حيث استقر بهم المقام في هذه الواحة الجميلة من واحات الجنوب الغربي التونسي.

في «نفطة» كان ميلاد محمد الخضر بن الحسين يوم (٢٦ رجب ١٢٩٣هـ الموافق ليوم ٢١ جويلية سنة ١٨٧٣م)، فهو جزائري قح، سواء من طريق أبيه، أو من طريق أمه.

ثم انتقلت أسرة الحسين مرة أخرى إلى تونس العاصمة، عام (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م)، وسن محمد الخضر حينئذ ثلاث عشرة سنة، فأتم تعليمه الابتدائي، وحفظ القرآن الكريم، والتحق بجامع الزيتونة في العام الدراسي (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)، فواصل العلوم المقررة يومئذ علوماً دينية ولغوية، ولكنه تتلمذ على عدد من الشيوخ البارزين الذين كان لهم في نفسه

أثر محمود يذكرهم بالثناء والتقدير إلى آخر حياته، ولعل أهم هؤلاء الشيوخ هم: سالم بوحاجب (ت: ١٩٢٣) وعمر بن الشيخ (ت: ١٩١١) ومحمد النجار (ت: ١٩١٣)، وفي عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م) نال شهادة التطويع، وهي شهادة سميت بهذا الاسم؛ لأنها تتيح لحاملها أن يتطوع بإلقاء الدروس في الزيتونة نفسها.

أصدر مجلة «السعادة العظمى»، وهي أول مجلة ظهرت في المغرب العربي، وأغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي، ثم تولى القضاء في مدينة «بنزرت» عام ١٩٠٦م، ولم يرقه ميدان القضاء؛ إذ حال بينه وبين الدعوة للإصلاح والجهاد، فتركه إلى التدريس في جامع الزيتونة أستاذاً للعلوم الدينية والعربية. كما تولى التدريس في مدرسة (الصادقية) بتونس.

حكم عليه بالإعدام لاشتغاله بالسياسة، ودعوته إلى النضال والتحرر، فهاجر إلى دمشق، وأقام بها مدة تولى في مطلعها التدريس في (المدرسة السلطانية)، واعتقله جمال باشا فترة من الزمن رحل بعدها إلى «الآستانة» وإلى ألمانيا. ثم عاد إلى دمشق، فلاحقته سلطات الاحتلال الفرنسي، فرحل إلى مصر لاجئاً سياسياً عام ١٩٢٠، والتقى بكبار علمائها ورجالها، وآثره أحمد تيمور باشا ـ رحمه الله ـ بصداقته.

قام بتأسيس (جمعية الهداية الإسلامية)، وأصدر مجلة تحمل نفس الاسم، واشترك في تأسيس (جمعية الشبان المسلمين)، وانضم إلى علماء الأزهر مدرساً للفقه في كلية أصول الدين، ثم أستاذاً في التخصص، واختير عضواً في جامعة كبار العلماء بعد أن قدم رسالته العلمية «القياس في اللغة العربية».

ترأس جمعية (جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية)، ثم عين ـ بعد قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ ـ إماماً لمشيخة الأزهر.

توفي يوم (١٢ رجب عام ١٣٧٧هـ الموافق للثاني من فيفري سنة ١٩٥٨ ميلادية)، ودفن بوصية منه في المقبرة التيمورية القاهرية إلى جانب صديقه أحمد تيمور باشا ـ رحمهما الله ـ.

أما من اهتم به، فلست أدري هل أستطيع حصرهم؟ ولكني سأذكر ما استطعت منهم على سبيل المثل لا الحصر كما يقولون:

١ ـ الأستاذ محمد علي النجار الذي علق على ديوانه «خواطر الحياة» في طبعته الثانية سنة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م).

٢ ـ الأستاذ أنور الجندي الذي خصه بترجمة في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا»، الصادر عن الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ من صفحة (١٧٣ حتى ١٧٦).

٣ ـ الأستاذ أبو القاسم محمد كرو في الكتاب الرابع من سلسلة «أعلامنا» الصادر عن دار المغرب العربي بتونس سنة ١٩٧٥ بعنوان: «محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر الأسبق»، دراسات ومختارات صدرها ببيت من شعر الشيخ الخضر يقول:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن وادٍ أعيش به وحدي

يحتوي هذا الكتاب على ١١٠ صفحة رتبه صاحبه على مقدمة وقسمين: الأول: خصصه لحياته وأعماله، والثاني: قدم فيه نصوصاً مختارة.

٤ ـ الأستاذ محمد مواعدة الذي أعد بحثاً هاماً يعتبر لحد الآن أوفى البحوث عن شخصية الإمام محمد الخضر حسين في كتابه «محمد الخضر

حسين، حياته وآثاره» صدر عن الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٤ .

يحتوي هذا الكتاب على ٣٦٣ صفحة، تقديم للأستاذ المنجي الشملي بصفته المشرف على هذا البحث في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية، ومقدمة، وثلاثة أقسام. في القسم الأول:

١ ـ حياته بالبلاد التونسية.

٢ ـ حياته بالبلاد السورية.

٣ ـ حياته في مصر.

وفي القسم الثاني الخاص بآثاره ثلاثة أبواب أيضاً هي:

١ ـ مقالاته ومحاضراته.

٢ ـ مؤلفاته.

٣ ـ شعره.

وفي القسم الثالث تحدث عن شخصيته الثقافية:

الرجل: العالم ـ الأديب ـ اللغوي ـ المصلح ـ السياسي.

وخاتمة، ثم ملحق، أورد فيه بعد التمهيد النصوص التالية:

الرحلة الجزائرية ـ خلاصة الرحلة الشرقية ـ حديث عن رحلتي إلى دمشق.

ونظراً لأهمية هذا العمل، فإني سأقتبس كثيراً من فقراته، خاصة في التمهيد لكل قسم، مستسمحاً من المؤلف أولاً، ومنك أيها القارئ الكريم:

يقول الأستاذ محمد مواعدة في تمهيد القسم الأول:

«إن حياة الشيخ محمد الخضر حسين هي حياة رجل كرسها صاحبها في طلب العلم والتعمق فيه أولاً، ثم في تعليمه ونشره والسعي لرفع راية

الإسلام وتوحيد كلمة المسلمين ثانياً.

فلم تكن حياة رجل عادي متشابهة في أيامها وسنواتها، بل كانت مليئة بالأحداث اللينة أحياناً، والصعبة أحياناً أخرى، ذلك لأن صاحبنا كان كثير التنقل، محباً للترحال والتعرف، وواسع الطموح، زد على ذلك: ما صادفه من أحداث وظروف وطنية وعالمية لم تمر عليه كما مرت على كثير من الناس، ولم يتقبلها كما تقبلها كثير غيره، بل حاول أن يعيش ويتفاعل معها، ويساهم في تكييفها بقسط هو قسط العالم الذي يعتمد أسلوب التوجيه والإشارة والتنبيه حيناً، أو هو قسط الرجل السياسي الذي يعتمد أسلوب الحركة والعمل حيناً آخر.

وقد حاولت التعرف على أهم عناصر حياة الشيخ محمد الخضر حسين، وما مرت بها من مراحل مختلفة، والتوصل إلى أهم جوانبها، حتى نفهم شخصيته الثقافية، وما قامت به من أعمال لفائدة الدين والأدب والسياسة. ويمكن تقسيم حياة الشيخ محمد الخضر حسين إلى ثلاثة مراحل:

١ ـ المرحلة الأولى: حياته بالبلاد التونسية:

وتخص هذه المرحلة سنوات حياته التي قضاها في تونس منذ ولادته وطفولته إلى تعلمه، وهي فترة يمكن تسميتها بفترة (التعلم والتكوين)، وتمتد من سنة ١٨٧٣م سنة ولادته إلى سنة ١٩١٢، وهي السنة التي غادر فيها البلاد التونسية نهائياً إلى المشرق.

٢ ـ المرحلة الثانية: حياته بالبلاد السورية:

وتخص هذه المرحلة كامل الفترة التي قضاها من حياته بدمشق، وانتقل أثناءها إلى الآستانة و«برلين»، وتمتد من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٢٠، وهي السنة

التي غادر فيها سورية للاستقرار في البلاد المصرية. ويمكن أن تسمى هذه المرحلة بمرحلة (التنقل والترحال).

٣ ـ المرحلة الثالثة: حياته بالبلاد المصرية:

وتشمل سنوات حياته التي قضاها في مصر، واستقر بها نهائياً، وتمتد من سنة ١٩٢٠ إلى وفاته سنة ١٩٥٨. ويمكن أن تسمى بمرحلة (المجد الثقافي)؛ لأنها الفترة التي أظهر فيها قيمته الثقافية، وبرزت فيها مكانته، وتقلد أثناءها مناصب علمية عالية، أكدت غزارة علمه، وعمق شخصيته.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم الذي اعتمد الإطار التاريخي والجغرافي، قد اتبعه كل الذين كتبوا عن حياة الشيخ محمد الخضر حسين، (وخاصة منهم: الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، والأستاذ أبو القاسم محمد كرو). كما درج عليه هو نفسه عند حديثه عن أطوار حياته بمناسبة حفل التكريم الذي أقامه له أحد تلاميذه الدكتور عبد الوهاب المالكي عند زيارته دمشق سنة ١٩٣٧، ويعتبر هذا التقسيم عملاً تنظيمياً يساعدنا فقط على فهم مراحل حياة الرجل وتدرجها. ذلك لأن حياة الإنسان حلقات متواصلة ومتداخلة في نفس الوقت من الصعب تقسيمها ومعرفة حدود كل مرحلة من مراحلها المتعاقبة.

ثم يقول الأستاذ محمد مواعدة في تمهيد القسم الثاني:

«قضى الشيخ محمد الخضر حسين حياته في التعلم والتثقف أولاً، ثم في التعليم وتوجيه المجتمع الإسلامي ثانياً، متخذاً في ذلك كتابة المقالة، وإلقاء المحاضرة طريقة للتبليغ، فأشرف على تحرير مجلات عديدة هي: «السعادة العظمى»، و«الهداية الإسلامية»، و«نور الإسلام»، و«لواء

الإسلام»، وكان يكتب البحوث والمقالات العلمية والأدبية، كما كان يكتب أيضاً في عدد من المجلات الأخرى مثل: «المنار»، ومجلتي «البدر» و«الفجر» التونسيتين، ومجلة «الفتح» التي كان يشرف عليها صديقه الشيخ محب الدين الخطيب، صاحب المطبعة السلفية بالقاهرة.

وقد كان الرجل كثير القراءة والمطالعة، كما كان كثير الكتابة، سأله صحفي مصري بعد أن أصبح شيخاً للأزهر (مجلة المصور عدد الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢): هل تهوى الكتابة؟ فأجابه: وهل هناك من يجيد القراءة ولا يكتب؟! ويكفي أن نذكر أن آخر مقال صدر له بمجلة «لواء الإسلام» كان في عدد فيفري سنة ١٩٥٨، وهو الشهر الذي وافته فيه المنية. ولذلك تتمثل أغلب آثاره في المحاضرات المنشورة، والمقالات والبحوث التي صدرت في مجلات مختلفة، ويبدو أنه كان يقوم بذلك عن قصد؛ لأن الغرض الذي كان يهدف إليه من الكتابة هو توضيح تعاليم الدين الإسلامي. وتوجيه المسلمين وإرشادهم، والدفاع عن الإسلام لحمايته من تهم الملحدين والزنادقة. ويقضي ذلك اتباع الوسائل الكثيرة الانتشار حتى تعم الفائدة عدداً كبيراً من القراء، ولا أجدى من استعمال المجلات والصحف لتحقيق هذا الغرض.

وهذا ما جعل الرجل لا يؤلف الكتب إلا عند نقض كتابي «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، و«في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، مع ملاحظة أن أسلوب هذا الرد لا يختلف كثيراً عن أسلوب البحث القصير أو المقالة.

وكان الشيخ محمد الخضر ـ بالإضافة إلى ذلك ـ شاعراً، وقد جمع

قسماً من قصائده في ديوان «خواطر الحياة»، أما القسم الآخر، فلم يزل موزعاً في المجلات والصحف ينتظر الجمع والتبويب والنشر.

ويتبين مما تقدم: أن بحث آثار هذا العلامة، وتبويبها، وتحليلها العلمي الدقيق يتطلب دراسة مستقلة؛ نظراً لكثرة هذه الآثار وتشعبها، وتعدد مواضيعها. لكن ذلك لا يمنعنا من تقديم أهمها في هذا القسم من الدراسة والتعريف الموجز بمحتواها وقيمتها؛ حتى نستخلص أبرز أفكار الرجل ونظرياته في القسم الثالث من البحث، ويمكن تبويب هذه الآثار إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ الباب الأول: ويحوي المحاضرات المنشورة والمقالات المجموعة في كتب.

٢ ـ الباب الثاني: ويشمل ما ألفه الرجل من كتب في اللغة والأدب، وخاصة كتابيه في «النقض».

٣ ـ الباب الثالث: ويخص آثاره الشعرية.

كما يقول الأستاذ محمد مواعدة في تمهيده للقسم الثالث بشخصيته الثقافة:

«تعرضنا في القسم الأول من هذا البحث إلى حياة الشيخ محمد الخضر حسين، والأطوار التي مر بها، والظروف التي أحاطت بتربيته وتكوينه، ثم بنشاطه العلمي والسياسي، سواء بالبلاد التونسية، أو بالمشرق العربي، وتبين لنا من خلال ذلك أن الرجل محب للمعرفة، طالب لها، ومهتم بإصلاح المجتمع الإسلامي، ساع إليه في كل المناسبات والأحوال.

ثم تحدثنا في القسم الثاني عن آثاره، فحللناها بإيجاز، وعرفنا بأبرز محتوياتها، فتبين لنا من ذلك غزارة علم الرجل، وسعة معارفه، وسمو ثقافته

في ميادين الديـن والأدب واللغة والسياسـة، وحـدَّة مواقفـه في الدفاع عن الإسلام، ونقض ما يوجه إليه وإلى رجاله من (تهم) و(أباطيل)، أو ما يمس - في رأيه - القرآن الكريم والحديث الشريف من تحريف وسوء تأويل، أو مبالغة في الشرح والتفسير.

أهم ما يمكن استنتاجه من التعرف عن مراحل حياة الشيخ وآثاره: أن هناك انسجاماً وترابطاً متيناً بينهما، فكانت مؤلفاته النثرية والشعرية صورة صادقة لما كان يؤمن به من أفكار، ويعتقده من آراء في حياته. وهذا ما يجعل الرجل شـخصية ثقافية متميزة لها عناصـرها الأصيلة، ومضمونها الجلـي، ومركباتها البارزة. وأهم هذه العناصر هي في نظرنا:

- محمد الخضر حسين العالم في شؤون الدين.
- محمد الخضر حسين الأديب.
- محمد الخضر حسين المصلح.
- محمد الخضر حسين السياسي.

أما عن الملحق، فإنه يمهد له بما يلي:

«اهتم الشيخ محمد الخضر حسين بميدان الرحلات منذ شبابه؛ كما بينا ذلك في القسم الأول من هذا البحث، وقد كان هذا الاهتمام ناتجاً عن شعوره بفائدة الرحلات، سواء بالنسبة إلى القائم بها من حيث تكوين شخصيته الثقافية والعلمية، وتوسيع مداركه وخبراته، أو بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي من حيث النشاط الذي يقوم به الرحالة في المناطق التي يزورها بإلقاء المسامرات العلمية، والخطب التوجيهية، والمحاورات الأدبية.

وقد قام هذا الرجل بعدة رحلات في حياته، زار خلالها البلاد الجزائرية،

وبلدان المشرق العربي، وبلدان أوربية مختلفة. ثم كتب مقالات وصفية عن بعض هذه الرحلات نشرها في المجلات والصحف.

وقد بقيت هذه الرحلات موزعة مما يحمل الباحث جهداً كبيراً عند الرجوع إليها لدراساتها، أو الاستفادة بمحتواها. ولذلك قمنا بجمعها، والتعليق عليها حتى نساهم في تقريبها من المثقفين عامة، والدارسين خاصة.

كما نمكن القارئ من الاطلاع على آراء الرجل وأفكاره بالاعتماد على نصوص من تحريره، بالإضافة إلى ما أوردناه في شأنه في هذه الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ محمد الخضر حسين قد كتب مقالاً وصفياً عن رحلته إلى ألمانيا صدر بجريدة «البلاغ» البيروتية سنة ١٩١٨، وقد حاولنا الحصول على هذا النص لنشره في هذا الملحق، إلا أننا لم نتمكن من ذلك. أما النصوص الني قمنا بجمعها والتعليق عليها، فهي:

١ ـ «الرحلة الجزائرية» التي نشرت في مجلة «السعادة العظمى» عدد ١٩ وعدد ٢٠ و٢١.

٢ ـ «خلاصة الرحلة الشرقية» التي نشرت في جريدة «الزهرة» (مارس ـ أفريل سنة ١٩١٣).

٣ ـ «حديث عن رحلتي إلى دمشق» الذي نشره بمجلة «الهداية الإسلامية».

وقد اعترضتنا صعوبة كبيرة في التعريف ببعض الأعلام المذكورين في هذه الرحلات، وخاصة في «خلاصة الرحلة الشرقية»، وقد تمكنا من التعريف بالبعض منها، وبقي عدد آخر لم نتمكن من التعرف به».



الحمد لله والصلاة على رسول الله

الفاضل الأخ [illegible] السيد محمد المكي حسين حفظه الله السلام
عليكم أما بعد فقد بلغني الكتاب البغدادي واستفدت من طرفه
أنكم بخير فأحمد الله على ذلك. أخبرنا سند ليلتين حفلة تأبين للأستاذ
الشيخ سيدي سالم بوحاجب في رواق المغاربة بحضور جم غفير
من الطلبة وغيرهم فقرئ نصيب من القرآن ثم ألقيت محاضرة
مرتجلة في آثار حياة الأستاذ ومقامه العلمي وإن شاء
الله تنشر خلاصتها في بعض الجرائد المصرية وبلغوا أعز
التحية إلى أبنائنا البغداديين وأبنائهم وسائر الإخوان وقد
سرنا ولاية الأستاذ ابن عاشور كاهية باش مفتي وولاية الأستاذ
الشيخ أبي الحسن النجار مفتيا فبلغوهما أعز التحية والتهنئة عند
ما تقع لهم الفرصة على ذلك ودمتم بخير والسلام من أخيكم محمد الخضر
وكتب في ١٤ ـ ٨ ـ ١٩٢٤

تأخرت عنا مكاتيبكم وليس من عادتكم انقطاع مكاتبتكم
ولعلنا نبدأ مكاتبتكم بعد هذا إن شاء الله

طبع كتاب المغني عن الحفظ في الأحاديث الموضوعة وعليه [illegible] في الكلام على وضع الحديث [illegible] أهل التأليف [illegible] والتعليق على [illegible] انتهى [illegible] على العلقات وعليه تعليقات [illegible] وسنرسل إليكم [illegible]

صورة من خط الإمام محمد الخضر حسين

رسالة كتبها إلى أخيه محمد المكي بن الحسين في تونس

فهرس الموضوعات

❒ ❒ ❒

الفهرس العام للموسوعة

الموضوع	الصفحة

كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

